٥ر٢ شاقل جديد

العـــــدد
حادي والسبعون
آذار – ١٩٨٦

الكاتب ٧١

للثقافة الإنسانية والتقدم

- البعد الديموقراطي، دفاعا عن الحقيقة دفاعا عن الثورة.
- التنمية، مفهومها وآفاق تطورها في المناطق المحتلة.
- في حارب محمية في الجبل النقابي والعمالي في الغرب.
- تعريب التعليم العالي، ضرورته واشكالياته.
- التشكيليون الفلسطينيون المعاصرون ازمة الاشكال والمشكل التوضيحي في الرسم.
- مكسيم غوركي، رائد الواقعية الاشتراكية في روايته "الام".
- الاحد الدامي، لمكسيم غوركي.
- قراءة جماعية في قصص جمال بنورة "خمسة ايام في البارعة".
- قراءة في نماذج أعلى التناسبات لمن يهمهم الامر.
- حماة الربيع.

المطلوب من القيادة الرسمية
الرد على خطاب الملك - قولاً وعملاً

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب

للثقافة الانسانية والتقدم

صاحب الامتياز - المدير المسؤول

أسعد الأسعد

القدس

AL-KATEB

For human culture and progress

Editor -

Asa'd Al-Asa'd

P.O.Box 20489
Jerusalem
Tel:856931

رئيس التحرير

أسعد الأسعد

مدير التحرير: محمد شاهين

هيئة التحرير

بسام الصالحي — تيسير عاروري

جميل السلحوت — فضل البورنو

محمد البطراوي — محمود الشيخ

المسؤول الإداري: يحيى شقير

صف ومونتاج: حبيب أبو غوش

المراسلات:

الكاتب - ص.ب: ٢٠٤٨٩ القدس

تلفون ٨٥٦٩٣١

الاشتراكات:

بالدولار أو ما يعادله عن سنة واحدة

محليا ١٥ دولار

بلدان أخرى ٤٠ دولار

المؤسسات

المحلية ٥٠ دولار

بلدان أخرى ١٠٠ دولار

ترتيب المواد في هذا العدد يخضع لضرورات فنية

لا ترد المواد المرسلة إذا لم تنشر.

Digitized by Birzeit University Library

سياسة :

• اسعد الاسعد
– المطلوب من القيادة الرسمية الرد على خطاب الملك قولا وعملا ٢
• د . سمير عبدالله
– اليمن الديموقراطي – دفاعا عن الحقيقة ، دفاعا عن الثورة ٣٣
• ريم محمد خالد
– من تجارب شخصية في العمل النقابي والعمالي في العراق ٤١

ندوة الكاتب

– التنمية – مفهومها وافاق تطورها في المناطق المحتلة ٧

دراسات وابحاث

• د . عفيف حسن
– تعريب التعليم العالي ٤٥

قصة

• خالد الجواريش
– لو .. يا .. يالو ١١٧

أدب ونقد ادبي

• قسم الترجمة في مجلة الكاتب
– الاحد الدامي لمكسيم غوركي ٧٨
• جمال بنورة
– مكسيم غوركي – رائد الواقعية الاشتراكية في روايته "الام" ٦٤
• خالد البطراوي ، ماجد ابو غوش وفايز منصور .
– قراءة جماعية في قصة جمال بنورة" خمسة ايام في القارعة" ٥١
• هيفاء السباسي . وصافي صافي
– قراءة في نماذج اغاني الثمانينات ٩٩

شعر

• المحامي زهير العناني
– جاء الربيع ١٢٣

شهريات

– أصداء ثقافية ١٢٥

Digitized by Birzeit University Library

المطلوب من القيادة الرسمية الرد على خطاب الملك قولاً وعملاً

أسعد الأسعد

الموقف الذي طرحه الملك حسين في التاسع عشر من شباط الماضي لم يكن مجرد صدفة، او وليد لحظة، كما انه لم يفاجيء الا من كان يعتقد ان الملك كان يسعى الى التنازل عن عرشه برجليه، ولأننا نعرف الملك، ونعرف النظام الذي يقف على رأسه، وندرك تماما كم هو حريص على عدم ضياع هذا العرش فانه لم يكن من السهل ان تنطلي علينا اية حلقة من حلقات مسلسل " التقارب الاردني الفلسطيني "، فبنظرة الى الوراء قليلا ،وتحديدا منذ الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا في مؤتمر الرباط عام ١٩٧٤، كان من الصعب على الملك ان يقبل ذلك، فوافق على مضض. بادئا بتنفيذ خطة لانتزاع ذلك القرار العربي، وبأية وسيلة يستطيعها، ومهما كانت الفرصة التي سوف يقتنصها للانقضاض على هذا الاعتراف .

وكانت الظروف تعمل لغير صالح الملك ومخططاته في تلك الاثناء، وسجلت المرحلة انتصارات هامة لصالح منظمة التحرير، وخاصة على الصعيد الدولي، وفي الامم المتحدة . الامر الذي زاد من صعوبة تحقيق ما يسعى اليه الملك ، بل ان الامور كادت تفلت من يديه نهائيا، لولا ان قيادة منظمة التحرير كانت تسيء ادارة اللعبة السياسية في حينه ايضا .

ورغم ان مشروع المملكة المتحدة الذي كان قد طرحه الملك عام ١٩٧٢ لم يجد قبولا من احد ، بما في ذلك اسرائيل نفسها، الا ان الملك، وضع مشروعه جانبا، ولكنه لم يتخل عنه، وظل يشكل الحد الادنى لطموحاته التي

Digitized by Birzeit University Library

يقاتل من اجل تحقيقها .

في هذه الاثناء كانت المناطق المحتلة محسومة لصالح منظمة التحرير، وان كان هناك احد من رجالات الملك، فانه لم يجرؤ على التحدث او المكاشفة بما يتناقض ومواقف منظمة التحرير، وظلت الامور كذلك، الى حين توقيع السادات على اتفاقات كامب ديفيد، وبعد الاجتياح الاسرائيلي الاول لمنطقة الليطاني عام ١٩٧٨، حيث بدأت قيادة م.ت.ف. بالتقارب مع الاردن، وكان واضحا ان تلك الخطوة شكلت بداية ما سعى اليه الملك،

وهي طرف الخيط المؤدى الى سحب كل البساط من تحت منظمة التحرير، وقد اوضحنا للذين توهموا منذ البداية عكس ذلك، وشاركوا في هذا التقارب، خطورة هذا النهج، على مستقبل القضية الفلسطينية وعلى مجمل المكاسب التي تحققت على كافة الاصعدة والمستويات،وقد ادرك البعض خطورة المضي في هذا الطريق واضطروا الى الانسحاب وحاولوا التأثير على اصحاب الرأى القائل بجدوى " التقارب مع النظام الاردني" واقناعهم بالانسحاب قبل فوات الاوان ، الا ان هؤلاء ظلوا سادرين في نهجهم ، متمسكين بموقفهم ... وظل النظام الاردني من جانبه ماض في خطته ، تارة بشراء الذمم وتوسيع دائرة نفوذه من خلال اللجنة المشتركة، والتي تحولت الى بنك لدعم خطة النظام الاردني في المناطق المحتلة، وتعزيز مركز رجالاته ، وتارة باعادة احياء المؤسسات الرسمية والشعبية للاردن " بضفتيه "كالبرلمان وغيره.

وشيئا فشيئا ظل الملك يضغط باتجاه تحقيق التنازلات، وجاء الغزو الاسرائيلي للبنان في حزيران عام ٨٢ وخروج المقاومة من بيروت، وتمزق القاعدة الاساسية، والبنية التحتية لمنظمة التحرير وتشتتها في مواقع متعددة ومتباعدة، بالاضافة الى القطيعة التي نشأت جراء الخلاف بين القيادة الرسمية لمنظمة التحرير وسوريا والمنشقين عن فتح وبقية الفصائل الفلسطينية ثم اضطرارها للخروج من طرابلس ثانية، كل ذلك وغيره، شكل فرصة تاريخية امام الملك لجر عرفات الى المزيد من التقارب مع الاردن، وبالتالي التقارب مع نهجه اليميني، اللاهث وراء سراب الحلول الامريكية، ورغم سقوط عرفات في شرك النظام الاردني، الا ان الفرصة كانت تلوح بين الحين والاخر، لتصحيح مسار القيادة الرسمية، والرجوع عن نهج تدمير منظمة التحرير الذى اختارته القيادة الرسمية، الا ان عرفات آثر الاستمرار في ذلك النهج، وامعانا في ذلك، دعا المجلس الوطني الفلسطيني للانعقاد في عمان ،ضاربا عرض الحائط بكل النداءات التي وجهتها الفصائل الفلسطينية والقوى الصديقة، للعودة عن قراره ،والعمل على التريث، وعدم قطع المباحثات التي كانت جرت بين فتح والتحالف الديموقراطي في عدن .

الا ان التوقيع على اتفاق الحادى عشر من شباط عام ١٩٨٥، والذى عرف فيما بعد باتفاق شباط، كان الخطوة الاكثر تفريطا بالحقوق الاساسية للشعب الفلسطيني، اذ شكل هذا الاتفاق تنازلا عن حق منظمة التحرير في تمثيل الشعب الفلسطيني، والذى اعترفت به الدول العربية في قمة الرباط، وكذلك فان القيادة الرسمية للمنظمة اعطت للملك حسين حق التحدث باسم الفلسطينيين وهذا جل ما كان يسعى اليه، بالاضافة الى ان اتفاق شباط

Digitized by Birzeit University Library

يعني التنازل عن استقلالية م.ت.ف. وتنازلها عن حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وحقه في اقامة دولته المستقلة على ترابه الوطني.

في هذه الاثناء، وخلال عام كامل، ومنذ التوقيع على اتفاقية شباط، كانت تتبلور مجموعات من رجالات النظام الاردني، في المناطق المحتلة وتحاول الاصطفاف بشكل سريع، وملفت للانتباه، ومن ذلك، الاعلان عن تشكيل ما سمي" باللوبي الاردني" -او مجموعة الـ ٢٧ " الذين وقعوا على نداء يدعو صراحة الى التنسيق مع الاردن، والعمل على "وحدة الضفتين" والترويج لمشروع الكونفدرالية، وقد بدا ذلك ليس بعيدا عن تصورات كثيرين من اعضاء القيادة الرسمية لمنظمة التحرير، الى حد ان الامور اختلطت بحيث اصبح في وقت من الاوقات من الصعب التفريق بين رجالات النظام الاردني " "والمحسوبين" على القيادة الرسمية في المناطق المحتلة، وتلك كانت واحدةمن النتائج المهمة التي سعى اليها الملك في المناطق المحتلة، اذ ان الملك حسين استخدم القيادة الرسمية "مطية" توصله الى المناطق المحتلة وتقدمه الى الشعب الفلسطيني هناك، استخدمها ضد غفران يغفر كل الخطايا التي ارتكبت بحق الشعب الفلسطيني بدءا بجده عبدالله، وتنفيذ مؤامرة ضم الضفة الغربية الى الاردن اثر مؤتمر اريحا في الاول من كانون الاول عام ١٩٤٨، وتفويت الفرصة التاريخية للابقاء على دولة فلسطين في الجزء المتبقي من فلسطين عام ١٩٤٨ -الضفة الغربية وقطاع غزة - مرورا بتغريط الحسين بالضفة عام ١٩٦٧، وانتهاء بمجازر ايلول، والاستمرار في نفس النهج والسياسة الداخلية والخارجية، التي أدت الى ضياع الضفة الغربية والتي يتباكى عليها اليوم، ويطالب بانقاذ ما يمكن انقاذه من ارضها.

المهم ان ضد الغفران هذا، جاء من الذين ذاقوا الامرين وخبروه جيدا، وحين نجح في الحصول على ذلك، كان من الطبيعي ان يدير ظهره لهم، ولمن اعطوه ضد البراءة والغفران، وكنا، ومعنا كل المخلصين من ابناء شعبنا نعرف ذلك، ولطالما حذر الجميع منه، ورغم التحذيرات المتكررة التي اطلقها العارفون بحقيقة النظام، وبخطورة الانجرار وراء خططه، الا ان عرفات ظل سادرا في طريقه التي بدأها منذ الخروج من بيروت واعتماده الخيار الاردني، خيار الحلول الامريكية، والتنازلات المجانية التي لا تنتهي، والتي لا طائل من تقديمها، غير تمزيق الساحة الفلسطينية في الداخل والخارج، وشق المؤسسات الوطنية وغياب العمل الوطني الواحد الموحد.

ان الاستمرار في تجاهل مخاطر السياسة قصيرة النظر للقيادة الرسمية، وعدم حسم الامور، والتمسك باعتماد سياسة غير واضحة تجاه ما يجرى، كل ذلك يندرج تحت سياسة ونهج خداع الجماهير، والاستمرار في محاولة التغطية والتعامي عن انحراف القيادة الرسمية وتبرير سلوكها، جريمة بحق الشعب الفلسطيني وقضيته الوطنية، يجب ان لا تستمر، فخالد الحسن، رأى وقبل يومين فقط من خطاب الملك، تغيرا مهما طرأ على موقف

Digitized by Birzeit University Library

الولايات المتحدة، ورأى في تصريحات الادارة الامريكية ، خطوة مهمة، وحاول الترويج لها ، رغم الوضوح في موقف الادارة الامريكية، وتمسكها بعدم الاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وحقه في اقامة دولته المستقلة.

ان التغير الايجابي الذى اشار اليه خالد الحسن، وحاول البعض ايهامنا انهم رأوه في تصريحات الادارة الامريكية عن حق الشعب الفلسطيني، ليس اكثر من تأكيد على مشروع ريغان الذى يتنكر للحقوق الاساسية للشعب الفلسطيني وبضمنها حقه في اقامة دولة مستقلة ، والاعتراف بالحقوق المشروعة ضمن مفهوم اتفاق شباط ، والكونفدرالية التي طرحها الملك حسين منذ مشروعه الاول عام ١٩٧٢.

من جهة اخرى، فان الوقائع تثبت تماما ، ان التنسيق بين الملك حسين والادارة الامريكية كان يتم اولا بأول، ومنذ الخطوات الاولى، كما ان الحكومة الاسرائيلية، كانت على علم مسبق بكل ما يجرى وتشارك في صيغته وتنفيذه من جانبها ، تارة بالقبضة الحديدية ، ومنها الاعتقالات الادارية والابعادات لدفع المواطنين الى حافة الاحساس بالاحباط، وتهيأتهم لقبول أى حل ، وتارة ، بتسهيل عمل رجالات النظام الاردني ، وغض الطرف عن نشاطاتهم في المدن والقرى، والدعوة الى الحكم الادارى البلدى، الامر الذى دفع سلطات الحكم العسكرى الى البدء بخطتها، حيث تم تعيين مجلس بلدى لمدينة نابلس، واعلن المجلس المعين، ان لديهم موافقة من الاردن، ومن منظمة التحرير ،الامر الذى شجع عددا من المهتمين في مدينتي رام الله والبيرة لتقديم عرائض تطالب بتعيينهم، وقد ادى ذلك الى التزاحم والمنافسة ، حيث قدّمت للادارة المدنية اكثر من قائمة تطلب تعيينها، وقد اختلطت القوائم بالمحسوبين على النظام الاردني وكذلك على القيادة الرسمية لمنظمة التحرير، وهو الخيط الدقيق، الفاصل بين الطرفين والذى اشرت اليه سابقا .

ان قيام الملك حسين بالتحريض على حلفاء الامس، وشركائه في التحرك المشترك، ومن ثم ما تنظمه الحكومة الاردنية من حملة واسعة لتأييد خطاب الملك من خلال " الزفة" التلفزيونية والصحفية التي شارك فيها الكثيرون ممن كانت القيادة الرسمية تعتبرهم من اتباعها ومؤيديها، بل وتستند لاصواتهم لتبيان مدى ما تتمتع به من تأييد " شعبي" واسع ، من امثال قيادة وضباط جيش التحرير، ومخاتير ووجهاء المخيمات في الضفة الشرقية بالاضافة الى اعضاء اللجان البلدية المعينة (او من هم قيد التعيين) وزلم ورموز النظام الاردني في المناطق المحتلة وغيرهم ، ان هذه الحملة تهدف بالدرجة الاولى لممارسة المزيد من الضغط على القيادة الرسمية ولتقديم التنازلات الجديدة التي يشترطها الملك لمواصلة مسيرة " التحرك المشترك" وذلك من خلال التلويح لهذه القيادة بوجود بديل لها، شاركت هي نفسها في صنع رجالاته عندما اعتمدت صواتهم ومنحتهم المصداقية .

ان من يسعى الى ارضاء الادارة الامريكية ظنا منه بأن ارضاءها سوف يمهد الطريق امام

Digitized by Birzeit University Library

تمكين الشعب العربي الفلسطيني من حقوقه واهم جدا، ولعل في تجربة القيادة الرسمية مع الادارة الامريكية عبر الملك حسين، خير دليل على ذلـــك .

كما ان الذين يعتقدون بأن اعتراف منظمة التحرير بالقرار ٢٤٢ سوف يرفع الظلم وينهي الاحتلال عن الضفة الغربية وقطاع غزة واهمون جدا، ولو تذكروا ان الملك حسين والدول العربية اعترفت بالقرار ٢٤٢ والقرار ٣٣٨ وبكل القرارات الصادرة عن الامم المتحدة، عند صدورها، وصوتوا لصالحها ، ولم يجدهم كل ذلك اى نفع ، لادركوا، ان اعتراف المنظمة بهذه القرارات وغيرها ، لن يقدم هو الاخر شيئـا .

ان الطريق نحو تحقيق الاهداف الفلسطينية، لا يمر عبر التنازلات ، وانما بالتمسك باستقلالية منظمة التحرير ووحدة فصائلها، كما ان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وحقه الثابت في اقامة دولته المستقلة، لن يتحقق بالتحالف مع غير حركات التحرر والقوى الحقيقية المحبة للسلام

ومن هنا فان المهمة الملحة امام القيادة الرسمية هي ان ترد بحزم على ما جاء في خطاب الملك، وان تعيد تقييم تجربتها في التحرك المشترك مع النظام الاردني، وان تمارس عملية نقد ذاتي جريئة تبين من خلالها نيتها الصادقة في التخلي عن النهج الذى قادها الى اتفاق عمان .

ان هذا مدخل لا بد منه لبدء عملية اعادة الوحدة لمنظمة التحرير الفلسطينية على اسس كفاحية معادية للامبريالية وعلى اساس قرارات المجلس الوطني الفلسطيني السادس عشر واتفاقية عدن ـ الجزائر .

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب، العدد 71، آذار 1986

التنمية
مفهومها وآفاقه تطورها في المناطق المحتلة

تتناول الكاتب، في هذا العدد، موضوعا اثار اهتمام اوساط مختلفة في المناطق المحتلة نظرا لاهميته من الناحيتين الفكرية والعملية، وقد تعرض موضوع "التنمية" الى تفسيرات مختلفة، حفلت بها الندوات التي عقدت من اجل بلورة مسار واضح له، سواء من خلال مبادرة الملتقى الفكرى العربي في القدس، او من خلال الندوة الاخيرة التي عقدت في جامعة بيرزيت حول" التنمية الريفية"، او من خلال ماكان يدور في اوساط العديد من المنخرطين في موءسسات ذات صفة جماهيرية، او اكاديمية .

ان "الكاتب"، تحاول في هذه الندوة المخصصة، ان تسهم بقسط متواضع من معالجة هذه القضية الحساسة، وتتوجه الى كل من يرغب في اغناء النقاش حول هذه القضية، بالكتابة اليها، بغض النظر عن اختلافه او اتفاقه مع بعض او كل ما ورد في خلاصة ما تنشره في هذا العدد .

Digitized by Birzeit University Library

لقد توجهت هيئة تحرير الكاتب ، الى كل من الزملاء : محرم البرغوثي – رئيس اللجنة العليا للعمل التطوعي ، ود. سمير عبدالله ،ود. سمير حزبون ، واسماعيل اذعيق (من مسؤولي اتحاد لجان الاغاثة الزراعية) ، د. خليل رشماوي ، سمير البرغوثي ، بسام الصالحي ، عصام العاروري* بالدعوة للمشاركة في ندوة خاصة حول " التنمية ، مفهومها وآفاق تطورها في المناطق المحتلة". ونحن نرحب في البداية ،وباسم هيئة التحرير بكافة المشاركين الذين لبوا الدعوة ، ونأمل ان يساعدنا غنى ما سيطرح فيها من مناقشات في الاسهام بقسط معين من التصورات والاستنتاجات حول موضوع حيوى ، يشغل اوساطا مختلفة من المهتمين في المناطق المحتلة وربما خارجها ،ونحن نشكر الزميل محرم البرغوثي ، رئيس اللجنة العليا للعمل التطوعي على مساهمته المكتوبة حول هذا الموضوع نظرا لما ورد فيها من افكار ، ساعدت على بلورة هذه الندوة الخاصة والاجابة ، على اسئلة متعددة .

ان موضوع " التنمية" في المناطق المحتلة" ليس جديدا ، وان كان طرحه يتفاوت من فترة لاخرى ، ولكنه بالاجمال ظل محصورا في نطاق عدد من الاوساط الاكاديمية ، وبعض المؤسسات المحلية او الاجنبية ذات العلاقة المباشرة "بالتنمية" ، غيرانعلم يبحث كما ينبغي في نطاق العديد من المؤسسات والاطر الجماهيرية ذات العلاقة الاكثر مباشرة باستراتيجياته .

ويمكن من خلال مراجعة عدد من المداخلات والنقاشات التي جرت سابقا حول هذا الموضوع ، ملاحظة مراوحتها حول قضيتين مركزيتين ، الاولى تتلخص في البحث عن الاشكال والوسائل الممكنة من اجل وقف التدمير الجارى في الاقتصاد المحلي وغيره من نواحي الحياة الاجتماعية والخدمات ، والذى لا يخفي مصدره على احد ، والثانية ، حول الامكانية الواقعية ، لتحقيق "التنمية" في المناطق المحتلة ، ووفق اى مفهوم واستراتيجية يمكننا ذلك . هذا اذا امكننا ان نفصل اصلا بين كلتا القضيتين .

ان الكثير مما كتب حول مفهوم "التنمية" كان عاما جدا ، ويساعد في اغلب الاحيان على خلط قد يحمل معه انحرافات سياسية وفكرية يجب التنبه لها . لقد اشير مثلا الى ان "التنمية ، هي تناول معين لوظيفة جوهرية ، في المجتمع " ، او تقصر مفهومها على "التنمية الاقتصادية" ، سواء من خلال النظر الى المظاهر الخارجية ، لذلك في اطار المداخيل ورفع مستوى المعيشة وغيرها ، او من خلال النظر الى مضمونه الاكثر عمقا في اطار علاقات وقوى الانتاج ، الى غير ذلك من المفاهيم .

وربما ساعد على تنوع وعمومية " ما يقصد بالتنمية" ان هذه القضية حديثة نسبيا ، وقد دخلت بقوة اكبر الى الميدان الفكرى والعملي اثر الحرب العالمية الثانية ، وفي نطاق سعي البلدان المتحررة والمستقلة حديثا ، للتطور وتقليص الهوة الكبيرة بينها وبين البلدان الصناعية المتقدمة .

ان السمات المشتركة للبلدان النامية ، حيث ضعف مستوى تطور القوى المنتجة ، والتخلف بهذه الدرجة او تلك لعلاقات

Digitized by Birzeit University Library

الانتاج السائدة، والتمازج بين انماط انتاجية مختلفة فيها، وصعف التركيبة الاقتصادية، والتخلف في الميدانين الصناعي والزراعي، وتفشي الجهل والامية ..، وبشكل اكثر تحديدا، محاولة الامبريالية المحافظةعلى اخضاع هذه البلدان للتبعية، قد ولد في المقابل اتجاها تقدميا عبر عن نفسه في محاولة واضحة لكسر هذا الطوق من التبعية، والتوجه نحو بناء قاعدة قوية من اجل التقدم والتطور، وفق نماذج مختلفة عبرت عن نفسها حسب الظروف الخاصة والامكانيات المتاحة لتنمية القدرات الخاصة في هذه البلدان. غير انه يمكن القول ،وبالاجمال، ان استمرار هذه العملية التنموية، وثبات تطورها ،بالاضافة الى عمقها ، كان يتراوح من بلد لاخر نظرا لعوامل اخرى متعددة، على رأسها طابع وتركيب السلطة السياسية التي توجه هذا التطـــــور .

ان الواقع الذى نعيشه هنا، يطرح اشكالية محدده لعملية " التنمية"، وهي وجود البلد في ظرف استثنائي، الاحتلال، مما يعني غياب اطار مركزى من خلال الدولة او السلطة، لتوجيه العملية التنموية وهذا يولد تساؤلات تتمحور حول الامكانية، الواقعية لبناء تنموى معين في المناطق المحتلة يتجاوز السلطـــة،

او استحالة تحقق هذا البناء تماما بسبب طبيعة الواقع السياسي. وفي الحالة الاولى، هل يقتضي ذلك وجود نموذج خاص، ذاتي، وما هو شكل هذا النموذج واستراتجيته وافاقه.

ان هذه الاسئلة وغيرها، تقتضي منا بداية ان نحاول الاتفاق في تحديدما نعنيه بمفهوم "التنمية"، ومن ثم الانطلاق الى معالجة المسائل الاخرى وفق هذا التحديد. ومقابل ما يمكن ان نرفضه من مفاهيم معينة" للتنمية" ماذا يمكن ان نقدم كبدائل لذلك ، اخذا بعين الاعتبار مناقشة ما ورد في مساهمة محرم البرغوثي حول الاستراتيجية البديلة التي يقترحها في نطاق الاقتصاد الطبيعي .

د . سمير عبدالله :

ان ارضية مناسبة لفهم الموضوع تتطلب تحديد نمطية التحول وما يؤثر عليها في المجتمع. ان نمطية التحول لها طابع موضوعي وتقع تحت تأثيرات مختلفة. ولذلك يجب تحديد كيف يجرى الانتقال، التحول، وما هي قوانينه الداخلية، وكيف يمكن ان نؤثر نحن على هذا التحولحتى يحقق طموحاتنا في التنمية من اجل رفع مستوى معيشة القوى الكادحة من شعبنا .

وسأحاول التفصيل اكثر، حيث لا بد من تحديد مظاهر التحول في الاقتصاد ككل، والتي يمكن تلخيصها فـــي اربعة مظاهر رئيسية

١) تحلل الاقتصاد البيتي ــ الطبيعي. وانحسار نطاقـــه .

٢) تمايز الاقتصاد السلعي الصغير.

٣) تزايد العمل المأجور بشكل متفاوت طبعا، في مختلف قطاعات الاقتصاد .

٤) تمركز العمل ورأس المال .

وتنطبق هذه النمطية على كل الدول النامية، التي تعيش ظروف الانتقال العفوى من مجتمع رأسمالي جنيني الى مجتمع متطور . ان المؤثرات على هذه النمطية في المناطق المحتلة يمكن تقسيمها الى شقين :ــ

١) مؤثرات موضوعية ناجمة عن اندماج

Digitized by Birzeit University Library

اقتصاد ضعيف ، ومفكك مع اقتصاد رأسمالي متطور ، هو الاقتصاد الاسرائيلي ، .

٢) مؤثرات ارادية ، ذاتية . ناجمة عن مجمل السياسات والتدابير المبرمجة والهادفة التي تنفذها سلطات الاحتلال .

وهذه المؤثرات تظهر من خلال تأثيرها على عملية التحول نفسها ، في :

اولا تسارع انحلال الاقتصاد الطبيعي . ثانيا : تشوية تمايز الاقتصاد السلعي الصغير ، حيث تجرى هنا عملية معقدة ، وتحتاج الى توقف ، فمن المفروض ان تجرى هذه العملية بتسارع حيث ينتقل قسم محدود من القطاع السلعي الصغير الى مصاف البرجوازية ويستخدمون العمل المأجور ، والقسم الاكبر ينحدر الى صفوف الطبقة العاملة ويتحول الى العمل المأجور . ان هذه العملية تجرى بتشوه هنا ، ومن وجهة نظرى ان هذه العملية احادية الجانب ، حيث ينحدر القسم الاعظم من القطاع السلعي الصغير ، ولا توجد ظروف تساعد على صعود بعضه الى مصاف اعلى ، ويلاحظ حالة حراك واسعة في هذا القطاع من نشاط اقتصادى الى آخر وهو يمر في حالة اعادة هيكله تحتاج الى دراسة معمقة . وهنا تقتصر على سبيل المثال تكيف القطاع السلعي الصغير في الزراعة لخطة سلطات الاحتلال وارتباط بعض انواع النشاط الصناعي فيه ببعقود مقاولة مع المؤسسات الاسرائيلية .

ثالثا : مسارعة زيادة حجم العمل المأجور ، حيث ان الاندماج بالسوق الاسرائيلية ، ومجموعة التدابير الاسرائيلية ، بالتفاعل مع العملية ، الموضوعية في التحول ، تجرى زيادة العمل المأجور ، ومن المفروض ان يلازم هذه العملية زيادة حجم القطاع الرأسمالي الكبير ، او تمركز رأس المال ، ولكن ما نراه عمليا ، ان نطاق تمركز الصناعات محدود وآفاق تطورها محدودة ، ويستخلص من كل ذلك انه يجرى تهميش البنية الاقتصادية للمناطق المحتلة ، اى بقاء البنية الاقتصادية للمناطق المحتلة ، مفككة ضعيفة ، محدودة وصغيرة وفي نفس الوقت زيادة حجم الباحثين عن العمل . وهذا الوضع الذى يؤدى الى فصم المواطنين عن شروط عملهم ومعيشتهم الى جانب عدم تقوية البنية الاقتصادية وتوسعها يؤدى الى ترك الايدى العاملة تواجه احتمالين اما كاحتياطي عمل رخيص للمؤسسات الاسرائيلية او الهجرة للخارج بحثا عن مصادر الرزق .

من خلال هذا التحديد يجب السؤال عن مدى تدخلنا في تسيير عملية التنمية لصالح الصمود والتقدم ورفع مستوى معيشة المواطنين ، وكلا الصمود ورفع مستوى المعيشة يغذى بعضه البعض ، اذا كان ذلك نابع من محتوى وطني ، حيث يغذى كل ذلك عملية المقاومة الجارية في المناطق المحتلة وهذا في رأيي يشكل مدخلا لعلاج القضية المطروحة .

عصام العاروري :-

من خلال مطالعات مختلفة لعلماء اقتصاد واجتماع رأسماليين يلاحظ ان الجوانب المشتركة في معالجتهم لقضية التنمية ، هو معالجتها كقضايا فنية ، تكنولوجية بالاساس . ذلك مرتبط بنظرة استعمارية حيث يعتبرون ان من الممكن تصدير التنمية مثل تصدير التكنولوجيا وغيرها ، وهي نظرة ترمي الى ابقاء البلدان النامية تابعة للسوق الرأسمالي

Digitized by Birzeit University Library

العالمي ، وحتى معالجتهم لقضية التنمية بجوانبها المختلفة تبدو معالجة مفككة ودون صلة وارتباط بمختلف فروع الاقتصاد الوطنـــي .

بعض العلماء يعتبرون ان اى زيادة كمية ولو مؤقتة في الانتاج هي تنمية ، دون الاعتبار لنوع هذه الزيادة او مدى استمراريتها ، رغم انها قد تكون مظهرا عرضيا ولا تشكل نقطة انطلاق حقيقية نحو التنمية ، وبصدد الاستشهاد مثلا بتجارب معينة في الوطن العربي ، العراق :اذ تكون اقتصاد يعتمد على القطاع العام ، ولكن الاتجاه الذى جرى فيه ، وطبيعة السلطة السياسيةفي البلد سمحت بالتراجع عن هذا الاتجاه. ان ما يهمنا الوصول اليه ، هو ان التنمية بمفهومها الشامل والحقيقي والمرتبط بمختلف فروع الاقتصاد الوطني ، ومختلف جوانب الحياة الاجتماعية لا بد وان يرتبط بطبيعة السلطة السياسية ولايمكن عزله عنها سواء في البلدان الرأسمالية او البلدان ذات التوجه الاشتراكي ، ان العامل المقرر في النهاية لاستمرار هذا الطريق او التراجع عنه هو طبيعة السلطة السياسية . وهذا يدفعنا الى استنتاج آخر ، وهو ان التنمية في ظل الاحتلال هي عملية مستحيلة ، الا اذا اردنا الحديث عن تحسين مستوى المعيشة ،ومقاومة وعرقلة مخططات الاحتلال او تعزيز صمود فئات مختلفة .هذه اهداف صحيحة ولكنها ليست " تنمية" وفي اعتقادى ان هذا هو جانب النقص الاساسي في الندوات والمعالجات السابقة ، حيث جرى الاهتمام بالجوانب الكمية والفنية ، مثل الرى بالتنقيط وغيره ، دون النظر انه لا توجد حماية سياسية لكل هذه القضايا .

ايضا انوجود السلطة السياسية هام جدا ، لان التنمية في مجتمع معين لا يمكن فصلها عن الارتباطات الدولية والعالمية للبلد المعنى ، وداخليا يجب ان ترتبط بشكل اساسي في اعطاء دور معين للقطاع العام وملكية الدولة ومواجهة علاقات الانتاج المتخلفة في المجتمع ، وعندما سنتحدث عن المناطق المحتلة بالتحديد سنلاحظ مدى العائق الذى تشكله علاقات الانتاج امام التنمية وان اى تنسيق مهما بلغت درجته بين مختلف المؤسسات لا يمكن ان يمس اسس علاقات الانتاج القائمة والمرتبطة بالسلطة السياسية .

محـرم البرغوثـــي :

ارغب في اضافة نقطةمرتبطة بالموضوع ، حيث اشار د. سمير عبدالله الى الصمود ورفع مستوى المعيشة ، وان كلاهما يغذى الاخر ، بينما تحدث الزميل عصام عن استحالة التنمية ، في المناطق المحتلة ضمن المعطيات القائمة. بمقابل رفع مستوى المعيشة على اساس وطني كما تحدث د. سمير ، هناك مفهوم آخر لرفع مستوى المعيشة وهو مرتبط بما تخطط له الادارة المدنية ، وامتداداتها الخارجية ، عبر مؤسسات وجمعيات مختلفة. ان مفهوم هؤلاء يختلف جذريا عما نفكر فيه من رفع لمستوى المعيشة بما يخدم الصمود والمواجهـــة .

ان ما نريده نحن ، هو تحديد خطة واضحة ، الى اين ينبغي ان تتوجه النشاطات ، والاطر الجماهيرية المختلفة ، حتى تستطيع ان تتعامل مع الواقع القائم حيث لا توجد دولة

Digitized by Birzeit University Library

مستقلة ، وطابع السلطة القائمة معـــروف .

د. خليل رشمـاوى :

الحقيقة ان من اسباب نجاح الاحتلال ، هو غياب اية كوادر للتنمية قبل الاحتلال ، اذ لم يكن هناك اى تطوير في ظل الحكم الاردني للنواحي الصناعية/الزراعية والثقافية وغيرها . على العكس من ذلك كان هناك ضغط لمنع اقامة صناعات او انشاءات في الضفة الغربية وتحويلها الى الضفة الشرقية ولم تكن هناك مرتكزات اقتصادية يمكن الاعتماد عليها الامر الذى ساعد الاحتلال . نظام الاردن لم يهتم بعملية التنمية ولذلك هل يعقل ان تهتم اسرائيل بهـــا .

انا اوافق الاخوان ان اسرائيل لا يمكن لها ان تنمي اى شيء . ولذلك من المهم الوضوح عن اى تنمية تتحـدث ، في رأيي ان المهمة الان هي اعادة تخطيط التنمية . بحيث يتم اعادة دراسة اقتصاد المناطق المحتلة من جديد واقامة شركات كبيرة ومؤسسات والبدء بتشكيل نواة لذلك ، تشكل بديلا للسلطة من اجل تحسين مستوى المعيشة وهذا امر مؤقت لحين اقامة السلطة الوطنية . نحن لا نتحدث عن تنمية شاملة ولكن من اجل تحسين ظروف المعيشة نسبيا في ظل الاحتـــلال .

د . سميـر حزبـــون :

أشكر هيئة تحرير الكاتب على هذه المبادرة التي تظهر اهتمام المجلة بقضية حساســـة .

بدأت اسرائيل بعد عام ١٩٦٧ بشكل مبرمج بعملية الحاقنا ، على طريقة تقسيم العمل الدولي ، الدول التابعة للمتربول ، وبدأت مبادرات لدراسة موضوع " التنمية" ورائدة وان لم تحقق تماما النتائج المطلوبة . مثل مبادرة الملتقى الفكرى في عقد مؤتمر التنمية من اجل الصمود ، والذى اتبعوه بعقد ندوة صيف عام ٨٤ في مجمع النقابات حول التنمية ، وندوة ببرزيت حول التنمية الريفية . وأشعر انه من الضرورى التبادل الدائم للرأى حول الموضوع وتناوله من عدة زوايا ، حيث يمكن النظر اليه من زاوية اقتصادية واجتماعية وتربوية وغيرها ، انه موضوع غير محصور وله زوايا متعددة .

اذا ما نظرنا الى تجارب او نماذج تنموية تمت في بلدان متحررة . فأننا كنا نجد ان الحديث يدور حول تنمية تبدأ بصناعات خفيفة او تحولات بسيطة في الريف على النمط الرأسمالي . في حين ان الاقتصاديين في البلدان الاشتراكية يرون ان البلدان المتحررة والنامية ، تبدأ في الصناعات الثقيلة لانها مركز اساسي للطبقة العاملة ، وهذا مهم في العملية التنمويـــة ، اذا ماكانت بحاجة للاستمرارية ، لذلك لا نتحدث عن زيادة الاستهلاك والانتاج وانما تنمية يكون لها الاستمرارية وليست آنيـــة .

أنا أخالف الرأى القائل انه لا يمكن التحدث عن التنمية في ظل الاحتلال ، لان الشرط هو زواله ، ولكن هذا لايمنع ان نخطط للعملية التنموية بشكل معين ، اتذكر انه من اولى المبادرات للحديث عن ذلك ما اشار اليه اركادى في دراساته حول اقتصاديات المناطق المحتلة ، حيث تحدث عن التنمية

Digitized by Birzeit University Library

وكان يشير الى ان النمط التقليدى للتنمية هو استعمار البلدان المتخلفة حيث ستتقدم من خلال الاستعمار واستشهد على ذلك بمؤشرات اقتصادية مثل زيادة الانتاج وحجم الاستهلاك ،ومؤشرات لا تدل فعلا على تطور في البنية الاقتصادية في المناطق المحتلة حيث تراجعت هذه البنية ولكن يجب عدم رؤية التنمية ايضا وكاننا نسعى لاعادة بناء المجتمع بشكل جديد . استبدال المؤسسات والوضع القائم بشكل جديد. هذا هو القائم يجب ان ننمي في ما هو قائم ، ولذلك اذا ما اردنا ان تكون عملية التنمية واقعية فانها يجب ان تهدف الى استمرار وجود هذا الشعب على ارضه، واذا كان هذا هو الهدف فانه بحاجة الى مرتكزات.في البلدان المتحررة تعتمد مرتكزات التنمية على عناصر الانتاج ، وفي ظروفنا فان عناصر الانتاج هي الارض، المياه ، الانسان. هذه المرتكزات هي ما اعتبرناها هامة لعملية التنمية لدينا .

اذا اردنا ان نتحدث عن العوائق امام عملية التنمية فان ذلك سيحتاج الى ندوات. صحيح ان سياسة التمييز الاقليمي التي مارستها السلطات الاردنية ومن ثم سلطات الاحتلال تشكل عوائق . ولكن هناك عوائق محلية امام التنمية لا تتحكم فيها مثل عدم التحكم في الموارد الطبيعية. كذلك هناك عوامل خارجية تعيق عملية التنمية، القوانين الاسرائيلية ، الوضع الاقتصادى بمجمله .. وغيرهـــا .

ولذلك اؤكد انه يجب ان نتفق على تحديد مفهوم التنمية بانه استمرار وجود هذا الشعب . وفي هذه الحالة ممكن ان نواجه العملية الاقتصادية الاسرائيلية والقائمة على ايديولوجية ارض بلا شعب ، وعلينا ان نطرح ايديولوجية مقابلة لذلـــك .

سميـــر البرغوثـــي :

قبل ان نتحدث عن التنمية في الارض المحتلة يجب ان نتفق على مفهوم التنمية الشامل. ان التنمية بطبيعة الحال هي تطوير في قوى الانتاج والدفع من اجل وجود علاقات انتاج جديدة اكثر تطورا . يدخل ضمن ذلك الجانب الكمي والنوعي في عملية التنمية. الكمي يمكن قراءته من خلال مؤشرات اقتصادية ، رفع المداخيل، رفع الانتاج، ونوعيا من خلال علاقات الانتاج .

هناك مفهومين للتنمية الاقتصادية مفهوم برجوازى يقصر التنمية بمعايير كمية ومؤشرات اقتصادية فحسب ويستشهد في ارتفاع مداخيل بعض البلدان النامية وارتفاع عائداتها بالاخص البلدان الغنية بالمواد الخام كدليل على وجود تنمية اقتصادية. المفهوم الاخر مفهوم الطبقة العاملة، الذى يشترط بناء قاعدة مادية انتاجية حيث يتوفر للبلدان النامية موقع افضل في التقسيم العالمي للعمل وقوة اقتصادية للانسلاخ عن علاقات الانتاج الرأسمالية العالمية .

المفهوم البرجوازى اثبت فشله، اذا القينا نظرة على البلدان النامية التي سارت في طريق التطور الرأسمالي نلاحظ تفاقم ازماتها وديونها نتيجة انخراطها احادى الجانب في التجارة الخارجية والتقسيم الدولي للعمل. وازدياد اعتمادها على البلدان الرأسمالية

Digitized by Birzeit University Library

الصناعية المتطورة. ان المفهوم العلمي للتنمية الشاملة يهدف لاقامة علاقات انتاج داخلية تكفل الابتعاد عن التقسيم الرأسمالي العالمي للعمل . ولذلك لا يمكن الحديث عن تنمية بمفهومها العلمي الشامل خارج اطار التوجه الوطني الديموقراطي والسلطة السياسية لهذا التوجه. وعليه لا يمكن الحديث في العديد من البلدان النامية عن تنمية حقيقية. فما بالنا ونحن نتحدث عن تنمية في ظل الاحتلال ، لا يوجد لدينا علاقات انتاج تسمح بالانفصال عن السوق الرأسمالي العالمية ولا يمكن ايجادها ضمن الواقع القائم والدعوة لايجادها مجرد طوباوية .

ما الذي نقصده بتنمية في المناطق المحتلة، تحدث الزميل سمير عبدالله عن المسار الاقتصادي في المناطق المحتلة ـ مزيد من الاندماج والالحاق ـ وهذا الامر له بعد سياسي واقتصادي خطير . ولذلك يجب البحث كيف يمكن ايقاف هذا التسارع في الاندماج. ان ايقاف هذه العملية غير واقعي ولكن يجب دراسة كيف يجب الحد من ذلك وهذا يرتبط ايضا ببعد آخر سياسي وهو كيف يمكن ابقاء اكبر عدد ممكن من السكان في المناطق المحتلة وهذا يتطلب توفير متطلبات اقتصادية لهم ، واقترح ان يركز على هذين البعدين . ولكن اصر على عدم تسميتهما تنميـــــة .

عصـام العـاروري :

اذا اردنا تلخيص ما اتفقنا عليه فان مقاومة الدمج اوالهجرة ليست تنمية وانما يجب ان نسميها شيئا آخر وليس تنمية الا اذا اردنا ان نفصل نموذج خاص ذاتي للتنمية. فقط ان بلداننـا مستقلة بدون تخطيط شامر وطني لم تحقق التنمية رغم ادعائها ذلك في الاردن مثلا يكذبون على انفسهم ويقولون ان هناك خطط تنمية وصحيح ان هناك ازدهار في بعض فروع الاقتصاد الوطني وفي الاساس قطاع الخدمات ولكن هذا شيء خارجي منفوخ كانتفاخ الجسم المريض الذى يعتقد انه عضلات ولكن الحقيقة ان ذلك مجرد وهم ، وهو مرهون بدعم البترودولار ومستمد من الاوضاع السياسية القائمة في المنطقة .

فاذا كان ذلك حال بلدان " مستقلة" فما هو الحال بالنسبة للمناطق المحتلة ، حيث ان سقف التطور فيها محدود بشروط الواقع السياسي. مثلا هناك اكثر من (١١٠٠) قانون عسكرى تتناول جوانب الحياة المختلفة ، الارض، المياه، التعليم .. كل شيء . ان مقاومة ذلك ، اذا ما كنا نتحدث عنها فهذا ليس تنمية، انه شيء آخر، كذلك الامر في كيفية مقاومة الدمج الاقتصادى. ان كل هذا يشبه عملية شطرنج مفروضة علينا ، حيث يتحدد دورنا فيها في اعاقة او تطويل فترة خسارة اللعبة. مثلا لنتناول مشكلة المياه، وحيث يساهم حلها في حل عدد كبير من مشاكل القطاع الزراعي كما اشارت الدراسات التي قدمت في ندوات التنمية، نلاحظ ان هذه الازمة موجودة حتى في اسرائيل ، وهي تحاول حلها من خلال تقليص حصة المناطق المحتلة من المياه، انهم يملكون السلطة والاجهزة لحل هذه المشكلة ، وحلهم لها يعني تفاقمها بالنسبة لنا ، هذا بالاضافة الى وجود قوانين تمنع حفر آبار جديدة ، وحتى المصادر القائمة يمكن الاستيلاء عليها كما حصل في

Digitized by Birzeit University Library

منطقة العوجا ، بالنسبة للنبع الرئيسي لمياه العوجا ، اننا ببساطة لا نملك اية سلطة لحماية الاغوار . وبالتالي اقترح ان نحاول بحث الجوانب الاساسية للسياسة الرسمية المتبعة، في المناطق المحتلة. وكيف يمكن عرقلة هذه السياسة .

محرم البرغوثـــي :

انا موافق على ما طرحه سمير البرغوثي وعصام العاروري واناقش جزئيا ما طرحه د. سمير عبدالله، يستحيل في اى تجربة . وكما يؤكد رواد التنمية ان يتم الفصل بين السلطة السياسية والتنمية وحيث يعتبر الجهاز السياسي والسلطة الوطنية شرطا اساسيا للتنمية. ولذلك فان الجوانب المختلفة محدودة بقوانين عسكرية. فضلا عن غياب السلطة ولذلك انا طرحت منذ البداية ان الحديث عن التنمية يذهب الى معنى اشمل انها لم تعد في مفهومها العام تنمية . البرجوازية الكبيرة عندما تطرح مصنع الاسمنت او البنك كمتطلبات للتنمية فانها تعتمد على ان السلطة معها . ولذلك يجب الفصل بين مفهومين للتنمية المفهوم البرجوازى والعلمي للتنمية .

بسـام الصالحـي :ـ

معظم المداخلات ركزت على الجانب الاقتصادى لمفهوم التنمية. ورغم ان هذا الجانب هام جدا في اى عملية تنموية الا ان هذه العملية تعالج جوانب اكثر شمولية، من ذلك. هل بمقدورنا الحديث عن تنمية اقتصادية (وفقـــا لاى من المفاهيم المطروحة) بمعزل عن طابع العلاقات الاجتماعية وما هو قائم فيها من تمايزات طبقية. وهل صراعنا من اجل التنمية، ينحصر في مواجهة السلطة الاسرائيليـة وحدهـــا ؟؟ .

اعتقد ان هذا تصور مجزوء ، والحقيقة ان الواقع يشهد شيئا آخر الى جانبه، وسأتناول مثلا واضحا في الاغوار، حيث لا يصطدم المزارعون هناك ، والحريصون بالتأكيد على الصمود والثبات في الارض فقط مع اجراءات السلطة، وانما ايضا مع اصحاب الاراضي، والسماسرة وغيرهم من المستغلين الذيـن يعرضونهم لالوان متباينة من الاستغلال. هناك مثل آخر ، يظهر في القطاع الطبي. فالى جانب الدور الحيوى والهام جدا، الذى يؤديه اتحاد لجان الاغاثة الطبية في الضفة والقطاع، والذى يناهض بمحتواه العام السياسة الرسمية المتبعة في الحقل الصحي ، فانه يتعرض لخصومات كثيرة من قبل عدد من الاطباء الكبار الذين يحتكرون الوسط الصحي، لانه يناهض ايضا ذهنية وسلوك هؤلاء ، ويقدم نموذجا آخر لا يرضيهم ويحد من دورهم . ولذلك من غير الصحيح ـ في رأيي ـ قصر مفهوم التنمية على المحتوى الاقتصادى وحده دون رؤية الجوانب الاخرى الاجتماعية المؤثرة على هذه العملية، كما انه من غير الصحيح كذلك عدم تتبع اتجاهاته نحو جوانب اخرى كالصحة، والتعليم والتربية. الخ

ثانيا : لا ينبغي الحديث عن التنمية في المناطق المحتلة فقط بمدى ارتباطه بأى من التحديدين الكبيرين اللذين جرى حصرهما. فأما تنمية شاملة في علاقات الانتاج والقوى المنتجـة الامر الذى لا يجرى بدون سلطة سياسية موجهة له، (وهذا الامر لا ينسجم مع الواقع الذى

Digitized by Birzeit University Library

نعيشه) او التمسك بتحديد آخر ذو منطلقات برجوازية، والذى يعتقد ان اى تحسين هو تنمية. من المهم ان ننطلق في البحث عن مقومات لا تساعدنا اليوم فقط ، وانما ذات امتداد بعيد المدى في نطاق طموحنا للدولة المستقلة. ولذلك اؤكد ان السؤال لا ينبغي ان يكون اما تنمية كاملة تحت الاحتلال ودفعه واحدة. اولاشيء ،كما انه كذلك لاينحصر بالصمود وعلينا ان نحدد ما نقصده بالصمود، حيث انه يحتمل عددا كبيرا من التساؤلات التفصيلية ايضا، فضلا عن عدم كفايتة كاستراتيجية .

سمير عبدالله :

تأكيدا لكلام الزميل بسام ، يجب ان ننظر للتنمية من منظار شمولي وواقعي وليس فقط ضمن التعريف الكلاسيكي : ان التنمية هي عملية تحسين سيطرة الانسان على شروط حياته الطبيعية والاجتماعية في نطاق صراعه مع الطبيعة وتدخل ضمنها تنظيم الاسس الاجتماعية التي تساعد في تحسين هذه السيطرة. وضمن هذا يمكن ان ندخل الى المسألة من جوانب جزئية وليست شاملة لاننا لسنا دولة مستقلة ولا هيئة تخطيط ولا قيادة سياسية. اعتقد ان فهم التنمية على انها تطور قوى الانتاج وعلاقات الانتاج. والافتراض بأنه لا تنمية الا بعد تحقيق سلطة الطبقة العاملة يحمل شيئا من المبالغة. كل فئات المجتمع لها مصلحة في التنمية ولكنها تنظر لها بمنظار مصالحها الخاصة. هناك بعض اشكال التنمية الديموقراطية تتوزع فائدتها على كل فئات المجتمع ولكن بنسب مختلفة.

ان التطوير في بعض الجوانب يؤدى الى تطويرفي جوانب اخرى كما ان هناك ارتباط بين التطوير الكمي والتطوير النوعي ويحفز التطوير في احدهما التطوير في الاخر .

لذلك ارى من الضرورى اعادة التأكيد على النظر للتنمية من منظار واقعي ضمن ظروفنا ورؤية الجانب الذى يتوفر فيه مجال للتطوير. فهذا سيسهم في مراكمة العوامل من اجل تنمية اكبر وأوسع في المستقبل مع الاخذ بعين الاعتبار ان بعض اشكال النمو يمكن ان يشوه ويضع عقبات امام التنمية لنلاحظ في المناطق المحتلة انه يجرى اقامة بنية ارتكازية لا تنتفع منها بشيء . فالشوارع والاوتوسترادات بين المستوطنات هي لتقطيع اوصال المناطق المحتلة وهي ان اخذت بمعزل عن الظروف تعتبر مظهرا من مظاهر التحديث والحضارة. ولكنها عمليا وفي الواقع مكرسة من اجل ضرب اقتصاديات المناطق المحتلة واعاقة تحررها. ان هذا يتطلب التدقيق في هوية كل مشروع من خلال فحص اهدافه .

ووفق هذا التصور للتنمية اعتقد اننا سنكون ظالمين اذا وجهنا اتهامات للمهتمين بموضوع التنمية واعتبارهم يهدفون لحرف الرأى العام عن القضية الجوهرية. مع العلم انه يوجد منهم من يهدف لذلك. اخيرا ارغب في تلخيص مفهوم التنمية تحت عنوان" الصراع على الجبهة الاقتصادية بالنسبة للانسان الفلسطيني" وبذلك يكون واضحا الهدف و يبقى التفكير بالوسائل وهذه عملية ممكنة وضرورية .

Digitized by Birzeit University Library

خليـــل رشمـــاوى :

اذاً التنمية هي مجموع الاجراءات الموجهة الـى :

١) تعزيز صمود المواطنين في الاراضي المحتلة وهذا يتطلب زيادة فرص العمل امامهم داخل المناطق .

٢) تحسين ظروف المعيشة والتي يشارك فيها كل الاطر الجماهيرية والاجتماعية التي تساعد الانسان على الصمود .

٣) ايجاد قاعدة اقتصادية مستقلة تستطيع استيعاب ايدى عاطلة ومنافسة الصناعات الاسرائيلية وتكون نواه لدولة فلسطينيةمستقلة لاحقـــا .

٤) تقليل الربط الاقتصادى بين المناطق المحتلة والاقتصاد الاسرائيلي .

اعتقد ان كل هذه الاجراءات تساعدنا على الصمود ضمن استراتيجية اقامة الدولة المستقلـة في المستقبـــل .

محـــرم البرغوثـــي :

بالنسبة للجزء الاول حول مفهوم التنمية فذلك لا يرتبط فقط بقناعتنا ، حيث ان هناك محاولات مستمرة لوضع مفهوم مختلف وخطر لذلك . والاستنتاج الذى توصلنا اليه هو فهم خاص يجب التركيز عليه بالتنمية للمناطق المحتلة. ان ما قاله الزميل بسام هو ما قلته ربما لم اجد التعبير الملائم لذلك. وهو ايجاد قناة بين المؤسسات الجماهيرية وناتج هذه الندوة. فمثلا لو نظرنا الى جوانب اخرى في عملية التنمية ، التعليم ، الصحة ، الثقافة ... الخ. نجد ان المناطق المحتلة تقاسم بقية البلدان النامية ولكن بوضع خاص وهو الاحتلال . فمعظم السكان هنا مزارعون ولو استعرضنا مابعد ٦٧ لوجدنا ان اولى ضربات الاحتلال ضدالمزارعين . كل سنة هناك ضربات اقتصادية الى جانب هذايمكن رؤية الو ضع في المجال التعليمي ، حضانات الاطفال ، تخريب المناهج. لذلك ارى ان النشاطات الاجتماعية ومخيمات الاطفال والمخيمات التطوعية هي جانب مهم من جوانب عملية التنمية ، هي تنمية روحية وطنية لهذا الجيل في المناطق ذات بعد سياسي. ان فصل الهدف السياسي عن العملية التنموية غير صحيح وهذه نقطة مفقودة في معظم الدراسات

بســـام الصالحـــي :

اذا سمحتم لي بتلخيص جانب مبدأى اتفقنا عليه في النقاش فهو اننا لا نتحدث عن التنمية بمفهوم تدمير هيكل اقتصادى وتركيب هيكل جديد يسمح بتطور لقوى الانتاج وبناء علاقات انتاج جديدة. اننا لا نتحدث تحديدا عن هذا الامر في المناطق المحتلة ، وانما نتحدث عن شيء آخر علينا تحديد ملامحه بغض النظر عن التسمية بحد ذاتها .

عصـــام العـــاروري .

اضيف الى ذلك انه من المهم ان لا نقع في مطبات الخطأ الشائع في المناطق المحتلة ،بحسن اوسوء نيةوهو ان كل تحسين يسمى تنميه ليس كل انجاز لمؤسسة يسمى تنمية وان كان هناك انجازات جزئية ومتفرقة ولو وجد تنسيق بين المؤسسات في التنمية لا يمكن الاستعاضة عن جهاز الدولة

Digitized by Birzeit University Library

والتخطيط المركزي. تأخذ الجامعات كمثل، ان وجودها جيد ويساعد في تطوير المناطق المحتلة، فلو سألنا كم من هذه الجامعات تلائم مناهجها الاحتياجات اللازمة في المناطق المحتلة. حتى فترة قريبة كان التضخم في جامعاتنا قائم على سوق العرض والطلب في دول الخليج. ونتيجة لهذا نعاني الان من فائض في بعض الفروع. هذه جوانب ادت الى تشويه في بنية المناطق المحتلة اسهمت به الى حد ما بعض المؤسسات الوطنية القائمة.

بسام الصالحي :

اني ارغب في الاختلاف مع القول ان التنمية هي فقط صمود ومقاومة التدمير الجاري بعموميتهما. ما هو مفهوم الصمود لدى الفئات الاجتماعية في اسفل السلم الاجتماعي او الاخرى في اعلاه، اذكر انه كان هناك صراع حاد يدور حول اموال اللجنة المشتركة وطريقة صرفها تحت شعار دعم الصمود الوطني. لا شك ان هذه الاموال خلقت بعض المؤسسات وربما ادت لنوع من التطور في بعض المواقع ولكن اى فئات استفادت من هذه الاموال وما هو نوع الصمود الذى خلقته؟ وهذا يجعلنا نتشكك مع محرم حول عمومية شعار تحسين شروط الحياة والتمييز بين المؤسسات ذات الاهتمام بقضايا التنمية، لكن لا بد بنفس الوقت ان نرى وجود مؤسسات اخرى لديها طرح آخر حول الصمود ومقاومة الاحتلال من خلال دعم فئات اجتماعية اخرى وبطرق مغايرة.

لذلك يجب ان يدخل في تلخيص لمفهوم التنمية البعد الاجتماعي القائم، وتحديد التوجهات الوطنية والطبقية التي تحكمه وروءية ان ذلك لا يجرى دون صراع. وهذا هام جدا. ودعونا نتساءل مثلا : عندما تقدم اموال لدعم مشاريع معينة من الذى تخدمه هذه الاموال. انا لا اتفق مع القول ان اى تحسين وتطوير يصب بالضرورة في تطوير مجابهة الاحتلال. لو كان كذلك فعلا لحققنا اشياء اكثر مما تحقق فعلا في السنوات الاخيرة. هناك نوع من التطور يريده الاحتلال ولا يعارضه. لقد جرت بعد الاحتلال على سبيل المثال محاولة اقامة مشاريع مشتركة بين الاحتلال وجزء من البرجوازية الفلسطينية لعدة سنوات ثم عدل الاسرائيليون عنه. الان يحاولون من جديد افساح المجال امام جزء من هذه الشرائح، من اجل تطوير وتغيير شكلي. ولكن بالمفهوم الاجتماعي الكفاحي الوطني ليس له محتوى تنموى وكوننا لم نشترط في تلخيصنا السابق ذلك التحديد النظرى الذى طرحه بعض زملائنا فيما يتعلق بعلاقات الانتاج، الا ان ذلك لا يعني انه يجب تغييب النظرة الاجتماعية اثناء تحديد العملية التنموية، ان هذا الامر هام وضرورى جدا.

محرم البرغوثي .

ارغب في اضافة عدة تأكيدات على ما قيل واخذا بعين الاعتبار ما قلته وقاله د. سمير عبدالله. حول رفع مستوى المعيشة على اساس وطني اشير لدور ما يسمى باموال الصمود.

Digitized by Birzeit University Library

ففي الواقع العملي هذه الاموال سلخت شريحة اجتماعية عن النضال الوطني ولعبت دورا تخريبيا تقريبا. واستفادة من تجربة اللجنة المشتركة اخذت المجموعة الامريكية تحت شعار تحسين شروط الحياة العمل لسلخ المزيد من الشرائح الاجتماعية عن النضال الوطني ولذلك فان رفع مستوى المعيشة على اساس وطني هو امر اساسي لدعم اي مشروع .

سميـــر البرغوثـــي

اعتقد اننا توصلنا الى نقطة اتجه اليها النقاش وهي ان التنمية ليس بناء علاقات انتاج جديدة او تغير نظام الملكية الموجود في المناطق المحتلة . او الغاء التقسيم الطبقي الموجود. ولكن بما هو موجود وبمستوى قوى الانتاج الموجودة كيف يمكن تعزيز مقومات الصمود الاقتصادي وبالتالي مقومات التطور والتنمية الاجتماعية . اود التأكيد على نقطة هامة ان الجانب الاقتصادي والاجتماعي للتنمية لا يمكن لهما الانفصال عن بعضهما البعض. وما ودمنا في الحديث عن اللجنة المشتركة. لدينا تجربة للمظاهر الخطيرة في الاقتصاد التي يحدثها هذا الفصل فسياسة اللجنة المشتركة في توزيع الاموال تجاهلت ضرورة دعم القاعدة الانتاجية في الارض المحتلة. وهذا نموذج من نماذج الفهم البرجوازي لعملية التنمية، وتتحدث الارقام ان اللجنة المشتركة صرفت في الارض المحتلة من عام ٧٩ — ٨٥ مبلغ ٤٧٢ ر١٤٦ مليون دينا رعلى القطاعات المختلفة منها ٥ر٢٣٪ للتربية والتعليم و ٢ر١٦ ٪ للاسكان ، ٧ر١٥٪ للمجالس البلدية ٤ر٨٪ للتنمية الاجتماعية و٤ر٢٪ لصندوق الرعاية الوطنية ٧ر٤٪ للكهرباء ٣ر٩٪ للزراعة ٧ر٥٪ للصناعة. نلاحظ انه جرى التركيز على الخدمات الاجتماعية واهمل الجانب الاخر، تعزيز البناء الاقتصادي او دعم القاعدة الانتاجية في الارض المحتلة حيث افرد للزراعة ٣ر٩٪ فقط اى بمعدل سنوى ٢ر٢٧٠ مليون دينار رغم ان ٤٦٪ من السكان يعتمدون في معيشتهم على القطاع الزراعي وتحتل الزراعة ٣٧ ٪ من الناتج القومي الاجمالي في الضفة . اما الصناعة فقد خصص لها ١ر٣٩١ مليون دينا ربمعدل سنوى . ان هذا التميز يمكن تلمسه في تحقيق بعض التقدم في بعض الجوانب الاجتماعية مثل انتشار التأمين الصحي لدى الكثير من المؤسسات ونمو عدد الطلبة والعاملين في الجامعات المحلية ...الخ. بمقابل ذلك ورغم هذه النفقات لم يتم تعزيز القاعدة الانتاجية وايجاد فرص عمل . وتشير الاحصائيات ان عدد العاملين داخل الضفة والقطاع لم يرتفع فقد بلغ ٦٠٠ر١٤٠ عام ١٩٨٠ ١٠٠ ر١٤٠ عام ٨١ و ٦٠٠ر١٤٣ عام ٨٢ وفي ٨٣، ٨٤ اخذ يرتفع وذلك ليس بسبب سياسة دعم الصمود وانما بسبب استفحال الازمة الاقتصادية داخل اسرائيل ، ان هذا المفهوم البرجوازي للتنمية المقصود على الجانب الخدماتي قد ساهم في رفع المداخيل نسبيا ومستوى المعيشة ولكنه لم يؤد الى تكوين استثمار وبالتالي تعزيز القاعدة الانتاجية وانما زاد الانفاق الاستهلاكي الشخصي والاعتماد على استهلاك المنتوجات الاسرائيلية وتسارع الاعتماد على الاقتصاد الاسرائيلي .

على ضوء ذلك اعود لتحديد النقطة المهمة كيف يمكن ابطاء تسارع اعتمادنا واندماجنا بالاقتصاد الاسرائيلي ، نحن لا نستطيع منافسة الاقتصاد الاسرائيلي فالضفة الغربية وقطاع غزة تحوز على ١٠ ٪ فقط من

Digitized by Birzeit University Library

الناتج القومي الاجمالي للمنطقة المسماه فلسطين (الضفة الغربية ، قطاع غزة، اسرائيل) وليس هناك في المستقبل القريب اى مؤشر على ذلك هذا هو الواقع وليس من الممكن بسهولة وبسرعة ان نتخلص من الاندماج الاقتصادى ولكن على الاقل يجب ان نبحث كيف نعمل لتوجيه قوى الانتاج الموجودة ضمن علاقات الانتاج الحالية لنباطيء في عملية الاندماج والتقليل منها . وهذه في نقاط محددة :

١) كيف يمكن زيادة فرص العمل للايدى العاملةفي المناطق المحتلة .

٢) كيف يمكن التقليل من استهلاك المنتوجات الاسرائيلية .

وهذا لايمكن ان يتم فقط من خلال شعاربدعوة الناس لمقاطعة المنتوجات الاسرائيليةمن المفروض ان نعملي بديلا ماديا وليس بديلا معنويا. اذ بتراجع البعد الوطني عند المستهلك اذا كان المنتوج الاسرائيلي اجود وأرخص .

عصام العاروى .

لقد رأينا المنحى الاساسي الذى حدث في المناطق المحتلة نتيجة سياسة اللجنة المشتركة وبعض المؤسسات الاجنبية حيث ازداد وزن الفئات الطفيلية التي لا تشارك في العملية الانتاجية. وهذا خطر اساسي اذ يسهل للاحتلال مخططاته. بل يعود بالفائدة مع ازدياد الطلب على المنتوجات الاسرائيلية، قبل فترة وجيزة قرأت في الصحف الاسرائيلية مقالات تتحدث عن ارباح اسرائيل نتيجة الاحتلال . والتنبيه من مخاطر اغلاق الجسور. لان هذا الوضع ببساطة يمول تكاليف جنود الاحتلال في المناطق المحتلة ويوفر لهم رواتبهم . لقداصبحت المناطق المحتلة مشروع اقتصادى مربح للاحتلال . وعليه فمن الضرورى ان تأخذ الجهود منحى عكسيا .

خليل رشماوى :

أى بمعنى آخر بدلا من ان تجمع اسرائيل ملايين الشواقل على شكل ضرائب وفوائد وعبور جسور وغيرها من انواع الدخل عليها ان تشعر انها تدفع شهريا ملايين في المناطق المحتلة . وبالتالي قلب المعادلة الاقتصادية السائدة حاليا وهذا لن يتم الا بايجاد البديل.

بسام الصالحي :

انا اختلف مع هذا المدخل. بالطبع من الممكن القول انه اذا تم بناء اقتصاد قوى ومتين فسيتم حل جزء كبير من المشكلة لاننا سنستطيع المنافسة ونحقق لاحقا مستوى دخل افضل. نظريا هذا صحيح ولكن في الواقع الموضوعي من الذى يريد عمل هذا ، وهل بمقدورنا ان نعمل ذلك ولو بأحسن برامج نظرية مقترحة : بعد الاحتلال مباشرة جرى الحديث عن ضرورة تلافي ما يحدث الان والتخوف من الحاق اقتصاد المناطق المحتلة باسرائيل وربما بذلت جهود حسب تصورات نظرية مختلفة لمنع تلك النتيجة كما نراهاالان في تصورى نحن نبحث عن مفهوم للتنمية مختلف ، ليس بهذا التخطيط ممكن ان تحل المشكلة ولا رؤوس الاموال وأصحابها لانهم ليسوا معنيين في التنمية الحقيقية القائمة على التصدى للاحتلال . هم معنيون في تنمية على نمطهم وقد جربوها . وقد كانوا طوال الوقت يحاولون اقامة مشاريع ولم يتورعوا عن بيع

Digitized by Birzeit University Library

الكثير من المصالح الوطنية لتحقيق مصالحهم الاقتصادية. كانوا مستعدين لأى مشروع تعرضه اسرائيل ويحقق لهم ارباحا واستعدوا كما نرى ان يعملوا سماسرة لتسويق البضائع الاسرائيلية في البلدان العربية وبعضهم اقام مصانع تحت شروط تصدير صناعتهم للخارج وهم انفسهم يحاولون العمل مع الادارة المدنية في نفس الاتجاه وتحت شروط مشابهة. هذه هي الفئة التي تملك مقومات اقتصادية اكثر من غيرها. في مواجهة الاحتلال على الجبهة الاقتصادية هل هناك شريحة اخرى من البرجوازية الوطنية تريد بناء اقتصاد واحداث تطورات مغايرة أى مستعدة وطنيا وطبقيا للانسجام مع ما نراه نحن في مواجهة الاحتلال. وبالتالي التعويل عليها في بناء اقتصاد متماسك قادر على المجابهة. في رأيي حتى لوكانت هذه الشريحة موجودة فلايجب التعويل كثيرا عليها بسبب مؤسرات عديدة في طبيعتها وارتباطاتها وتطورها. ومقابل ذلك على من يجب التعويل ؟ في اعتقادى انه يجب البدء من أسفل السلم. من القوى الاجتماعية التي تتحمل العبء الاكبر في مجابهة الاحتلال وعبر هذه الفئات الواسعة يجب ان يجرى البحث كيف يمكن تطوير بعض المشاريع والنشاطات المختلفة الصغيرة والكبيرة بروح تعاونية. اذا اردنا القول اننا نستطيع اقتصاديا حل هذه المشلكة على مدى سنوات قليلة فهذا خاطئ او من خلال الاعتماد على البرجوازية فهذا ايضا خاطئ. ولكن من خلال عمل طويل النفس مع الفئات الشعبية الواسعة واقناعها بضرورة هذا التوجه مع خلق النماذج المقنعة لذلك. من الممكن ان يشكل هذا ، وعلى مدار سنوات طويلة ارضية لمرحلة اعلى من المقاومة لذلك فان البحث عن وسائل مناسبة من اجل خلق اشكال مختلفةمن التنظيم والمحافظة على الارتباط القومي الفلسطيني بما يمنع المزيد من التدمير والهجرة اهم من مسألة مقاومة التغلغل الاقتصادى الاسرائيلي في اطار مخططات عامة من الضرورى العمل على توفير المقومات المادية البسيطة جدا من اجل حل المشاكل الحياتية المباشرة للقطاع الواسع من الناس واقامة مشاريع مقنعة تقوم بها هذه الفئات اذا ماقتنعت بها . وتحديدا في الريف. وأؤكد ان اصحاب رؤوس الاموال في المناطق المحتلة لا يشكلون العنوان الصحيح للعمل التنموى في المناطق المحتلة. وانما تشكله القوى الاكثر فقرا وصاحبة المصلحة الحقيقية فيه .

والان لنكمل موضوعنا المحدد ونتناول بشيء من التفصيل طبيعة الاستراتيجية التنموية التي ينبغي اعتمادها انسجاما مع تصوراتنا لهذا المفهوم . لقد طرح محرم كما تحدثنا في البداية تصور العودة للاقتصاد الطبيعي كمدخل لبناء جمعيات تعاونية تساهم في حل جزء اساسي من مشكلة التنمية. بالاضافة لذلك اذكر ببعض اوراق العمل المقدمة لندوة بيرزيت حيث وردت مداخل مختلفة لعلها تساعدنا في المناقشة مثل مقال المهندس ابراهيم الدقاق الذى تحدث عن ضرورة وضع نموذج تنموى للارض المحتلة ولكنه لم يحدد شكل هذا النموذج ، غير انه حذر من التبعية للمؤسسات الاجنبية صاحبة التمويل في الارض المحتلة. كذلك كان هناك طرح بأهمية بناء جمعيات تعاونية انتاجية وتسويقية تتجاوز السوق

Digitized by Birzeit University Library

الاسرائيلي كاستراتيجية للتنمية بالاضافة لبعض الطروحات النظرية حول ضرورة الاستفادة من بعض تجارب البلدان المستقلة كالهند وغيرهـــا .

عصـــام العـــاروري :-

قبل حديثي اود التأكيد على المدخل الهام الذى طرحه بسام. وهو لمصلحة من من الضرورى ان تكون التوجهات والنشاطات. واضيف انه وفق ظروف الارض المحتلة وخصوصياتها فان من الصعب وجود توجهات عامة او تعميمات مطلقة . فالامر يتطلب التعامل مع قضايا عينية تؤثر فيها عوامل موسمية وجغرافية برغم وجود القواسم المشتركة فلنأخذ مثلا السوق، ان اسواق المناطق المحتلة مجزأة ، ويعاني منها المزارعون كثيرا ، فلا يمكن مثلا شراء بطاطا من انتاج غزة في الضفة الغربية الا بعد مرورها بتصريح عبر السوق الاسرائيلي ،كذلك تحتاج منتوجات الغور الى تصريح من اجل تسويقها في الضفة، اى بشكل عام فان وحدة السوق غير متينة، مما يقودنا لبحث طبيعة ارتباط القطاعات الانتاجية في السوق الاسرائيلـــي .

اسماعيـــل ادعيـــق :

اضافة الى حديث عصام ،فان الاجراءات الاسرائيلية لم تقف عند هذا الحد. فبعد احتجاج مجلس المستوطنات من منافسة المنتجين المحليين تم اتخاذ عدد من الاجراءات لحماية المنتوجات الاسرائيلية في الاغوار. ومنها عدم السماح باخراج اى كمية من خضار الاغوار من سوق اريحا الا بترخيص من دائرة الزراعة بالكمية والصنف. كما تم تحديد ايام لكل منطقة، يسمح لها فيها بشراء الخضار ، فبيت لحم مثلا، تشترى فقط في يومين محددين بالاسبوع، واذا ضبطت معهم خضروات في ايام اخرى فانها تصادر. ولذلك فان بعض الخضروات في بعض الاسواق تعبأ في سيارات اسرائيلية ويعاد تصديرها .

محـــرم البرغوثـــي :

كما يمكن ان نلاحظ ان من بين اول ١٠٠ امرعسكرى في بداية الاحتلال كانت هناك اوامر تنص على منع تسويق البضاعة من المناطق المحتلة الى اسرائيل وهذا يعكس اهتمام السلطات منذ بداية الاحتلال في مضايقة المنتوج الزراعي المحلـــي .

اعود لموضوع التنمية والذى نتفق على محتواه وهو اشراك اوسع الجماهير الشعبية التي لها مصلحة في توجه التنمية ومقاومة الاحتلال. ولهذا ارى من الصحيح ان نبتدئ بالزراعة في الاساس ، لان الفلاحين الفلسطينيين يشكلون نسبة عالية من سكان المناطق المحتلـــة . وعنـــد النظـــر للاستراتيجيات الموضوعة للتنمية الريفية. لا يمكن الاعتماد على تلك التي تنقل تجارب اخرى نظرا لخصوصيات المناطق ووجود الاحتلال. انني احبذ الاقتراب من الواقع العيني والمشاكل الحسية . كنقص زراعة الحبوب ، نقص الدواب اللازمة للحراثة في الارياف . وتشير الزراعة في الاغوار ان هناك جانبا آخر من المسألة فبعض الاحصائيات تشير الى ان ٦٣٪ من عوائد [illegible]

Digitized by Birzeit University Library

تذهب للمناطق المحتلة بينما ان معظم عيون الميا في القرى التي كانت تنمو حولها شجار التفاح كانت تساهم بالاستهلاك المحلي بقسط وافر .

اما الان فهذا المحصول انقرض. بالمقابل فان ٧٢٠ الف دونم مزروعة بالزيتون وهذا الرقم يتزايد باستمرار كل عام . وهذا عائد لعدم الاهتمام الرسمي الحكومي سواء من الاردن سابقا او اسرائيل حاليا بالاضافة لتدني وعي الفلاح وأرى انه في هذا الوقت اصبح من الممكن بوجـــود جمعيات ونقابات وكوادر متخصصة متنوعة في لجنة الاغاثة الزراعية ان تساهم بحل مشاكل كتلك التي تحدثت عنها وتوجيه النضال وأموال الدعم لصالح فئات الفلاحين الفقيرة .

اسماعيـــل ادعيق :

اود التعليق على موضوع الاقتصاد الطبيعي. في الحقيقة ان التجارب السابقة اثبتت ان الصراع مع الاحتلال يأخذ عدة اوجه وهو للاسف استطاع ان يضرب الزراعة العربية والصناعة المحلية . وكان من المهم الاشارة انهم استطاعوا ضرب الانتاج الفردي ولكن ليس بنفس السهولة والفترة الزمنية التي استطاعوا بها ضرب الانتاج الكبير الزراعي والصناعي. وهذا يعود لعدة اسباب منها ان الانتاج الفردي لا يعتمد على السوق الاسرائيلية. ويمتاز بقلة تكاليف الانتاج لعدم حاجته جهدا عاليا كبيرا .. وبالتالي التركيز على عودة الانتاج الفردي عند الفلاحين هي مسألة اساسية في صراعنا مع الاحتلال. ان العامل او المزارع بامكانه انتاج الكثير من احتياجاته الاستهلاكية بدون تكاليف باهظة

اما النقطة الاخرى فهي ان احد اوجه الصراع مع الاحتلال صراع فكري وحضاري وهذا يفرض علينا التوجه للبحث العلمي الذي يقودنا لعدم الاعتماد على السوق الاسرائيلي وادخال طرق حديثه في الزراعة والصناعة. على سبيل المثال بالنسبة لاستهلاك المزارعين لكميات كبيرة من الاسمدة والادوية. استطاعت لجان الاغاثة الزراعية بترشيد المزارع لاستخدام طرق حديثة ان توفر عليه بحدود ٥٠ دينارا لكل دونم من المواد الكيماوية. النقطة الثالثة اود الاشارة لها وهي رفع شعار استهلاك الانتاج الوطني. يوجد الكثير من المواطنين يفضلون الانتاج الاسرائيلي . وهذا يتطلب ضرورة خلق وعي وطني بضرورة استهلاك ما هو منتج وطنيا حتى ولو كانت اسعارها مرتفعة قليلا .

ان تنمية القطاع الزراعي ستكون اوتوماتيكيا مربوطة بتنمية القطاع الصناعي لان القطاعين مكملان لبعضهما .

سمير حزبـــون :

أود الاشارة لقضية أثارها الزميل اسماعيل ان استراتيجية التنمية في قطاع الصناعة تختلف عنها في الزراعة ولو اخذنا قانون واحد باتجاه الزراعة كقانون ١٠١٥ الذي ينص على عدم جواز زراعة اكثر من ٢٠ شتلة بدون ترخيص فاننا سنجد، عند تحدثنا عن تنمية شاملة للقطاع الزراعي مئات القوانين التي تعيقها بشكل مباشر. وهنا تظهر نقطة اساسية في الاستراتيجية الزراعية وهي مهمة تشجيع الزراعة الفردية لا سيما وان الملكية في الحيازات في اغلبها ملكية صغيرة . وبالتالي يوجد امكانية لتطوير الانتاج الصغير. انني

Digitized by Birzeit University Library

ارى بدايات التطوير تكمن في تحسين اساليب الزراعة،زيادة الارشاد الزراعي لتوفير مردود مقنع للمزارع . لذلك فالحديث عن التعاونيات وغيرها في ظل الاحتلال مسألة معقدة وصعبة . نقطة اخرى يوجد مساحات شاسعة في المناطق المحتلة هي بور. وبالتالي يجب تشجيع المزارعين والملاكين بشتى السبل لاستصلاحها وزراعتها . الخص ان تشجيع الانتاج الفردي والارشاد الزراعي للفلاحين هما اساس في استراتيجية التنمية الريفية الزراعية .

فيما يخص القطاع الصناعي هناك عقبات تختلف نهائيا عنها في الزراعة . هناك امثلة نحن تستطيع منافسة الصناعة الاسرائيلية في مجالات عينية محددة ، صناعة فرشات الاسفنج حيث تسوق ٦٠٪ من منتوجاتها في الاسواق الاسرائيلية و ١٠٪ في الاسواق المحلية و٣٠٪ للخارج.وهذا يندرج على بعض المنتوجات الاخرى كصنع الالكترود في الخليل لقضبان اللحام. صناعة ورق توالیت ، كلينكس ويوجد منها في المناطق المحتلة اكثر من ٢٠ مصنع اغلبها تسوق في اسرائيل ولهذا قبل فترة اصدرت وزارة الصناعة الاسرائيلية قرارا يجبر كل منتج صناعي ان يكتب اسم الشركة ، وعنوانها والمنتوج ونوعه وحجمه . مثال آخر الصناعات السياحية والتي تفتقد للاسف للاهتمام مثال عيني في منطقة بيت لحم المشهورة تاريخيا بصناعة الصدف وخشب الزيتون. حاليا اذا لم يتم الاهتمام بها سوف تندثر من المنطقة.قبل عام ١٩٦٧ كان يوجد ١٥٠٠ عامل في هذا القطاع والان يعمل فيه ما لا يتجاوز عن ٩٠ عامل . وبقي مصنع واحد للانتاج في بيت ساحور . وهذا ليس بسبب المنافسة الاسرائيلية بل بسبب منافسة صناعة تايوان . فالعامل هناك يأخذ ٣ دولارات اجرا يوميا مقابل ١٣ ساعة عمل . بالمقابل من هذا نجد عندنا تضخما وانتفاخا في القطاع الخدماتي بشكل ملموس. وبنظرة بسيطة نجد ان نسبه عالية من القوى العاملة تدخل قطاع الخدمات وبالتحديد الفنادق والمطاعم والمنتزهات ومعدل زيادتها الشهرى من ٢ ــ ٨ محلات جديدة .

خليـــل رشمـــاوى :

أنا اود العودة للحديث عن الفلاحين . لقد تحدث الزملاء عن ارشاد الفلاح للانتاجية والانتاج البديل. ان هذا الحديث نظرى ولكن في الواقع العملي سنواجه مشكلتين اولهما ان الفلاح حتى يعود للعمل في الارض يجب ان يحس بمردود ايجابي لعمله بها . ولا يمكن حل هذه المشكلة الا بدعم الفلاح اما ماديا ، لتخفيض تكاليف الاسمدة والبذار او عن طريق الاسعار يرفعها اكثر من السوق قليلا لتوفير مردود. النقطة الاخرى : فلنتذكر السنوات الاولى للاحتلال عندما بدأ الفلاح بالتحول للعمل في داخل اسرائيل ماذا حدث بابنائه. فمن ولد بعد عام ٦٧ ترك المدرسة ولحق آباه ولذا فاعادته للعمل في الزراعة امر صعب ويتطلب ان يقتنع الفلاح نفسه في ذلك . اورد مثالا في الاتحاد السوفييتي بدأوا هناك بتشجيع الانتاج الفردى بالفعل لان ابناء الفلاحين اخذوا يتململون من انتمائهم الفلاحي بعد تعلمهم. ونحن نواجه نفس المشكلة بجوهرها. وهذا يفسر ما تحدث عنه محرم حول نقص زراعة الحبوب ودواب الحراثة وغيرها من المظاهر . اني ارى ضرورة التفكير في هاتين المشكلتين دعم الفلاح

Digitized by Birzeit University Library

ليشعر بوجود مردود واقناع أبنائه بالعودة للعمل الزراعي على ضوء تواجد المردود .

محـــرم البرغوثـــي :

اتفق مع القول ان الفلاح يرى من منظار مصلحته المباشرة. ولكننا سوف لا نختلف ان الوعي يشكل ايضا عاملا اساسيا في الموضوع . الارتقاء بالوعي لفهم معنى الصمود وعدم الهجرة .

في بعض المناطق تمت العودة للارض لظروف موضوعية وهي تفشي البطالة في اسرائيل . وبدأت الاف الدونمات تستصلح. في منطقة غربي القدس على سبيل المثال بيت سوربك ، وفي الجيب . وتشارك المرأة بجزء اساسي في هذه المسألة. الحقيقة ان هذا الجانب ما زال امامه مجال مفتوح وهذا صعب ولكن ممكن العمل من خلال المنظمات الجماهيرية كلجان الطلبة والمعلمين والجامعات للارتقاء بوعيهم لدعم هذا التوجه نحن مضطرين لهذه العودة لان صمودنا مهدد لا بوجد عمل والبديل سيكون الهجرة ، ولذلك يوجد مصلحة وطنية في توعية هذا الجيل بالعودة الى الاراضي ، انا مع مسألة الدعم لهؤلاء الفلاحين وفي النضال من اجل توجيه كل الاموال التي تدخل الارض المحتلة لهـم .

سميـــر عبداللـــه :

لا شك ان الحديث توجه نحو التنمية الزراعية وهذا له ما يبرره لان الورقة الاساسية التي قدمت تتعلق بالتنمية الزراعية ولكن من المهم عدم فصل استراتيجية التنمية الزراعية عن استراتيجية التنمية الشاملة ، ولا عزل التنمية الزراعية عن الاطار الذى ستنفذ فيه او ادوات هذه التنمية . ويجب النظر ان هذه العملية سوف تتم في اطار السوق التابع والخاضع كما وصفناه سابقا والسوق بمشاكله الحالية كسوق ضيق ومحصور وتتحكم فيه قوى خاصة في التصدير ــ منع تسويق مشاكل، تسويق في الاردن ... هذا جانب والجانب الاخر قوى السوق نفسها التي تتحكم في الانتاج اواى مدخولات انتاج لاى عملية تطويرية. اما ادوات التنمية فواضح تماما اننا لا نملك سلطة او دولة وانما شبابا متطوعين ومتحمسين لا اكثر . الجانب الاخر من الموضوع وكما اشرت في بداية حديثي لهذه الندوة العملية الموضوعية التي تتم في الزراعة وهي تحلل الاقتصاد الطبيعي . هذا شيء طبيعي ويتم وفق قانون موضوعي. يعبر عن نفسه في اتجاه عام. لماذا يتحلل الاقتصاد الطبيعي لانه ببساطة اصبح متخلفا عن المرحلة،لم يعد قادرا على تأمين متطلبات الحياة بالنسبة للانسان. لم يتفكك بالصدفة بل لعوامل موضوعية . هناك اشارة في حديث الزملاء غير واضحة . ما هو مفهوم الاقتصاد الفردى ؟. هل هو الاقتصاد السلعي الصغير ام الاقتصاد الطبيعي وهما مفهومان مختلفان ، يتشابه الاثنان في طبيعة العمل الفردى المبذول ولكن في الاقتصاد السلعي يتم الانتاج لغرض السوق اما الطبيعي فلغرض الاستهلاك الشخصي. من الضرورى التفريق بين هذين المفهومين لنعرف جيدا أين نريد ان نتوجه هل الاقتصاد الطبيعي ؟ وهل حقا هذا النمط من الاقتصاد قادر على تلبية احتياجاتنا . ان العودة للاقتصاد الطبيعي لا تشكل تقدما للامام ومن حيث التنفيذ لا يوجد

Digitized by Birzeit University Library

امكانية اصلا وبعض التجارب التي اشير لها هي تجارب مؤقتة. ستندثر تحت فعل عملية التطور نفسها لان عملية التطور المعاصرة لا تسمح بالاستهلاك الشخصي فحسب ، من الضروري وجود فائض انتاج من اجل المبادلة في تصوري هذه نظرة طوباوية وغير واقعية ولن تنجح . لا يوجد لها مقومات الحياة في المدينة والريف تتطلب من الانسان مثلا تمديد كهرباء ،مياه، أجور مواصلات،تعليم. ... ولهذه المتطلبات هو بحاجة الى نقود وسيولة للدفع ولذا فانسان الاقتصاد الطبيعي ممكن ان ينتج ويستهلك من انتاجه بعض الاحتياجات ولكن ليس كلها. ان الاقتصاد الطبيعي كان ممكنا سابقا قبل ان يفرض السوق نفسه على كل العملية الانتاجية وقبل ان تتنوع متطلبات الحياة المعاصرة. ان التركيز على العودة لنمط الاقتصاد الطبيعي ارى فيها مع الاحترام – نظرة رجعية اذ ستهدف الى انشاء انسان منعزل في استثماره خاصة طبيعية فردي في تفكيرغير قابل لتقبل اى نظرة تقدمية مما سيزيد في غرس الفردية في المجتمع. اني اؤمن ان هذا لا يمكن ان يطبق لان الاقتصاد الطبيعي مرحلة انتهت في كل البلدان النامية تقريبـــا .

نأتي للمفهوم الثاني وهو الانتاج السلعي الصغير . اني اعتقد ان العودة لهذا الانتاج امر مقبول اذ انه استثمارة صغيرة تعتمد على العمل الفردي ولكنها مرتبطة بالسوق. وهنا اود الاشارة الى ما تحدث به الزميل اسماعيل على ان تكاليف الانتاج قليلة، في الحقيقة لا يمكن ان تكون تكاليف الانتاج في الاستثمارة الصغيرة الفردية اقل منها في الاستثمارة الكبيرة ولكن ممكن ان تتقلص التكاليف في حالة الاستثمارة الاولى اذ لا يوجد بدل قوة عمل مستأجرة فهي تعتمد على العمل الـ الفردي. ان الافضلية عادة للاستثمارة الكبيره

وعلى الرغم من ذلك فالاستثمارة الصغيرة هي الشكل السائد في الزراعة وتأتي المهمة كيف سنتعامل معها نعززها وندعمها . بهذا نكون قد وجدنا العنوان الصحيح كما اشار الزميل بسام وهي تقوم على اكتاف صغار الفلاحين الفقراء. الوضع اصبح محددا استثمارة موجودة قائمة،وفلاحون فقراء يمتلكون مقومات الثبات والصمود متأقلمين مع الواقع الموضوعي الذى يفرضه السوق كل ما هنالك هم بحاجة لتوجيه في زراعة المحاصيل كميتها وتنوعها ، ومن الممكن ادخال عناصر جديدة. ترفع الانتاجية وزيادة المنتوج . وحتى نستطيع تثبيت الايدى العاملة في الزراعة من الضروري ان ترى ان مردود العمل في الزراعة يشبه المردود في القطاعات الاقتصادية الاخرى وسوف لا يفرق على الامر بشيء ان كان احيانا اقل منه فهناك عامل الارتباط بالقرية سيتجاوز هذا الفرق .

برأيي اكون قد وصلت بحديثي الى العنوان المهم وبقى ما هي الاساليب وهذا ما سأتركه للاخصائيين في هذا المجال. برأيي ان الاغاثة الزراعية يمكن لها ان تلعب دورا بارزا وستكون بحاجة ماسة لمزيد من تلمس مشاكل القطاع الزراعي الفنية والعلمية والاقتصادية .

سميـــر البرغوثـــي :

بالبداية اود التأكيد على ما قاله الزميل سمير حول الاقتصاد الطبيعي والسلعي الصغير. بالطبـع نحن سنركز على الاقتصاد السلعي الصغير المرتبط بجمهور واسع من فقراء

Digitized by Birzeit University Library

الفلاحين. عند النظر لهذا القطاع من الضرورى رؤيته ضمن السوق الرأسمالي وتأثره بقوانين الانتاج الرأسمالي وفي هذا الاطار فان اى حديث عن تعزيز وتدعيم الانتاج الفلاحي الصغير بدون الأخذ بعين الاعتبار القوانين الموضوعية التي تتحكم بسير الاقتصاد الرأسمالي وخاصة قانون القيمة سوف لا تصل الى نتيجة مرجوة. فكل الشعارات المتداولة " كزيادة الوعي"و" الترشيد"و "التوجيه" تفقداهميتها وتتحول الى رومانسية وطنية وليس حل واقعي للمسألة. وفيهذا السياق من المهم ان ننطلق بالتفكير من كيفية جعل الانتاج السلعي الفلاحي الصغير ذا مردود اقتصادى. هذا هو الاساس الوحيد الذى سيعمل على عودة الفلاحين الى اراضيهم. اذا من الممكن اختزال المسألة الى مشكلة اقتصادية . فمن حيث الاسعار نلاحظ ان من يفرض مستوى اسعار المنتوجات الزراعية في السوق بالاساس الانتاج الزراعي الاسرائيلي الكبير وكبار تجار الجملة في الاراضي المحتلة وليس الفلاح الصغير وبالتالي لا مجال عن طريق الاسعار لتوفير مردود اقتصادى لصاحب الاستمارة الفلاحية الصغيرة. اذا يتوجب النظر الى الجانب الاخر من العملية الانتاجية وهو تكاليف الانتاج. ولذا يجب ان نركز في البحث عن كيفية تخفيض تكاليف انتاج او تكلفة عوامل الانتاج للاستثمارة الصغيرة لكي يكون عمل الفلاح ذو مردود اقتصادى. وفي هذا المجال اورد بعض الامثلة ففي دراسة لداود اسطانبولي مقدمة في مؤتمر التنمية عام ١٩٨١ انه في منطقة الاغوار فان ٣٠٪ من قيمة الانتاج الزراعي يدفعها المنتج الصغير مقابل خدمات تسويقية ضمن عبوات غير مستردة القيمة. الارباح التي يجنيها منتجو اشتال الخضار والفواكه اى الرأسماليين الزراعيين تتعدى ثلاثة اضعاف التكلفة الحقيقية، هاتين نقطتين هامتين يضاف اليهما اسعار الاسمدة ،الالات المستخدمة مواد كيماوية من هنا ارى ان الاغاثة الزراعية يمكن ان تلعب دورا في تخفيض تكلفة الانتاج للاستثمارة الصغيرة. واتصور حسب رأيي وهذا قابل للنقاش طبعا ان الجمعيات التعاونية رغم صعوبة انشاءها وتعقدها لانها ترتبط بجوانب قانونية ودستورية ووجود هيئات مشرفة عليها بالاضافة للامكانيات تشكل المدخل الوحيد لتخفيض تكلفة عوامل الانتاج – طبعا الجمعيات التعاونية بشقيها التسويقية والانتاجية.انه من الضرورى توجيه العمل على دفع الفلاحين للانخراط في جمعيات تعاونية قدتكون بطاقات وامكانيات صغيرة جدا في البداية وتكثيف الدعاية والتحريض السياسي لكي تتوجه معظم اموال دعم القطاع الزراعي الى الانتاج السلعي الفلاحي الصغير. ومن الضرورى الانتباه على ضرورة المحافظة على طابع التعاونيات الفلاحي الصغير خوفا من هيمنة كبار الملاك والرأسماليين الزراعيين عليها وتجييرها في خدمتهم. ان التعاونيات اداة مهمة من ادوات تعزيز ودعم القطاع السلعي الفلاحي الصغير. ان الوضع يختلف في قطاع الصناعة والخدمات اذ موضوع التعاونيات في هذه القطاعات صعب ومعقد ولا ارى فيه مردود عملي واضح على الاقتصاد الوطني. وعليه يجب ان تتركز استراتيجية التنمية في التنمية الريفية الزراعية حيث ٤٦٪ من سكان الضفة الغربية يعتمدون على القطاع الزراعي و ٣٧٪ من الناتج القومي الاجمالي هو في هذا القطاع . مع الاخذ بعين الاعتبار القطاعات الاخرى.انه من الضرورى التركيز في

Digitized by Birzeit University Library

استراتيجية التنمية الزراعية على البعد الطبقي اى القطاع السلعي الفلاحي الصغير ولهذا ايضا بعد سياسي حيث يحتوى على نسبة كبيرة من العاملين المطلوب ابقاؤهم في الارض بالاضافة الى كل ذلك فان هذا ينسجم مع ما حددناه لمفهوم التنمية في الارض المحتلة وهو تقليل ارتباط الاقتصاد الوطني بالاقتصاد الاسرائيلي. واعتقد ان الريف يشكل اكثر نقاط الارتباط الاقتصادى باسرائيل حيث اصبح مصدراً للايدى العاملة الرخيصة في الاقتصاد الاسرائيلي.

عصام عاروري :

انا اتفق مع الزميلين في معالجتهم في عدم العودة للانتاج الطبيعي. وأود ان اشير الى نقطةهامة وهي موضوعة العمل في اسرائيل وتطرح احيانا وكأنها ذاتية بذهب العامل لاسرائيل بقناعته وضد مصلحته ويرجع للارض بنفس الاسلوب. هذه نظرة خاطئة. واستشهد بتصريحات لغورون منسق شؤون الارض المحتلة وردت في الطبيعة وهي ان امام تزايد البطالة في اسرائيل على العمال اليهود ان يحلوا محل العمال العرب لان لهؤلاء اراضي يمكنهم الرجوع لها اما الاسرائيلي فلا بديل لديه. وهذا خطأ فالانتاج الزراعي في كثير من المناطق ولاسباب المصادرة اصبح غير منتج فزراعة الحبوب في الجبل مثلا لا يوفر مردودها ثمن بذارها ولذلك ترك الارض ليس مسألة ذاتية وانما موضوعية ولا يمكن ان نعالجها من مدخل ذاتي. من الضرورى تطوير بعض الاشكال القائمة وتلمس المشاكل العينية التي يواجهها المزارعون وبهذا الصدد تحضرنا تجربتان للاغاثة الزراعية تجربة وادى فوكين وتجربة بيت سوريك تم التعامل في قضايا عينية ملموسة وانتجت ثمارها. ففي وادى فوكين تم استخدام وسائل جديدة في الزراعة، استخدام المياه بشكل جيد، تقليل العمل المبذول مع نتائج احسن وهذا بفضل التعبئة الجماهيرية التي قادتها الاغاثة الزراعية بدون حاجة لامكانية ضخمة ففي بيت سوريك وقرى شمال غرب القدس. تم التعامل بقضية علمية تتعلق بتصدير الخوخ والبرقوق.

ان هذه التجارب الناجحة رغم اهميتها غير بارزة في المناطق المحتلة. ان هذا الاسلوب القائم على التعبئة الجماهيرية واشراك المعنيين انفسهم والتعامل مع القضايا العينية دون تعميم استنتاجات مسبقة يتطلب توفير عدد من الشروط يجب اخذها بعين الاعتبار.

أولا لو اخذنا تجربة الاغاثة الزراعية لوجدناها محدودة ومبتدئة وعليه فمن الضرورى عدم الوقوع في اخطاء وقعت فيها اطر جماهيرية اخرى والتي انجرت وراء الشعار السياسي على حساب القضايا اليومية الملموسة. كما حدث في العمل التطوعي بعد ان وصل الذورة بدأ يتراجع للانشقاقات المتتالية القائمة على اسس سياسية.

وثانيا التعامل مع القضايا العينية ضمن توجه وطموح عام واعتبارها تراكمات تمهد لخلق اطار عام وهيئات عامة تنظر الى مسألة التنمية بشكل اوسع وبهذا يتم تنظيم التجارب الفردية المتفرقة بصورة افضل وبالتالي خلق اسس لتعاونيات ذات طابع جماعي. تؤدى الى خلق تكامل في مختلف القطاعات. وهنا اشير الى اهمية الصناعة ايضا في هذه العملية اذ يجب التوجه ومحاولات التحكم بنشاطات

Digitized by Birzeit University Library

صناعية تخدم القطاع الزراعي وتكمله ويوجد تجارب في هذا المجال كمصنع الجنيدي للالبان على سبيل المثال حيث باعتماده على القطاع الزراعي بدأ بشكل منافسا جديا لشركة تنوفا الاسرائيلية وهذا الامر يجب ان ينطبق على صناعات مشابهة تتعلق بالحمضيات والبندورة ... الخ

ان هذه الصناعات تؤدي الى تقليل ازمات ممكن ان يواجهها القطاع الزراعي وتوفر احتياجات اسهلاكية بنفس الوقت دون الارتباط بالسوق الاسرائيلي .

محرم البرغوثي :

في الحقيقة ما اردت قوله هو ان تحول الفلاحين من موقع عمل الى آخر هو نتاج لتأثير الاحتلال. لقد رأينا في اعوام ٦٧ - ٦٨ ولأول مرة في المناطق المحتلة تم استيراد الاف اطنان الزيت الاسباني والايطالي مما ادى لكساد زيت الزيتون والذي يشكل عماد الاقتصاد الزراعي في الاراضي المحتلة. ان تحول الفلاح للعمل داخل اسرائيل لم يكن لرغبة ذاتية. كان نتيجة خلق ظروف قسرية لتحوله. بخصوص التعاونيات التي طرحها سمير والتي تختلف في الزراعة عنها في الصناعة. واقترح ان تكون ندوة خاصة لبحث التعاونيات في الصناعة وممكن ان نقف عند تجربة تعاونية متين في منطقة رام الله والذي اعتقد حسب رأيي انها تشويه للمفهوم النموذجي للعمل التعاوني في الصناعة. اما في مجال التعاونيات الصغيرة في الاراضي ففي احد الابحاث التي قدمت للندوة الفكرية حول التنمية في بيرزيت احتوت على نماذج لاربع تجارب قامت بها لجان العمل التطوعي وهذه التجارب جديدة وناشئة وممكن الاستشفاف من هذه التجارب ان موضوع الملكية احدى المشاكل التي تواجه العمل التعاوني حيث الملكية مفتتة ومتفاوتة واقترح ان يجرى التركيز على كيفية ايجاد حلول لتعاونيات ضمن اطار هذا النمط من الملكية .

سمير عبدالله :

أود الاشارة الى نقطة أرى ضرورة تسليط الضوء عليها في مجال دعم القطاع السلعي الصغير، وهي قضية التسويق اذا تركز نشاط الاغاثة الزراعية وكل الهيئات التطوعية على مجال الانتاج ومد خلات الانتاج وتحسينها من الممكن في هذه الحالة ان يأتي الدمار من السوق وهذه النقطة الذى اشار لها سمير فيما يتعلق بالتكاليف المقدرة بـ ٣٠ ٪ من نسبة الانتاج الزراعي نذهب مقابل خدمات تسويقية واعتقد ان هذه النسبة تتزايد ونحن نرى نشاط السماسرة والوسطاء وتجار الجملة في استغلال صغار الفلاحين يتفاقم وهذا يمكن ان نتلمسه ففي الوقت الذى بالكاد يستطيع الفلاح سد تكاليف الانتاج نجد في سوق الخضار اسعار المنتوج الزراعي مرتفعة. اين تذهب هذه الفروق. وانا متأكد لو ان ٨٠ ٪ من اسعار المنتوج الزراعي تذهب للمنتجين الحقيقيين لكان وضعهم احسن بكثير . ولذا من الضرورى التفكير بحل مسألة التسويق، ايصال الانتاج الى المستهلك دون وساطة الوسطاء والاسواق التقليدية انها مشكلة جوهرية .

اسماعيل ادعيس :

اود التعليق على بعض النقاط التي وردت

Digitized by Birzeit University Library

بخصوص التعاونيات الزراعية ، انه من الواجب دعم كافة المناطق والمجالات وفق الظروف الخاصة والملموسة. مثلا بعض المناطق تحتاج الى انتاج بيتي لتوفر الامكانيات فمثلا لو ان ٣٠ ٪ يمكن ان يعيشوا على الانتاج البيتي من الضروري دعمهم .اذا حسبنا مثلا ان الانتاج السلعي يعتمد ٥٠٪ من السكان فليكن وبهذا الاسلوب نعمل على تقليل الفجوات في النقص ان قرى رام الله مثلا التي كانت تورد منتجاتها لرام الله حاليا تستوردها من رام الله. وبالتالي ممكن حل المسألة عن طريق الانتاج البيتي وهذا لا يتطلب جهد . فالعامل ممكن ان يستمر في مصنعه وان تقوم عائلته بانتاج المزروعات البيتيـــة .

ايجاد التعاونيات الزراعية ممكن ان ينجح في مناطق محددة تتوفر فيها عناصر الانتاج الرئيسية ، توفر المياه، الارض ، الامكانيات. ولكن هناك مناطق اخرى لا يمكن ايجادها. وبالتالي لا يمكن تعميم ذلك اذ يمكن ان تنجح في الشمال والغور وغزة ولاتنجح في المناطق الجبلية. كذلك من المهم جدا في هذه العملية مساهمة الجميع والمقصود ان لا تقتصر التنمية على المختصين في هذا المجال فالنقابات العمالية والمنظمات النسائية يمكن ان تساهم في العملية التنموية. ان الجمعيات التعاونية القائمة تعاني من قيود من قبل الاحتلال. بالاضافة الى ذلك انها تعاني من فجوة بينها وبين الفلاح وعدم الثقة نتيجة الممارسات التي تراكمت عبر السنوات. واذا اردنا نحن انشاء جمعيات جديدة سنضع انفسنا في موضع عدم الثقة مع المزارع. فتجديد الثقة عند المزارع بالعمل التعاوني تحتاج الى وقت وامكانيات. عدا عن ذلك فان هذه الجمعيات ستبقى مقيدة بنفس القيود الاردنية والاسرائيلية التي تحدم محاولة منع البرجوازية من الوص

عملية صعبة جدا. كذلك يجب ا مهمة اغفلناه وهي اننا نغلب احيانا في مو التنمية العامل الطبقي على العوامل الاخرى.

كمسألة التعامل مع المزارع الصغير ام المزارع الكبير ؟ فحين يتعرض احدهم لتهديد بالمصادرة فاننا نقف الى جانبه ، مهما كان وضعه ،حيث اننا من منظور وطني علينا المحافظة بقدر ما نستطيع على الارض، رغم انه هو شخصيا قد لا يتأثر كثيرا لذلك . قضية اخرى هامة وهي ضرورة استغلال البطالة في الوقت الراهن لتعميق ارتباط الارض بالانسان. عن طريق رفع الانتاجية ، تطوير الانتاج.. وارشاد الفلاح لاستخدام طرق حديثة لكي يشعر ان عمله في الزراعة ذا مردود ، وهذا الوضع حاصل في منطقة الغور اذ رغم بعض الضربات الاقتصادية ما زالوا متمسكين بالانتاج الزراعي وهذا يعكس مدى ارتباط الانسان بالارض .

بسام الصالحي :

في الحقيقة وقبل ان نلخص الموضوع ، اود اضافة نقطتين :

اولاهما مرتبطة بالنظر للطبيعة التي تميز عقلية الفلاح ، بما يحكمها من تردد وتذبذب ، وخوف شديد من المغامرة ، مما يلزمنا بالنظر الى ما نراه من توجهات للتنمية الريفية، كعملية طويلة المدى ، ويدخل في صلبها عنصر المثابرة الثورى، وعدم تبسيط هذه العملية في حدود رسم الخطط فقط ، خاصة وان مظاهر التمايز الطبقي، والتخلف في طبيعة العلاقات

Digitized by Birzeit University Library

السائدة في الريف ، والذهنية العشائرية، لا زالت تتواجد بقوة في مجتمعنا الزراعي.

وثانيهما، ضرورة تركيز الاولويات في توجهاتنا للتنمية الريفية، بما يتناسب مع دراسة تفصيلية، لواقع القطاع الزراعي والمشاكل التي تجابهه ، وارغب في التركيز هنا ، على مسألة الملكية في الريف ، كعنصر هام جدا لدى اعتماد استراتيجية محددة في ذلك. لقد اشارت بعض الدراسات الى ان حوالي ٣٨٪ من الارض الخاصة، ترجع ملكيتها الى ٤٩٠ شخص، بينما ان الغالبية العظمى لا تملك سوى ٢٨ ٪ من الاراضي، وهذه التي تشكل الجمهور الاساسي والاوسع الذي ينبغي التوجه اليه حتى في احسن الاحوال من تنظيم هذا الجمهور واقناعه بالتعاونيات والانتاج السلعي البسيط، فهل يمكن ان يقودنا ذلك الى تحقيق الهدفين الاساسيين اللذين اشير اليهما هنا (١) ١) تأمين المقدرات الاقتصادية الضرورية للمزارع في ارضه و٢) تأمين وقف مجابهة لتغلغل الاسرائيلي في الزراعة المحلية؟.

انني اعتقد ان من الواجب اجراء دراسة اكر تفصيلية لعدد من القضايا اذا ما اردنا ان تكون توجهاتنا اكثر علمية، (مع ملاحظة ان ذلك لا يفترض وقف اى نشاط راهن و تقييمه بشكل دائم وتحسينه وصولا الى تحديد دقيق للتوجهات). ومنها كيفية التعامل مع مسألة الملكية في الريف ، بما يرافقها من تعقيدات ليست اجتماعية فقط، وانما علمية بحتة ايضا، مثل توزع هذه الاراضي، خصوبتها ، نوع الانتاج فيها وما طرأ عليه من تغييرات ..الخ

كذلك دراسة جدوى قصر التنمية الريفية على توجه واحد كاستراتيجية، خاصة في ظل التشابك الاجتماعي المعقد في الريف وطبيعة حيازة الارض.

انني اعتقد ان التنمية الريفية تحديدا، تستلزم تنوعا في الاساليب والتوجهات بما يراعي خصوصية نظام الملكية، بما لا يستثنى مثلا التطوير التقني في الزراعة، وايجاد مدخل ملائم للعمل مع المالكين المتوسطين ،وجزءا من كبار المالكين، وفي نفس الوقت المحافظة على الا تتحول الجمعيات التعاونية الجديدة الى نموذج مشابه للجمعيات القائمة

ان تركيزنا على ان المدخل الاساسي هو التعاونيات هام جاد ، وضروري ، كما هو ضروري البحث في الاشكال الملائمة لهذه التعاونيات انسجاما مع واقعنا المحلي ـ الامر الذى ـ يحتاج الى وقفة مفصلة للنموذج الذى نتصوره ، وهذا مالم نتمكن منه في هذه الندوة نظرا لضيق الوقت .

اننا نعتقد ان الشيء الاساسي ، الذى ابرزته ندوة اليوم ، هو تركيزها على المحتوى الاجتماعي الطبقي لعملية التنمية ، الى جانب محتواها الوطني ، وان اية تنمية ، اذا ما اريد لها ان تخدم فعلا الصمود الوطني وتؤدى الى تطويره نحو مستوى اعلى ، لا يمكن ان تنفصل عن مصالح اكثر الفئات الاجتماعية تضررا من الواقع القائم والمستعدة للتضحية من اجل تغييره ، وكما انه لا يمكن معاملة اى تطوير او تحسين على انه تنمية ، بمعزل عن تحديد طبيعة القوى المستفيدة منه ومردوده الوطني الكفاحي .

فان ايجاد نموذج محدد "للتنمية" في المناطق المحتلة امر ممكن شريطة مراعاة الخصائص الاستثنائية للمناطق المحتلة التزام المعيار المشار اليه اعلاه لهذه العملية. ان تحديدا اكثر لهذه الاستراتيجية تستلزم دراسة

Digitized by Birzeit University Library

اكثر تفصيلية للبنية القائمة في الريف والصعوبات التي يعانيها او التي يسببها الاحتلال.

وهذا من الممكن ان يشكل مادة الندوة اللاحقة في "الكاتب".

---

* المشاركون في الندوة :

- سمير عبدالله: دكتور في الاقتصاد السياسي، خريج جامعة براغ، تشيكوسلوفاكيا، ومدرس الاقتصاد في جامعة النجاح الوطنية- نابلس
- سمير حزبون :دكتور في الاقتصاد، خريج جامعة براغ ،تشيكوسلوفاكيا ،ومدرس في دائرة الاقتصاد بجامعة بيرزيت .
- خليل رشماوي : دكتور في العلوم البيولوجية، من خريجي الاتحاد السوفياتي، ومدرس في دائرة العلوم الحياتية في جامعة بيرزيت.
- اسماعيل ادعيق: ماجستير في الهندسة الزراعية، من خريجي جامعات الاتحاد السوفياتي، واحدمسؤولي اتحاد لجان الاغاثة الزراعية في الضفة الغربية، وقطاع غزة .
- سمير البرغوثي : ماجستير في الاقتصاد السياسي ، خريج جامعة براغ ،تشيكوسلوفاكيا .
- عصام العاروري : خريج دائرة علم الاجتماع في جامعة بيرزيت، محرر في صحيفة الطليعة المقدسية .
- محرم البرغوثي : رئيس اللجنة العليا للعمل التطوعي في الضفة الغربية وقطاع غزة .
- بسام الصالحي : خريج دائرة علم الاجتماع في جامعة بيرزيت، عضو هيئة تحرير الكاتب .

Digitized by Birzeit University Library

تصريح نعيم الأشهب، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفلسطيني:

«بيان الاخوة في فتح، الموعود، يقرر جدية المباحثات لاستعادة الوحدة الوطنية الفلسطينية»

نشرت الزميلة ـ الاتحاد ـ تصريحا لنعيم الاشهب عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفلسطيني ، وممثل الحزب في مجلة " قضايا السلم والاشتراكية الصادرة في العاصمة التشيكوسلوفاكية براغ هذا نصه ":

في ضوء ما جرى نشره ، مؤخرا ، في بعض الصحف العربية ، الصادرة في الاراضي الفلسطينية المحتلة ، من انباء حول " اجتماع براغ بين ممثلي كل من حركة " فتح" والحزب الشيوعي الفلسطيني و" الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين" والتي خلقت الانطباع بأن تقدما ما قد تحقق في المساعي لاستعادة الوحدة الوطنية الفلسطينية فانني ارى من واجبي الوطني ان اشير الى ان هذه الانباء تعكس تفاؤلا مبكر وقبل اوانه ، مما قد يضعف يقظة الجماهير الفلسطينية وبخاصة في الاراضي المحتلة ويحد من مساهمتها في الضغط من اجل انجاز هذا الهدف النبيل والمصيري على الاسس السليمة .

وللحقيقة فانه لم يتم في اطار هذا اللقاء اي تقدم يذكر بشأن امكانية استعادة الوحدة الوطنية. واننا من جانبنا ،ممثلي الحزب الشيوعي الفلسطيني ، قد اكدنا على ضرورة الغاء اتفاق عمان لفتح الطريق امام الحوار الجاد لاستعادة الوحدة الوطنية الفلسطينية على اساس العودة الى قرارات الاجماع الوطني وخاصة قرارات الدورة السادسة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني . وان هذا اللقاء ، شأن غيره من اللقاءات التي تجرى بين حين وآخر ، قد اقتصر على تبادل وجهات النظر وتحيّن اية امكانية للوقوف في وجه الهجوم المغرض الذي يشنه النظام الاردني المتآمر على حقوق شعبنا وقبل كل شيء حقه في تقرير مصيره واقامة دولته الوطنية المستقلة .

ولقد اكد الاخوة ممثلو" فتح"، من جانبهم ، بأنهم بصدد اصدار بيان يحدد

Digitized by Birzeit University Library

موقفهم من " اتفاق عمان" والمعركة التي فتحها الملك حسين ضد منظمة التحرير وقيادتها وضد حقوق الشعب الفلسطيني .

وفي ضوء هذا البيان وما سيتضمنه ستتحدد امكانيات اية محادثات جدية لاستعادة الوحدة الوطنية مؤكدين اننا ، الشيوعيين الفلسطينيين ، كنا ولا نزال في مقدمة الداعين والعاملين من اجل استعادة الوحدة الوطنية على الاسس السالفةالذكر، اسس العداء للامبريالية والاحتلال الاسرائيلي. وان الامر يتوقف الان الى حد كبير على الموقف الذى ستتخذه قيادة " فتح" وخاصة بعد ان اوصل اتفاق عمان قيادة م.ت.ف. الى الطريق المسدود .

والجدير بالذكر ان بعض الصحف المحلية ، كانت ابرزت في صدر صفحاتها الاولى ، وعلى مدار ايام متتالية ، نبأ اجتماع ممثلي فتح والجبهة الديموقراطية والحزب الشيوعي الفلسطيني في براغ ، مشيرة الى تقدم في المحادثات وتبنيها لعدد من الاجراءات المشتركة ، كما ان بعض هذه الصحف نسبت هذه الانباء الى المتحدث الرسمي باسم منظمة التحرير الفلسطينية في تونس احمد عبد الرحمن .

ورغم التأكيد على ان شيئا من ذلك لم يحدث الا ان تأكيد نعيم الاشهب الذى نشرته الاتحاد في عددها الصادر يوم الجمعة ١٩٨٦/٢/٢٨، جاء ليزيد الامر وضوحا ، وليؤكد ان الحوار ممكن ، والاتفاق على خطوات لاعادة اللحمة لمنظمة التحرير بالامكان تحقيقه ، اذا توفرت النية الصادقة والتوجه الجاد نحو ذلك ، واول بادرة حسن نية ، تتوقف على اعلان فتح والقيادة الرسمية موقفها الواضح من اتفاق عمان ، ووقف الانحدار نحوالانظمة المرتبطة بالادارة الامريكية ومشاريعها الاستسلامية ، فيما عدا ذلك ، تظل التحركات التي أُعلن عنها تمنيّات وتفاؤل سابق لاوانه اذ ان رفض النهج الذى ادى الى انشقاق منظمة التحرير، سوف يظل يشكل "المدماك" الاول في بناء وحدة منظمة التحرير على اسس كفاحية ووطنية .

Digitized by Birzeit University Library

اليمن الديموقراطي.
دفاعاً عن الحقيقة ..
دفاعاً عن الثورة ..

بقلم : د . سمير عبدالله

اصيبت القوى الثورية العربية في مطلع هذا العام بجرح بليغ اثر الاحداث المؤسفة التي تفجرت في جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية، تلك الاحداث التي اودت بحياة الالاف من الضحايا والمئات من الكوادر القيادية في البلد الشقيق.

والسؤال الرئيسي الذي يتوقف عنده كل ثوري هو : هل كانت هذه الاحداث المؤسفة جزءا حتميا من الام المخاض في طريق التحرر السياسي والاجتماعي ؟ ام انها كانت بسبب صراع غير مبرر على المناصب ؟.

ونحن لا ندعي اننا في هذه العجالة سنعطي جوابا على هذا السؤال فغموض الاحداث الاخيرة والالم الذي خلفته تجعل من الصعب على الانسان استخدام الالوان الزاهية لزركشة لوحة احداث اختلطت فيها دماء بشرية باتربة الشوارع والازقة. او الالوان القاتمة لتسويد لوحة سفحت فيها دماء الاخوة.

ان ابرز ما تعرض للتشويه من مختلف وسائل الاعلام والصحافة الرجعية والاقلام المأجورة هو تاريخ الثورة اليمنية الديموقراطية الذي صوروه كمسلسل مذابح وتصفيات في حين لم يكن هذا البلد الشقيق مكتشفا من تلك الابواق حين كان شعبه الصغير بقيادة الجبهة القومية يجبر بريطانيا العظمى على الجلاء بدون مساومة وبدون ان يسمح لها تسليم مقاليد السلطة لاعدائها كما جرى في كافة البلدان التي كانت مستعمرة من قبلها. ولم يكن هذا البلد مكتشفا حين وحد اراضيه التي كانت مقسمة الى اكثر من ١٢ امارة وسلطنة وحين حقق الاصلاح الزراعي وحين نفذ خطط التطوير الاقتصادي والاجتماعي وحين وحد قواه السياسية في التنظيم السياسي الموحد وحين انشاء الحزب الاشتراكي اليمني ولم تكتشف وسائل الاعلام هذه النقلة النوعية التي خطتها هذه الجمهورية في بناء قاعدة

Digitized by Birzeit University Library

مادية اقتصادية وتحقيقها انجازات هامة تكاد تكون فريدة بين الدول المتخلفة وتفوق في نسبها كافة الدول العربية في مجال التعليم ومحو الامية وتحقيق التأمين الصحي الشامل لكافة ابناء الشعب اليمني الجنوبي .

اكتشفت وسائل الاعلام والصحافة الرجعية والاقلام المأجورة ان هناك معالم تطور في اليمن بعد ان رأتها مغطاة بسحب الدخان ، وتباكت عليها وهي حتى الامس القريب لم تكن تعترف بوجود اى اثر لها .

من الصعب على الانسان ان يجد نفسه في موقع دفاع عن التطورات الاخيرة في مسيرة الثورة اليمنية تلك الثورة التي امتلكت وجدان الانسان العربي وحظيت باحترام شعبي عارم ولا تزال .ولكن لا ضير في ذلك طالما ان ما حدث فيعدن مؤخرا عسير على الفهم ، حتى من اقرب اصدقائهـا .

محاولـة تأطيـر نظـرى :

قادت الجبهة القومية ، الكفاح التحررى ضد الاستعمار البريطاني ، وكانت عمليا فرع حركة القوميين العرب في الشطر الجنوبي من اليمن .ومن المعروف ان هذه الحركة كانت حركة قومية ذات مركز قيادى واحد . ولكنها خضعت في كافة ارجاء تواجدها في مختلف الاقطار العربية الى عملية تفكك واصطفاف خلال الستينات .

فبسبب اشتداد التمايز في مستوى التطور الاقتصادى ـ الاجتماعي والسياسي بين الاقطار العربية المختلفة ، وما نجم عن ذلك من تمايز في المهمات واشكال التنظيم والكفاح اصبحت القيادة المركزية لحركة القوميين العرب عبئا على هذه الحركة وعائقا لتطورها مما حتم تفكك قيادتها القومية المركزية واطلق العنان للقيادات القطرية للحركة في تحديد مهامها واشكال نضالها وتنظيمها . واستبدل المركز الواحد لقيادة وتوجيه الحركة بعلاقات تنسيق ومساعدة متبادلة وتضامن بين حركات مستقلة .

كما ان اشتداد التمايز الاجتماعي وطبيعة التحولات الاقتصادية الاجتماعية ادت الى ان اصبح برنامج هذه الحركة ومنطلقاتها الايديولوجية متخلفة عن مسار العملية الثورية وكان الجمود فيهذا البرنامج يفقد هذه الحركة مضمونها الثورى المعادى للامبريالية والرجعية ، ويعزلها عن حلفائها وجمهورها ، الذى لم يعد يتقبل طروحاتها للمسألة الاجتماعية في الوقت الذى اخذت فيه هذه المسألة تمثل مركز الصدارة في الطرح ، واصبح مطلوبا من هذه الحركة ان تحدد هويتها الطبقية بوضوح . وقد تجلى هذا في تفكك هذه الحركة وتمايزها على المستوى القطرى ايضا وكان من الطبيعيان يتجه اكثر عناصرها تطورا وتقدما نحو الاشتراكية العلمية .

ولكن عملية التمايز والاصطفاف هذه ، شأنها شأن اى عملية تحول عميقة ، لا يمكن ان تتم الا عبر الصراع والصراع الحاد احيانا . كما ان هذه العملية ما كان لها وما كان يمكن لها ان تكون في تمام النقاء . اذ بقيت بعض الافكار والممارسات القديمةمندفعة بقوة الاستمرارية والعادة في الفكر والتكوين الجديدين . وهي كأى عملية تاريخية لا بد وان تحل معها بعض شوائب الماضي وامراضه مهما بلغ الاخلاص والايمان بالخط الجديد . كما ان هذه الشوائب لا يمكن ان تزول بدون كفاح مثابر ودؤوب لا يمكن تحقيقه بقفزات .

Digitized by Birzeit University Library

ان ما جرى في حركة القوميين العرب بوجه عام ينطبق على الجبهة القومية في اليمن الديموقراطي. ولكن هناك خصائص هامة لهذه العملية يمكن تلخيصها في نقطتين :

الاولى : ان عملية التمايز والاصطفاف في الجبهة القومية نمت وتعمقت في الوقت الذى كانت هذه الجبهة تتولى زمام السلطة السياسية ،الامرالذى اعطى هذه العملية ابعادا جديدة .

الثانية :ان عملية التمايز والاصطفاف تعمقت بشكل كبير نحو ايديولوجية الطبقة العاملة ونظريتها، وتوجت باقامة الحزب الاشتراكي اليمنـــي .

تركت هذه الخصوصية بصمات هامة على عملية التمايز والاصطفاف في اداة الثورة التي تدرجت من الجبهة القومية الى التنظيم السياسي الموحد للجبهة القومية الى الحزب الاشتراكي اليمني. فهذه الخصوصية كانـت تعترض ثلاث مسائل رئيسية :

اولا : ان عملية التمايز والاصطفاف امتزجت بحل مهام التحولات الاقتصاديـة والاجتماعية.

ثانيا : ان هذه العملية كان لا بد لها ان تمس المراكز القيادية والاجهزة والمؤسسات . اذ ان عملية التمايز تجرى بالضبط من خلالها وفيها.

ثالثا: ان عمق التمايز والشوط الواسع الذى قطعه ادى الى احتدام الصراع واشتداد وطأته .

وسنحاول تناول هذه المسائل بمزيد من التفصيـــل :ـ

اولا : ان ارتباط عملية التمايز والاصطفاف في الموقف الايديولوجي بحل مهام التحولات الاقتصادية ـ الاجتماعية يعني امتحان مباشر للمواقف الايديولوجية والممارسة لهذه المواقف بالتجربة الاثية المباشرة في صياغة التحولات وادارتها. الامر الذى قد يبرز سطحية المواقف الايديولوجية او التمسك اللفظي بها او الاخلاص والايمان العميق بها والسعي المسؤول لتحقيقها. اى بعبارة اخرى ان الموقف الطبقي هنا يوضع مباشرة على المحك بالممارسة العملية. بحكم تزامن الموقف النظرى مع التحولات. في حين يمكن ـ وكما يتضح من تجارب الحركات المماثلة ايضا ـ ان بعض العناصر والفئات تتبنى موقفا لفظيا مغايرا لطموحاتها ومعتقداتها الحقيقية من قضايا ومهام مؤجلة ، لاسباب مختلفة .

وهناك جانب آخر من المسألة، وهو ان الايمان العميق بالاشتراكية العلمية لا يكفي وحده لقيادة التحولات في الثورة الوطنية الديموقراطية الى نهايتها المظفرة. فقيادة التحولات وان كانت تشترط هذا الايمان فانها تتطلب المعرفة العلمية باساليب ادارة الاقتصاد وقوانين تطوره واحسان استخدام التخطيط وفق ثقة الجماهير وتحفيزها في عملية التحويل الثورى للمجتمع .

ثانيـــا :

ان نشوء عملية التمايز والاصطفاف في الوقت الذى تتولى فيه الجبهة القومية زمام السلطة السياسية حتم وبحتم .ان تمس هذه العملية المراكز القيادية واجهزة الدولة ومؤسساتها . فالاداة الثورية التي يتعمق فيها التمايز والاصطفاف تتركز عضلا في هذه المراكز والاجهزة والمؤسسات . وبذا فان هذه العملية تتم في هذه المواقع ومن خلالها .بعبارة اخرى تكون المراكز والاجهزة والمؤسسات إلذات والموضوع والاطار للصراع ، ان هذا اضفى اشكالية جديدة نسبيا لم تعط حتى الان

Digitized by Birzeit University Library

حقها في الدراسة والتأطير النظري. وسنحاول هنا ابراز بعض جوانب هذه الاشكالية :

١) ان عملية التمايزوالاصطفاف في مثل هذه الظروف لا بد وان تتجسد في الصراع على طابع السلطة. ومن غير المعقول ان يكون التطور في الحزباو الحركة الحاكمة فياتجاه وتطور طابع السلطة في اتجاه آخر .. وهذا يجعل من الخلاف في وجهات النظر والتوجهات النظرية مسألة في غاية الخطورة قد تهدد طابع السلطة السياسية ، خاصة وان هذا يجرى في مجتمع متخلف تهدده المخاطر الخارجية ولم تتمكن بعد القوى الثورية من تدعيم سلطتها على الشكل المطلوب .

ان الانشقاق والخلاف هنا يواجه بردّة فعل عنيفة بعض الشيء قد تصل الى الصراع المسلح والتصفيات ، لان الامر يتعلق بالسلطة التي تعتبر المسألة المركزية الاولى .

ان الامر بالنسبة لحركة في المعارضة لا يقود الى هذه الدرجة من الحدة وغالبا ما يجرى تجاوز الخلافات النظرية والانحرافات بهدف الحفاظ على الوحدة كاحد عناصر القوة احيانا . وفي اسوأ الاحوال قد يقود هذا الى الانشقاق والطلاق الديموقراطي المصحوب بعاصفة من التشهير السياسي والايديولوجي. وفي بعض الحالات قد يرافقه تصفيات جسدية في الحركات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة. ولكنها تبقى في حدود ضيقة .

٢) ان كون المراكز والمؤسسات والاجهزة الحكومية الذات والموضوع والاطار لعملية التمايزلا بد وان يقود الى زج هذه الاجهزة او بعضها في الصراع في المنعطفات الحادة. كما ان الخلاف في وجهات النظر لدى احتدامها قد تولد انشقاقات في الاجهزة والمؤسسات . ومن الطبيعي ان الاجهزة والمؤسسات في دولة ديموقراطية شعبية لا يمكن ان تكون محايدة ، يضاف الى هذا انه من الصعب في بلد متخلف كاليمن الديموقراطي ، يفتقر الى مختلف انواع الكفاءات تطبيق معايير سياسية صارمة على قيادات ومسؤولي المراكز القيادية في كافة اجهزة الدولة ومؤسساتها ، مما يبرز تفاوتا ما بين التمايز والاصطفاف في الاداة الثورية ـ الحزب ـ وبين مثيله على مستوى الاجهزة والمؤسسات . وهذا بالطبع قد يشكل مصدر خلل يمكن لعناصر ديماغوجية توظيفه لمصالحها الخاصة وضد ارادة اغلبية القيادة الرسميـــة .

٣) ان صراع الافكار والاجتهادات الذى يرافق عملية التمايز الذى ينتقل الى الاجهزة والمؤسسات لا بد وان يبرز في اساليب وطرق ادائها لوظائفها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وقد يؤثر سلبا على قيام هذه المؤسسات بتلك الوظائف ، مما يقود الى خلل في العلاقة مع الجماهير . وهذا له عواقب وخيمة اهمها الانتقاص من هيبة الحزب والسلطة وعزلها عن قواعدها الاساسية .

ثالثـــا :

ان احتدام الصراع الناجم عن عمق التمايز والاصطفاف، كان لا بد وأن يرافقه الام مضاعفة. فتطوير اداة الثورة من الجبهة القومية الفصائلية الى تنظيم ديموقراطي ثوري ثم الى حزب ماركسي ـ لينيني في عضون اقل من عشرين عاما في مجتمع متخلف قليل الموارد ورث قاعدة اقتصادية هشة ومفككة تحيط به انظمة رجعية وتتكالب ضده القوى

Digitized by Birzeit University Library

الامبريالية،ليست مسألة سهلة .

اذ ان هذا كان يتطلب جهودا خارقة في جميع اوجه نشاط المجتمع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. وكان يتطلب ابراز افضلية الاشتراكية العلمية في جميع هذه المجالات من خلال الوقائع المادية واذا كنت لا اؤمن بالمعجزات فاني اقول بملء الثقة ان ما استطاعت قيادة اليمن الشابة ان تحققه شبيه بالمعجزة . وما كان يمكن لها ان تحقق ذلك لولا مثابرتها وايمانها بطاقات شعبها ، ولولا الالتفاف الشعبي والثقة التي حظيت بهما من هذا الشعب .

ولكن هذه التحولات العميقة والسريعة نسبيا كان لا بد وان تلقى مقاومة وتخوف من قبل عناصر قيادية وكوادر في القيادة السياسية ،خاصة وانها كانت تفترض تخلص سريع من شوائب الماضي المحمولة في ذهنيه هؤلاء . كما ان الضغوط الداخلية الناجمة عن العسر الاقتصادي ومشاق تحقيق التنمية بموارد محددة جدا والضغوط الخارجية الناجمة عن حساسية الوضع مع الدول الرجعية المجاورة التي تشكل قواعد للاستعمار الجديد وظلت تلوح بالعصا تارة وبالجزرة تارة اخرى ، كانت تشكل كابوسا هائلا على القيادة السياسية. اذ ان هذه الضغوط كانت تستوجب منها وزن كل خطوة من خطواتها ، وكل قرار من قراراتها . ومن الطبيعي في مثل هذا الوضع ان تعالج العديد من المسائل بالمزيد من الحزم والتشـــدد .

دفاعـا عـــن الحقيقـــة

بعد ان حاولت توضيح الاطار العام لسير التحول في اليمن الديموقراطي ارى نفسي مضطرا للدفاع عن الحقيقة ، للدفاع عن الممارسة الديموقراطية التي حجبت صورتها احداث اليمن الاخيرة المؤسفة ، تلك الممارسة التي صورتها وسائل الاعلام والصحافة الرجعية والاقلام المأجورة انها مسلسل دموي . مزورة بذلك اطهر التجارب الثورية العربية واكثرها نبلا . تلك التجربة تكاد تكون مثالا فريدا في الدول النامية بوجه عام والدول العربية بوجه خـاص :

١) فمنذ بدايتها ، وفي مؤتمرها الاول المنعقد في تعز حزيران ١٩٦٥ اقرت الجبهة ميثاق العمل الوطني الذي اوضح توجهها نحو الاشتراكية العلمية ، وعلى اثر هذا الميثاق نشأ جـدل واسـع وحادفي صفوفها ، الامر الذي كاد يعرقل كفاحها لتحرير بلادها من المستعمرين البريطانيين . ووقفت قيادتها وقفة مسؤولة واوقفت النقاش حول المسائل المختلف عليها من اجل التفرغ للمهمة الرئيسية ، وقد تم ذلك بهدوء ودون الاحتكام للسلاح .

٢) بعد الاستقلال برز في قيادة الجبهة تياران متناقضان ،احدهما كان يرى في اعلان الاستقلال نهاية المطاف ، وسعى لورثة الحاكم البريطاني مع اجراء بعض الاصلاحات الشكلية والاخر كان يعتبر الاستقلال مقدمة اولية للانتقال لاعادة بناء اجهزة الدولة واجراء تحولات عميقة في الاقتصاد لمصلحة الكادحين الذين تحملوا العبء الاكبر في معارك التحرير .

وقد خيض هذا الصراع في مؤتمر الجبهة الرابع الذي عقد في آذار ١٩٦٨ ، وتمكن اليسار من الحصول على تزكية الغالبية الساحقة لبرنامجه . ولكن العناصر اليمينية بقيادة رئيس الجمهورية قحطان الشعبي

Digitized by Birzeit University Library

خرجت على اجماع المؤتمر ودبّرت محاولة انقلابية بعد اسبوعين من المؤتمر في ١٩٦٨/٣/١٩ . واعتقلت معظم اليساريين في قيادة الجبهة. الا ان الشعب اليمني الجنوبي هب للدفاع عن ثورته وعن الشرعية التي جسدها المؤتمر ،وارغم الانقلابيين على التراجع عن كافة اجراءاتهم ، والعودة الى قرارات المؤتمر .

٤) ولكن اصرار الجناح اليميني على اقصاء خصومه، وخروجه على مبادئ جماعية القيادة اضطر قيادة الجبهة على محاسبته مما اضطره للاستقالة المصحوبة بالتحريض على التمرد الامر الذى حتّم ضرورة حركة ٢٢حزيران١٩٦٩ التصحيحية بدون اراقة دماء ودون المس بحياة الرئيس المقال قحطان الشعبي .

٥) فتحت حركة٢٢حزيران١٩٦٩المجال واسعا امام اشراك الجماهير الشعبية وطرحت دستورا للبلاد وتأسيس مجلس الشعب الاعلى الذى مُثّل فيه بشكل اساسي العمال والفلاحون والمثقفون والمناضلون والنساء. وتواكبت الاجراءات الثورية ابتداء بالتأميمات والاصلاح الزراعي وتكوين المؤسسات الجماهيرية وتنفيذ الخطة الثلاثية للتنمية الاقتصادية لاول مرة في تاريخ البلاد .

٦) كان تطوير الاداة الثورية "التنظيم السياسي الموحد للجبهة القومية" الذى اصبحت ممثله فيهاكافة فصائل العمل الوطني التقدمي من حزب ديموقراطي ثورى الى حزب عمالي،احد اهم المسائل الاستراتيجية للثورة، وكان من الطبيعي ان تثير خطوة هامة كهذة جدلا حادا في اوساط الجبهة . فهناك عناصر قيادية لم تكن بعد قادرة على استيعاب اهمية هذه الخطوة او انها لم تكن مستعدة لتحمل تبعاتها على الرغم من تمسك هذه العناصر اللفظي بالاشتراكية العلمية . وكانت هذه العناصر تبرز تخوفاتها من ردة فعل الدول العربية المجاورة .

وبعد فشل تلك العناصر في افشال عملية التحضير لاقامة الحزب الطليعي بطروحات ديماغوجية من مختلف الالوان جربت آخر مافي جعبتها وهو اثارة الحرب مع الشطر الشمالي باغتيال الحمدي رئيس جمهوريتها آنذاك – في حزيران ١٩٧٨ للتغطية على عمليتها الانقلابية التي اجهضت وكان طبيعيا ان عملا كهذا لا يمكن ان يفلت مدبروه بدون عقاب . اذ تم فعلا اعدام مدبرة سالم ربيع علي الذى كان يتولى رئاسة الجمهورية وتمت معاقبة الضالعين معه. دون ان تحدث مجازر وعقد المؤتمر الاول بحماس شديد في اكتوبر من نفس العام .

٧) ما كانت قيادة الحزب الاشتراكي اليمني واهمه ان الامور بعد تأسيس الحزب ستجرى على مايرام ، وكان من الطبيعي ان التعقيدات التي ستطرحها مهام البناء الاقتصادى لا بد وأن تصطدم فيها الاجتهادات ، وهذه مسألة طبيعية حتى في اعرق البلدان ، فكيف يكون

طبيعية حتى في اعرق البلدان ، فكيف يكون الحال في بلد لم يمض على انبعاثه من عالم القرون الوسطى الاسنوات .

كما ان مسائل عديدة فرضت نفسها – وما كان يمكن تجاوزها – حتى في بنية قيادة الحزب وخاصة المناضلين القدماء الذين مع كل احترام لتاريخهم السياسي ، الا ان جزءا منهم رغم صدق اخلاصه لا يستطيع التكيف مع التغيرات الجديدة . فبناء المجتمع والاقتصاد وتطويره على اسس منهاجية علمية يتوجب

Digitized by Birzeit University Library

متطلبات اكثر من الاخلاص والايمان بالثورة .

لقد برز هذا في اكثر من مرة في خلافات حول تشكيل قيادة الحزب ، ولعل ابرز هذه الاحداث برز في ابعاد الرئيس الراحل عبد الفتاح اسماعيل في اذار ١٩٨٠ بسبب مواقفه المبدئية في المسألة التنظيمية — وقد برز في موقف عبد الفتاح درسا هاما وفريدا حين امتثل لرأى الاغلبية في المكتب السياسي (والاقلية في الحزب وقتها) منكرا لذاته من اجل تجنيب الحزب الوليد الانشقاق والصراع.

٨) ان عودة عبد الفتاح اسماعيل من المنفى واعادة الاعتبار له في الحزب عبرت في حد ذاتها عن ممارسة ديموقراطية لم تحدث في اى من البلدان النامية على الاطلاق وليس في الدول العربية وحسب. ففي اى دولة يستقيل رئيسها بهدوء ويغادر البلاد باختياره عندما يشعر ان في ذلك حقن للدماء . ثم يعود اليها ليتولى مهام مسؤولية من جديد تنفيذا لارادة حزبه .

الاحداث الاخيرة :

لعل تتبع وقائع تاريخ الثورة اليمنية الجنوبيةيساعد في توضيح بعض الحقائق التي حاولت وسائل الاعلام الغربية والرجعية العربية تزويرها . ويساعد في استقراء لوحة الاحداث الاخيرة على الرغم من الغموض الذى ما زال يكتنفها .

ركزت وسائل الاعلام على تصوير الاحداث على انها صراع على المراكز القيادية ، بين المعتدلين والمتطرفين في قيادة الحزب والدولة ،ووسمت الصراع بالطابع القبلي. كما حاول بعضها ،بالايماء تارة وبالتصريح تارة اخرى ، تحميل مسؤولية الاحداث للاتحاد السوفييتي على اعتبار انه " اعاد" او " سمح بعودة" عبد الفتاح اسماعيل" الى بلاده. كما حاولت تضخيم عدد القتلى والجرحى وتضخيم حجم الدماء . كما يذهب بها خيالها الى درجة انها تنبأت بعدم رؤية نهاية سريعة للقتال وتنبأت حتى بامتدادها لتشمل كل اليمـــــن .

واذا كانت الوقائع ذاتها قد بينت العديد من الدلائل التي تشير الى عكس ما روجته الدوائر الاعلامية الغربية والرجعية في كافة الوسائل فلا بد من وقفة قصيرة امام بعضها .

ان بلاغات القيادة الجماعية اكدت على ثوابت السياسة اليمنية الخارجية التي اعلنت منذ الحركة التصحيحية في عام ١٩٦٩ والتي تستند الى مبادئ حسن الجوار والتعايش السلمي مع الانظمة المختلفة المجاورة . واعلنت تمسكها بكافة ما اتفق عليه مع حكومة الجمهورية العربية اليمنية. واكدت رغبتها في المضي باتجاه تطوير العلاقات معها ، وفي هذا تأكيد على احترام برنامج الحزب الاشتراكي اليمني الذى يؤكد هذه الثوابت في السياسة اليمنية الديموقراطية تجاه دول المنطقة المجاورة .

كما بينت الوقائع ان القبلية والصراع القبلي ليس له ما يفعله في هذه الاحداث.اذ بالاستناد الى فرضية الطابع القبلي كان من المفروض امتداد الصراع مكانياوزمانيا . ولكن ظل الصراع محصور عمليا في عدن ، التي لا تأثير للقبلية فيها كما انه انتهى بشكل سريع . وظل محصورا بين المؤسسات المسلحة(الجيش

Digitized by Birzeit University Library

المليشيا، الامن)؛

ان ما ينبغي تأكيده هنا هو ان القبيلة كمؤسسة اجتماعية بدأت في التفكك في مرحلة النضال ضد الاستعمار البريطاني. وبدأت بالتحلل كمؤسسة اقتصادية منذ الاستقلال وبداية التحويلات الهامة في علاقات الانتاج وخاصة الاصلاح الزراعي الذي حقق العدالة في توزيع الارض وادخل التنظيم التعاوني في للانتاج وقضى على الاسس الاقتصادية للتبعية القبلية .. ان هذا لا يعني انتهاء الروابط القبلية الروحية، الا انها محررة في اساسها المادي .

وقد وجدت وسائل الاعلام الغربية والرجعية العربية في احداث اليمن فرصة مناسبة لتنظيم حملات الافتراء على الاتحاد السوفييتي الى درجة اتهامه بأنه المدبر "للمحاولة الانقلابية". ان اليمن الديموقراطي يقيم علاقات وثيقة ووطيدة مع الاتحاد السوفييتي، شأنه شأن كافة القوى الثورية في العالم. وهذه العلاقات ترتكز على التكافؤ وعدم التدخل في الشؤون الداخلية . وقد صمدت هذه المبادئ كما في كل مرة للامتحان وقد لعب الاتحاد السوفييتي الدور الاساسي في ابقاء الصراع داخليا وساهم بدور كبير في الوساطة بين اطرافه . وهو الدولة الوحيدة تقريبا التي تساهم بالتخفيف من الالام التي اصابت هذا البلد العربي الشقيق .

اما ما اهملته وسائل الاعلام ان طرفي النزاع رفضوا اى تدخل رجعي في شؤونهم، كما انهم لم يعقدوا المقارنات بين اليمن والاحداث التي جرت وتجرى في العديد من الدول الرجعية التي تستعين وتستنجد بالانظمة الرجعية الاخرى وبالقوى الامبريالية لحماية انظمتها من شعبها. فلعل وسائل الاعلام تلك لم تذكر استعانة نظام النميرى بالسادات لسحق انتفاضة هاشم العطا او استعانة نظام صدام في العراق بالقوات التركية لضرب الثورة الكردية . او استعانة الكتائب بالقوات الاسرائيلية او استعانة الملك حسين بالقوات الاسرائيلية في ايلول ١٩٧٠ ان تاريخ الرجعية عريق في هذا المجال منذ سبعينات القرن الماضي عندما استعان نظام فرنسا بالقوات الالمانية (المعادية آنذاك لسحق ثورة العمال في (كومونة باريس).

اما المبالغة في عدد الضحايا، ودموع التماسيح التي يذرفونها عليهم فهو اسلوب معروف للاساءة للنظام اليمني الديموقراطي. وهي متاجرة رخيصة ومكشوفة على الرغم من ان عدد الضحايا مهما كان اقل مما ذكرته صحفهم يظل مؤلما . ولكن اتمنى على وسائل الاعلام تلك وخاصة المحلية منها ان تتذكر ضحايا ايلول الاسود في الاردن وضحايا حرب صدام القذرة وكل ضحايا الامة العربية الذين اما سقطوا في سبيل الحرية واما زجوا في حرب ليس لهم فيها طائل .

ان احداث اليمن الديموقراطي الاخيرة، غير المفهومة حتى من اقرب اصدقائها لا تبرر هذا النهش الخسيس في تجربتها، ولا التطاول على تاريخها . واذا كنت لا استغرب مواقف الدوائر الامبريالية والرجعية، فانني توقفت كثيرا عند مواقف بعض الصحف المحلية وبعض الاقلام الفلسطينية التي انتهزت فرصة الاحداث المؤلمة لتنفث احقادها على النظام اليمني الديموقراطي . ولتظهر مدى تماثلها وارتباطها بالرجعية العربية .

Digitized by Birzeit University Library

لقد حملت ذكريات المناضل الشيوعي العراقي الارمني اراخاجادور عنوان" من تجارب شخصية في العمل النقابي والعمالي في العراق"• وصدرت في ايار عام ١٩٨٤ في الذكرى اليوبيلية الذهبية لتأسيس الحزب الشيوعي العراقي •

جاءت ذكريات اراخاجادور مذكرة جميع مناضلي حركات التحرر وقواها الطليعية، بالسؤال الذى طرحه الاديب محمود شقير في مقدمته للسيرة الذاتية للمناضل الاردني البارز يعقوب زيادين " البدايات" حيث كتب مستفسرا (٢) :

هل نحن بحاجة الى كتب السيرة الذاتية؟• واجاب محمود شقير في مقدمته قائلا :-

••••تكمن الميزة الخاصة لكتب السيرة الذاتية، التي لم يكتف مؤلفوها برصد تجاربهم على نحو معزول، وانما جعلوا هذه التجارب مدخلا الى صخب الحياة العامة، والى النضالات المريرة التي خاضتها الشعوب العربية على امتداد السنوات الثلاثين الماضية

وقدم للشيوعي العراقي في كتابه عن تجاربه الشخصية المناضل فخرى كريم ومما جاء في مقدمته :-

" •••• في الحزب وجوه كرسها النضال الثورى المتواصل، الذى لا يعرف التوقف والراحة واليأس ومن هذه الوجوه، القائد الشيوعي المعروف الرفيق اراخاجادور •••

لقد قرأت اوراقه العمالية التي اقدمها للقارئ باستمتاع عميق ••• انه يحاول عبر اوراقه الشخصية، ان يستذكر مع جيلنا الثورى الجديد الوقفات المضيئة من تاريخ الحركة النقابية، وطبقتنا العاملة العراقية، ودور الحزب في ارساء الاسس المتينة للتنظيم السرى والجماهيرى، والمفهوم اللينيني للعلاقة بين العمل الحزبي والتنظيم النقابي• وفي هذه الاوراق اكثر من اربعين عاما من حياة عامل شيوعي، اصبح في مراحل مبكرة احد قادة الحركة النقابية العراقية البارزين ، واحد

Digitized by Birzeit University Library

قادة الحزب الشيوعي .

ان قيمة هذه الاوراق، لا تكمن في احداثها التاريخية، بل في ايحاءاتها المستقبلية، فيما تريد ان تحركه في فكر ووجدان الشيوعيين" عند هذه الكلمات تنتهي مقدمة المناضل فخرى كريم، ومعها تبدأ تأملاتنا بالقيمة الحقيقية لهذه الاوراق .

وتقع تجارب ارا خاجادور الشخصية في ثمانية عناوين بارزة، مرفقة باربعة ملاحق عبارة عن مقالات ومقابلات اجرتها مجلة الفكر الجديد مع ارا خاجادور .

ويتحدث في بداية ذكرياته وفي سطور عن نشوء الطبقة العاملة العراقية وميزاتها الخاصة المتجسدة في الظروف الموضوعية لنمو الرأسمالية البطيء في العراق، وفي الدور الطليعي للطبقة العاملة وادراك قيادتها الطليعية لحقيقة امتزاج نضالها الطبقي بالنضال الوطني بحكم تركزها في المؤسسات الاجنبية الاستعمارية والحكومية .

واستعرضت الذكريات لمحات عن نشوء وتطور الحركة النقابية العراقية ، ونضالها المطلبي والسياسي المبكر والدؤوب والذى اجبر السلطات الرسمية في عام ١٩٣٦ على سن اول قانون للعمل في العراق وهو قانون رقم ٧٢ لسنة ١٩٣٦ وكان قد سبقها في عام ١٩٣٤ تأسيس الحزب الشيوعي العراقي، والذى استطاع في غضون فترة قصيرة من بناء حركة نقابية طبقية وثورية .

وادرك الحزب الشيوعي العراقي وقائده العمالي الرفيق فهد" ان تطور البروليتاريا لم يتقدم، ولا يمكن ان يتقدم في اى بقعة من بقاع العالم الا عن طريق النقابات ، عن طريق التفاعل بينها وبين حزب الطبقة العـاملـــة (٣) ".

وقد كتب الرفيق فهد آنذاك قائلا :ـ

" لقد نشطت حركة العمال عندنا في هذه الايام نتيجة النضال النقابي، النضال الذى خاض غماره عمالنا لسنوات خلت " ولم يغب عن بال الرفيق فهد" ان النضال الاقتصادى لا يمكنه ان يؤدى الى تحسين اوضاع جماهير العمال تحسينا ثابتا والى توطيد تنظيمهم الطبقي حقا الا شرط جمعه بصورة صحيحة مع نضال البروليتاريا السياسي (٤) ".

وتحدث اراخاجادور عن ذكريات النضالات الشعبية والهبات الجماهيرية وحطة الرفيق فهد الشهيرة عندما سيق الى الاعدام حيث قال " الشيوعية اقوى من الموت واعلى من اعواد المشانق ".

ثم تحدث مستذكرا مطلع الخمسينات في العراق، بعد اعدام قادة الحزب،فهد وحازم وصارم،وزج مئات من كوادره في سجون الكوت ونقرة السلمان وبغداد، ومع ان هذه الضربة كانت قاسية للحزب الا انه استطاع وبفترة وجيزة من ترتيب اوضاعه وسرعان ما قاد اضرابات عمال النفط والميناء والروكيارد وعمال النسيج في الكاظمية وعمال السجائر عام ١٩٥٠.

وفي الانتخابات النيابية عام ١٩٥٤ ، حصلت الحركة الوطنية بفضل تآزرها،على ١٥ مقعدا في البرلمان رغم الارهاب والتزوير، وسرعان ما عملت السلطة على الغاء البرلمان في اول جلسة من جلساته، وكانت هذه تهيئة لربط العراق في حلف بغداد المشبوه . وخيم ليل الاحلاف العسكرية الاستعمارية على العراق بعد عقد الحلف العراقي الباكستاني وحلف بغداد عام ١٩٥٥ ،ولم يمض وقت

Digitized by Birzeit University Library

طويل حتى هبت جماهير الشعب في معظم مدن العراق، تأييدا لمصرض العدوان الثلاثي اثر تأميم قناة السويس .

وفي اعقاب ثورة تموز المجيدة، تفجرت طاقات الجماهير الشعبية وفي مقدمتها الطبقة العاملة العراقية، ويتحدث اراخاجادور في باب استنتاجات ودروس الى حقيقة ما اثبتته التجارب بأنه لا يمكن بناء حركة نقابية ثورية جماهيرية مالم يلعب الشيوعيون دورالطليعة والمحرك فيها. وانه ينبغي لقيادة النقابات قيادة سليمة ان تأخذ بنظر الاعتبار الظروف الملموسة ومستوى تطور وعي وتنظيم الطبقة العاملة والظروف المحيطة بالنقابات. وينبغي ترسيخ التقاليد الثورية في العمل النقابي وعدم اضعاف دور الشيوعيين فيها بحجة "ابعادها عن السياسة" او " استقلالية" النقابات" . وفي الوقت ذاته ينبغي مراعاة مستوى تطور الوعي السياسي لجمهور اعضاء النقابات وطبيعة المنظمات النقابية وعدم تحويلها الى منظمة سياسية صرفة او فرع للحزب، لان ذلك يؤدي الى عزل طليعتها عن الجمهور الواسع اللاحزبي الذي يشكل القوام الاساسي للنقابات .

وتحدث اراخاجادور عن ردّة شباط ١٩٦٣ وحكم "العارفين" عندماتجمعت الرجعية والعملاء والاقطاع واجنحة مختلفة من القوميين تحت شعار " يا اعداء الشيوعية اتحدوا" حيث جرت تصفية العديد من خيرة مناضلي وكوادر الحزب الشيوعي العراقي .

وبعد تسعة اشهر من هذه الاحداث الدامية جاء انقلاب عبد السلام عارف، ولم يستطع حكمه هو الاخر اخضاع الطبقة العاملة لا بالارهاب ولا " بالاشتراكية الرشيدة" ولا بغيرها من الاساليب المضللة .

وبدت ازمة الحكم ناضجة وادى نشاط الحزب الشيوعي العراقي واشتداد النضالات الجماهيرية، ونشاط القوى الوطنية الاخرى من جهة، ونكسة حزيران ١٩٦٧ من جهة اخرى، الى تفاقم عزلته واشتداد التناقضات داخله، فاستثمر ذلك بعض كبار ضباط القصر بالتحالف مع البعث وبعض القوى المشبوهة واسقطوا حكم عارف في تموز ١٩٦٨ ، ثم سرعان ما استولت زمرة صدام وطبعت الحكم بطابعها الحزبي الخاص. وكان انقلاب ١٧ ــ ٣٠ تموز انقلابا لم يغير طابع الحكم البرجوازي. وكان الحكم الجديد وكما جاء في وثائق المؤتمر الوطني الثاني للحزب الشيوعي العراقي " سلطة دكتاتورية مناوئة للديموقراطية ".

واستمر نشاط الحزب وقامت صحافة الحزب بمتابعة دقيقة لاوضاع الطبقة العاملة العراقية ومطالبها السياسية والنقابية وظروف حياتها، وجرى التركيز على ضرورة الحفاظ على وحدة الطبقة العاملة ووحدة الحركة النقابية العمالية

وتحدث اراخاجادور عن الحرب العراقية ــ الايرانية وتأثيرها على الطبقة العاملة، تلك الحرب التي لا يأتي استمرار اندلاعها الا لتدمير وهدم المنجزات الاقتصادية لكلا البلدين، الى الموت والدمار والارهاب، ويدعو اراخاجادور الى وقف حرب الاستنزاف هذه، ويؤكد على حقيقة ان اسقاط النظام الدكتاتورية الفاشي في العراق هي مهمة تقع على عاتق الطبقة العاملة والشعب العراقي وحده .

ويذكّر بالمهمة المركزية لكل العمال والمثقفين الثوريين والديموقراطيين والوطنيين العراقيين والمتجسدة في ازاحة كابوس النظام

Digitized by Birzeit University Library

واسقاطه واقامة نظام ثورى ديموقراطي على انقاضه، كما ويتطلب التركيز على اسقاط النظام الديكتاتورى عقد حلف وطني ديموقراطي واسع يضم كافة القوى المناهضة للحرب والديكتاتورية .

ويصل اراخاجادور الى الخلاصة النهائية لتجربة السنين الماضية والتي تؤكد ان كل شيء يتوقف من حيث الاساس وقبل كل شيء ، على متانة وسعة تنظيم الطبقة العاملة سواء

في سير النضال ام في نتائجه في الحفاظ على المكاسب التي يحققها .

وبعـــد ،

يتابع محمود شقير في مقدمته لبدايات الدكتور يعقوب زيادين قائلا "... وهو يفعل ذلك ايضا من واقع الضرورة القصوى التي تحتم على اجيال الحركة الوطنية المتجددة دوما ، ان تلم على نحو دقيق بتلك النضالات والتضحيات التي سبق ان اجترحها مناضلون طواهم الموت ، او ما زالوا على الطريق الطويل يواصلون الكفاح في مثابرة وصمت ".

ثم يضيف قائلا :

" ولذلك كله كان هذا الكتاب الوثيقة ، وكانت تلك البساطة في سرد الاحداث ، التي يسجلها المؤلف دون حذلقة او غموض ، تاركا للقارئ ان يستشف من هذه الاحداث ما يعمق الوعـي ، ويصقـل الوجـدان مـن شـرف التضحية في سبيل الوطن والجماهير".

وعودة على بدء

السنا حقا بحاجة الى كتب السيرة الذاتية؟

الهوامـــش :

١) من تجارب شخصية في العمل النقابي العمالي في العراق . بقلم اراخاجادور منشورات الحزب الشيوعي العراقي ـ ايار ـ ١٩٨٤.

٢) البدايات " سيرة ذاتية .. اربعون سنة في الحركة الوطنية الاردنية " د. يعقوب زيادين. منشورات صلاح الدين ـ ٣ اذار ١٩٨١ .

٣) لينين :ـ عن النقابات ص ٣٨٥ .

٤) لينين :ـ عن النقابات ص ١٩١ .

Digitized by Birzeit University Library

تعريب التعليم العالي
ضرورته واشكالياته

بقلم . د. عفيف حسن ـ جامعة بيرزيت

مقدمـــــــة :

عقدت بتاريخ ١٢/٢١/ ١٩٨٥ في مجمع النقابات المهنية بالقدس وبدعوة من اللجنة التنفيذية لمجلس التعليم العالي ندوة حول "تعريب التعليم العالي" حيث شارك فيها اداريون وممثلون عن المعاهد والجامعات في الضفة والقطاع . وايمانا مني باهمية هذا الموضوع وبضرورة توسيع دائرة المشاركين في نقاشة لترسيخ القناعة فيه والوصول الى خطة سليمة للشروع في تنفيذه، فأنني اسجل في هذا المقال بعض الملاحظات حول ضرورة تعريب التعليم العالي واشكالياته واطرح بعض المقترحات في هذا الخصوص . آملا ان يكون هذا مقدمة لنقاش واسع يساهم فيه كل المهتمين والمعنيين بمسألة تعريب التعليم العالي المحلـــي .

مفهـوم التعريـــب :

التعريب (اللغوى) هو عملية صرفية قياسية، تعتمد لفظة اصلها غير عربي تضم الى اللغة العربية بشرط وزنها على احد الاوزان العربية (١). اما المعنى الحديث للتعريب فقد استهدف العمل الاصطلاحي المتمثل في ايجاد مقابلات عربية للالفاظ الاجنبية، لتعميم اللغة العربية واستخدامها في كل ميادين المعرفة البشرية (٢). فالتعريب بمعناه العام انما يعني نقل العلم والتقنية الى مجتمعنا وبلغته القومية (٣).

Digitized by Birzeit University Library

والتعريب لا يقتصر على البعد اللغوى بل هناك تعريب لمؤسسات تربوية كتعريب لغة التعليم او تعريب التعليم الجامعي ومراكز البحوث العلمية (٤).

ان للتعريب ابعادا اقتصادية، اجتماعية وثقافية لا تقل شانا عن البعد اللغوى. فالتعريب يأتي في سياق بناء الحضارة القومية التي تقوم بالاساس على اللغة القومية، لغة المجتمع بكل طبقاته وفئاته وليس لغة النخبة فيه فقط. من هنا فللتعريب بعد جماهيري حيث تبسّط العلوم، الفكر والادب لتتفهمها الجماهير وتكون وسيلة لتفتّحها على الحضارة الانسانية، والتعريب يؤدّي الى بناء الثقافة القومية في مواجهة التبعية للثقافة الاجنبية حيث يكون الانتاج العلمي والادبي العربي بديلا للاعتماد على الثقافة الاجنبية. التعريب سيؤدّي الى الابداع عن طريق امتلاك قدرة ذاتية على الانتاج وسيقود الى المشاركة الايجابية والمنتجة لا المعاصرة المستهلكة او المقلدة، حيث يعني هذا باستقطاب وتكوين الكفاءات العلمية والتقنية القادرة على بعث العلم وتجذير التقنيةفيها (٥). وهذا يكون بديلا لاستيراد التقنية الجاهزةالتي تجعل منا مجتمعا مستهلكا يعاني من التبعية العلمية التقنية والاقتصادية.

ضرورة تعريب التعليم العالي :

التعريب في جوهرة ان نجعل العلم نشاطا وعملا عربيا بحيث تبلغ فيه مرحلة من الاعتماد على النفس ونرقى الى مصاف الامم المنتجة الفاعلة والمؤثرة في المجتمع الدولي ، محطمين بذلك طوق التبعية الثقافية وضيق الانفتاح على الثقافة الغربية الى الانفتاح الواعي على الثقافة الانسانية (٦). بالرغم من اهمية كل هذا فتعريب التعليم العالي ليس فقط استجابة للمشاعر بل استجابة للحقائق التربوية التي اثبتت ان تعليم الانسان بلغته اقوى مردودا وابعد اثرا وأحفل بالنتائج الخيرة(٧) لهذا نجد العديد من الامم تدرس العلوم في مدارسها وجامعاتها بلغتها القومية.

ومن جهة اخرى فبعد انقضاء ما يقارب العقد على تأسيس الجامعات في الضفة والقطاع وتخريج افواج عديدة من الطلبة، فهناك حاجة لتقييم دور ومحتوى وشكل التعليم العالي ومدى ملائمته لواقع مجتمعنا واحتياجاته واهدافه (٨). ان الحديث عن توطين التعليم في المعاهد والجامعات (٩) لا بد من ان يتعرض للغة التعليم نفسها ومقدرتها على تحقيق اهدافه.

١) ان غياب تعريب التعليم العالي يساعد في نشوء اجيال لا ترتبط بأمتها وبلغتها القومية وتتوجه الى الثقافة الاجنبية التي تدرس العلوم بلغتها معززة بذلك التبعية الثقافية ومضعفة روح الانتماء القومي.

.....

.....

.....

.....

٢) تلقّي الطلاب للعلوم بغير لغتهم يضعف من قدرتهم على العطاء في مجتمعهم بعد التخرج سواء من يعود للعمل في التدريس بمراحله المختلفة حيث يكون التعليم بالعربية ،او من يعود للعمل المهني والتقني او الادارى حيث تسود في سوق العمل مصطلحات

Digitized by Birzeit University Library

تختلف عن تلك التي تلقاها في اللغة الاجنبية وفي هذا اغتراب لخريجينا عن مجتمعهـــم .

٣) اللغة هي اداة التفكير والتعبير وحيث ان طلبتنا لن تمتلك ناصية اللغات الاجنبية التي يتعلمون فيها فستبقى الافكار العلمية لديهم مضطربة في عقولهم وغير واضحة، فالاستيعاب والتعبير باللغة الام اوضح واكبر من ذلك بلغة اجنبية (١٠). ومن الطبيعي ان يؤدي التعليم بلغة اجنبية الى ضياع الوقت والى ان يقل الفهم والتحصيل حيث يتوزع جهد الطالب بين فهم المفردات وفهم المادة العلمية (١١).

٤) للجامعات باساتذتها وطلبتها دور ريادي في اغناء الحياة العلمية المحلية بالتاليـــف والنشر والابحاث، ان هذا سيكون ذا فائدة اعم اذا كان بلغة سلسة بسيطة يفهمها المعنيين وهذا لن يتم الا من خلال اللغة العربية. فاذا كان الهدف من البحث العلمي هو خدمة المجتمع والعمل على تطويره فعليهم ان يكتبوا بلغته (١٢)، ففي ظل غياب سلطة وطنية يقع على عاتق الجامعات والمعاهد المحلية مسؤولية كبيرة في هذا المجال. ان تعريب التعليم العالي شرط ضروري لربط الجامعات والمعاهد بواقعها والعمل على اغنائه وتطويـــره .

٥) .....

.....

..... . لقد تسللت كلمات عبرية كثيرة الى حديثنا اليومي ، وبات الفنيون والصناع يستخدمون المصطلحات العبريّة. من اجل التصدّى لهذا وقبل ان يستشرى الامر لا بد من التعريب وتوفير المصطلحات اللازمة لذلك .

لا شك ان تعريب التعليم العالي هدف كبير بالرغم من حماسنا الشديد له الا ان ذلك يجب ان لا يخفي علينا المشاكل الحقيقية التي ستواجهنا . ان المعالجة الصحيحة للمشاكل التي قد تعترض التعريب ووضع الخطة المدروسة لمواجهتها ستقطع الطريق على اولئك الذين يتخذون من هذه المشاكل مدخلا لمحاربة التعريب والطعن في امكانيات تحقيقـــه .

اشكاليات تعريب التعليم العالي :

هناك اعتراضات عديدة على تعريب التعليم العالي منها ما هو محق ومنها ما يؤخذ مبررا لاتخاذ موقف سلبي من التعريب او معاداتـــه .

١) يكثر الحديث عن لغة عالمية للعلوم والتقنية، فيعتبر بعض الناس الانجليزية، الفرنسية او الالمانية هي تلك اللغة العالمية، لذلك في رأيهـــم حتى نكون حضاريين وعصريين نستفيد من هذه العلوم فيجب ان نتعلم بهذه اللغة . وكأن هؤلاء يجهلون مساهمة الشعوب واللغات الاخرى في العلوم ويتناسون اليابانية، الروسية، الاسبانية وغيرها من اللغات. ان تعريب التعليم لن يكون سببا في انقطاعنا عن العلوم وتخلفنا عنها، فالتعريب لا يمنع من تعليم اللغات الاجنبية والانفتاح على العلوم العالمية من خلالها، في حين يكمن الخطر في التعليم بلغة واحدة — هي لغة المستعمر القديم في الاغلب — والانفتاح على هذه الثقافة معتبرا اياها الثقافة

Digitized by Birzeit University Library

الانسانية والعالمية . بينما التعريب سيفتح الطريق نحو الترجمة من عدة لغات والانفتاح على العلوم والثقافة الانسانية الواسعة. بالا ضافة لهذا يمكن تدريس لغة اجنبية الى جانب العربية ليستطيع الطالب من خلالها الاستفادة من المراجع العالميـــة .

٢) يقال ان اللغة العربية لا يمكن ان تكون لغة العلوم التكنولوجيه فهي قاصرة على استيعابها . اللغة العربية قابلة للتطور كأية لغة اخرى ولا اعتقد بأن لغة كالصينية او اليابانية او حتى العبريّة هي اكثر قدرة على استيعاب العلوم من اللغة العربيّة. ان تجارب التعريب تلك تشير الى مقدرة العربيّة على ان تكون لغة العلم والتقنية، سواء في عصر الحضارة الاسلامية او في تجارب التعريب المعاصرة مثل تجربة العراق وتجربة سوريا حيث تدرس العلوم بما فيها الطب والهندسة باللغـــة العربيـــة (١٣).

ان للغة العربية مقدرة جيدة على استيعاب المصطلحات العلمية، فهناك وسائل عديدة لتعريب المصطلحات العلمية وللمختصّين اختيار السبيل الملائم لتعريب كل مصطلح من المصطلحات العلمية (١٤).

٣) يعتقد بعض المدرسين ان تعريب التعليم العالي غير ممكن وذلك لانعدام توفر الكتب المقررة والمراجع المطلوبة، والنشرات والبحوث باللغة العربية. لا شك ان عدم توفر المراجع والكتب بالعربية هو عائق امام التعليم الجامعي بالعربية لكن هذه نظرة احادية الجانب، حيث ان العلاقة بين توفر النشرات والتأليف العربي وبين تعريب التعليم العالي هي علاقةجدلية متبادلة .

فكيف يمكن ان تكون هناك نشرات بالعربية اذا لم يكن هناك مصطلحات بالعربية ، كيف يكون هناك تأليف بالعربية ان لم يكن هناك تعليم جامعي معرّب ١. من جهة اخرى يمكن من خلال الترجمة التي قد تسهم فيها الجامعات بخريجيها وهيئتها التدريسية توفير الكثير من المراجع باللغة العربية .

٤) كثيرا من اساتذة الجامعات والمعاهد عندنا تلقوا تعليمهم في جامعات اجنبية مما يجعل تدريسهم بالعربية تحد كبير، وان عددا من هؤلاء لا يقبل مثل هذا التحدى. ان تمكن المدرسين من العربية كلغة للعلوم والتقنية ضرورى لنجاح مشروع التعريب .

٥) في ضوء التقدم المستمر في العلوم والتكنولوجيا ، فان مواكبة التعريب لمثل هذا التقدم ومتابعة تعريب كل المصطلحات الجديدة هوالمخرج لتجنب الاختلاف بين المصطلحات التي يتداولها الناس وبين تلك التي يضعها اللغويون والمختصون. يلجأ كثير من الباحثين والاخصائيين الى التعريب الفردى مما يخلق البلبلة حيث تكثر الكلمات العربية التي تستعمل لنفس الاصطلاح الاجنبي .وهذا بدوره يعزّز اهميّة وجود تعريب مركزى ان لم يكن على مستوى الوطن العربي فليكن على المستوى القطرى على الاقـل .

حتى نشرع في تعريب التعليم العالي :

ان تعريب التعليم العالي هو ضرورة اكاديمية تربوية لرفع مستوى التعليم العالي وبعث جو البحث والعطاء العلمي المرتبط

Digitized by Birzeit University Library

بالواقع ومصلحة المجتمع . وهو ضرورة وطنية لكسر طوق التبعية الثقافية في سبيل الانفتاح على الثقافة الانسانية. وهو ضرورة لفهم العلوم والمساهمة في تطورها على طريق بناء التكنولوجيا الملائمة، مما يساهم في كسر طوق التبعية الاقتصادية .

نظرا لجسامة الاشكاليات التي تعترض التعريب وارتباطه بالوضع الوطني والعربي، فلا بد من دراسة الموضوع من كافة جوانبه وتدخلاته، ووضع استراتيجية عامة له ، وفي نفس الوقت العمل على بلورة اقتراحات محددة للشروع في تنفيذها على المستوى المحلي .

١) ان الاقتناع بضرورة تعريب التعليم العالي من قبل ادارات ومجالس الامناء والمشرفين على التعليم العالي، بالاضافة لقناعة اعضاء الهيئة التدريسية في معاهدنا وجامعاتنا تعتبر نقطة انطلاق رئيسية . ان الصعوبات العديدة تحتاج الى جهد مضني وطويل لا يبذله الا المؤمن بمثل هذا الهدف. من هنا نجد ضرورة لعمل دعائي واسع بين اوساط المعنيين والمقررين لسياستنا التعليمية . من خلال مزيد من الندوات حول موضوع التعريب وأهميته . بالاضافة للكتابة حول الموضوع في الصحف المحلية والنشرات الجامعية .

٢) ان تتشكل " لجنة لتعريب التعليم العالي "تتفرع عن مجلس التعليم العالي او بالتنسيق بين الجامعات والمؤسسات المعنية. تقوم هذه بمتابعة موضوع التعريب سواء في العمل الدعائي الاعلامي او عمل الدراسات اللازمة لذلك، والاستفادة من تجارب التعليم في الدول العربية او تجارب الشعوب الاخرى ومن كل هذا يمكن وضع تصور واضح وخطة جيدة للبدء في تعريب التعليم العالي .

٣) تشجيع المشاركة من قبل المدرسين، الاداريين والمشرفين على التعليم العالي في الندوات التي تقام لهذا الخصوص في العالم العربي، والتنسيق لذلك من قبل لجنة التعريب المذكورة اعلاه مع مكتب تنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية .

٤) الانفتاح ثقافيا على العالم العربي وتوفير ما يتم تعريبه في الوطن العربي للمعاهد ، والجامعات ومراكز البحث المحلية خاصة تعريب المصطلحات العلمية وماينشر من قبل المجامع اللغوية العربية، مضافا لذلك الاشتراك في المجلات والدوريات التي تصدر في الدول العربيـــــة .

٥) التوجه القصدى نحو الترجمة لتوفير المراجع والكتب في اللغة العربية ، وهذه الترجمة يجب ان لا تكون فقط من الانجليزية بل ومن اللغات العالمية الاخرى. لهذا فهناك حاجة لانشاء مركز او مراكز للترجمة قد تتبع مجلس التعليم العالي او الجامعات المحلية. يضاف لذلك العناية ببرامج الترجمة في الجامعات والعمل على تطويرها .

٦) توجيه البحث العلمي نحو اهتمام اكبر بمشاكل مجتمعنا وواقعه والعمل على نشر هذه الابحاث بلغتنا حيث ان تعميم نتائجها والاستفادة منها يتطلب نشرها بلغتنا العربية. العمل على اصدار مجلة دورية باللغة العربية، ربما عن مجلس التعليم العالي تعنى بشؤون البحث العلمي .

ان تعريب التعليم العالي مشروع كبير وجرئ يحتاج الى كثير من التخطيط والبحث ، ويحتاج ايضا الى جهاز ومؤسسات لتنفيذه، كذلك يحتاج لموارد مالية كبيرة. اذلا بد من دراسة مستفيضة لهذا المشروع قبل البدء فيه

Digitized by Birzeit University Library

وذلك لتجنيبه العثرات وضمان حسن سيره ونجاحه. ان نقطة الانطلاق لهذا المشروع تكمن في القناعة القوية والايمان الراسخ بضرورتـــه .

الهـوامـش : -

١. التعريب وتنسيقه في الوطن العربي ، محمد المنجي الصيادي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٤ ص ٩٣ .

٢. المرجع السابق ص ٩٤ .

٣. كلمة في تعريب العلوم ، محمد حسين صفوري ، مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ، العدد (٢٧) . ١٩٨٥ ص ٥٣ .

٤. التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية ، محمد المنجي الصيادي وآخرون ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٢ ص ٦٩ .

٥. صفوري م. س . ص ٥٣

٦. العجز عن التعريب في مجتمع تابع ، طاهر لبيب ، المستقبل العربي (تموز (١٩٨١) ص ٢٢ .

٧. الصيادي وآخرون ، م.س. ص ٤١ .

٨. التربية المدرسية والعطاء العلمي في البلاد العربية ، خليل محشى . الكاتب ع ٦٨، ١٩٨٥و ع ٦٩ (١٩٨٦) القـــدس .

٩. ندوة " توطين التعليم الهندسي " بدعوة من نقابة أصحاب المهن الهندسية ١٩٨٥ القدس .

١٠. تعريب التعليم العالي في العراق ، احمد مطلوب ، مجلة مجمع اللغة العربيـــة الاردني العدد (٢٥-٢٦) ١٩٨٤ ، ص ٦٣ .

١١. لماذا نهمل الترجمة الى العربية ، أحمد حسن مأمون ، العربي عدد ٢٦٨ ، ١٩٨١ ص ٦١ .

١٢. الكاتب عدد ٥٩ ، ص ٣٢ - ٣٨ ، عدد ٦٢ ص ٨٨ - ٩١، ١٩٨٥ القدس .

١٣. الصيادي وآخرون ، م.س . ص ٢٠١ .

١٤. تعريب التعليم الجامعي ، حسين الدراويش ، جمعية الدراسات العربية ١٩٨٣ ص ٧٢ .

Digitized by Birzeit University Library

قراءة جماعية في قصة جمال بنورة "خمسة أيام في الفارعة"

بقلم : خالد البطراوي ، وماجد ابوغوش ، وفايز منصور

عـــرض وتلخيـــــص :ـ

" خمسة ايام في الفارعــة " قصة للكاتب جمال بنورة ، نشرتها مجلة الكاتب في عددها الخامس والستين لشهر ايلول عام ١٩٨٥م . وتقع القصة في احدى وثلاثين صفحة من صفحات المجلة ، تشغل ربع مساحة المجلــة التي يبلغ عدد صفحاتها (١٢٨) صفحة . وهذه القصة هي اخر انتاج الكاتب لغاية الان ، وقد صدرت قبلها للكاتب عدة مجموعات قصصية ، والكاتب يمارس الكتابة النقدية .

وخمسة أيام في الفارعة ، قصة موضوعها السجن (الاعتقال ، والتحقيق واوضاع السجن) .

- تتكون القصة من ٢٠ مقطعا ، يحمل كل مقطع رقما وعنوانا .
- تدور حوادث القصة من الناحية الزمنية في فترة خمسة ايام من الاعتقال .

اما المكان ، ففي البيت ، ومدخل بناية الحكم العسكري ثم سجن الفارعة . ومعتقل الفارعة ، (بناء حجري مربع على زواياه اضواء ساطعة ، بني في عهد الاستعمار الانجليزي ليكون منفى للثوار الفلسطينيين ، في ردهته مرتفع عليه " كاونتر " ، يطل على مدخل السجن ، وعلى الممر ــ الذي اجبر المعتقلون على الوقوف فيه ــ ثم غرفة الفحص الطبي فقاعة الطعام ، حيث موائد الطعام ، كل مائدة يلتف حولها ثمانية معتقلين ، وصفوف من الغرف ، وساحات مفروشة بالرمل والحصى ثم الاسطبـــل .

وشخصيات القصة هم الراوي ، ومجموعة من المعتقلين .. طلاب ، وموظفين ونقابيين وسجانون ، الكابتن قدير ، وحراس ، وموظفون في السجن ، ومعتقلون قدامى داخل المعتقل .

Digitized by Birzeit University Library

وتبدأ احداث هذه القصة منذ اللحظة التي جاء فيها الشرطة يسألون عن الراوى بعد منتصف الليل لابلاغه امرا من الحكم العسكرى للمثول امامـــــه .

وفي الصباح يصل الراوى مقر الحكم العسكرى، ويلتقي مجموعة من الاشخاص بعضهم تربطه به علاقة صداقة، والاخر يراه لاول مرة. ويحاول الراوى هناك تحريض المستدعيين لرفض العمل في تنظيف ساحات المقر العسكرى، ثم يقود الراوى محاولة احتجاج ضد هذا العمل. وبعد ذلك يتحدث الراوى عن اجراءات التحقيق والنقل الى معتقل الفارعة، حيث تتم عملية النقل في باص قدم بمجموعة من المعتقلين من منطقة الخليل. واثناء سير الباص يدور حوار بين الروائي وصديقه الذى يجلس بجانبه. ويتحدث الراوى عن لحظات الوصول ثم عن قانون السجن، والحياة في السجن، النوم في الاسطبل حيث البرد، والقذارة، والمعاملة السيئة، والنشيد ممنوع، والطعام ردئ، ثم يتحدث عن محاولة الاحتجاج في غرفة الطعام. ويتحدث عن كيفية تمضية المعتقلين الوقت في السجن، وكذلك السجانين .... يقول الراوى :ـ

" وتخليت عن التفكير بعد ان التأم مجلسنا المعتاد ، واخذنا نتعاقب تدخين السيجارة الواحدة، ونفكر في نوع من التسلية لتمضية الوقت .. وهذا الانتظار الدائم لشيء يخرج عن المألوف.. او عن الروتين اليومي الذى يعيشه السجين، ولكن هذا الشيء لايأتي .. ويصبح تناول وجبات الطعام شيئا يستحق الانتظار، ويثير حماس السجناء .... وكذلك توزيع السجاير .. او الخروج وقت الفورة .... او لقاء سجين اخر وتبادل الحديث معه . وتصبح النقاشات السياسية هامة جدا وتجذب عددا كبيرا من السجناء ، وكذلك رواية القصص والاستماع الى اخبار جديدة ، او اثارة موضوع للنقاش " .

ثم يحاول احد السجناء الاحتكاك بالراوى ليفضي له بشيء ، ويدور حوار بينهما يتعلق بالسجن والمساجين والسجانين. ثم يتحدث عن محاولة اخرى للاضراب، واخيرا يتحدث عن ساعات الافراج والخروج من السجن، يغمر المفرج عنهم بشعور الانتصار على السجن وانهم اقوى مما كانوا عليه قبل دخول السجن ...

ويتذكر الراوى سؤال المحقق له قبل بضعة شهور وهو يهدده :ـ

" ماذا ستكتب ... اذا وضعناك في الفارعة ...؟!

ويجيبه دون خوف .

ـ ساعرف ذلك .... عندما اكون هناك !

ويواصل الراوى كلامه .

" وشعرت انني اكتسب شيئا جديدا ... وان الطريق تتضح امامي اكثر .. وانني اعرف ماذا اقول ..."

ثم تنتهي قصته بالخروج من السجن والجلوس في مقهى على الطريق العام ، وبعد الانتهاء من شرب القهوة يركبون احدى السيارات لتعود بهم الى بيوتهـــم .

واذن ، فالقصة اتخذت من السجن والاعتقال موضوعا لها .. وهذا الموضوع تجربة عاشها الكاتب نفسه ... اى ان احداث القصة واقعية تعبر عن تجربة حقيقية ،والكاتب ، الراوى هو الذى

Digitized by Birzeit University Library

يتحدث ويسرد وقائع هذه القصة ، اى ان القصة تروى بضمير المتكلم في اغلب مقاطعها ، فهل اضاف الكاتب شيئا ذا خصوصية ؟ـ وهل اضاف شيئا الى معرفة القارئ ؟... وهل تحدثت القصة بعمق عن هذه التجربة ام تقيدت بحدود الاخبارية والوصفية ؟ وما موقف الكاتب من تجربته ، وكيف عبر عن موقفه ؟

سوف نجيب على هذه الاسئلة فيما بعد ، عند الحديث عن مضمون القصة ،وعن بنائها الفني ..

x وقد اعتمد الكاتب اسلوب السرد والوصف في تقديم احداث قصته ، وكذلك الحوار ، وتدرج في رواية احداث قصصه حسب التسلسل الزمني ، وقد حاول الكاتب ان يعود الى الوراء ، للاستعانة باحداث ماضيه لتعميق وتكثيف زمن القصة (انظر مقطع (من هو السجين) وهو يقدم احداث قصته كما رآها او سمعها او شارك في صنعها ، اى انه يسجل فقط، يسرد الاحداث ، ويجعل لكل مجموعة من الاحداث عنوانا يناسبها . وهو دقيق في رصده للاحداث ، ودقته تقوده الى الحيادية في كثير من مواطن الحوار ، ولغته فصيحة في السرد وفي الوصف ، وفي كثير من مواقع الحوار .

واذن فالقصة تسجيلية ذات اسلوب سردى مباشر، والكاتب يرى ان هذا الشكل هو الاكثر صلاحية لتقديم القصة الواقعية المقاومـــة (١) .

x وهذه القصة تعتبر من (ادب المقاومة) ، فهي تتصدى للظلم والقمع والاضطهاد ، وهي تحمل روح المقاومة والصمود والتحدى ...

ولكن هل استطاعت هذه القصة ان تمثل موضوعها جدليا .. او هل استطاعت ان تعكس موضوعها فنيا في مضمون او موقف او رؤية تقدمية ذات شكل فني موفق ، كاحتواء ملائم للمضمون؟

بيـــن رواية (الرعب والجرأة) وقصة (خمسة ايام في ايام الفارعة) ،

في المقطع السابع عشر الذى يحمل عنوان (ما هو الوطن) ، وفي سياق الحوار عن مفهوم الوطن يسأل الراوى : هل هناك من قرأ قصة الرعب والجرأة ؟.

وهو يترك الاجابة على تساؤله لصديقه ، ثم يعود ويجيب على تساؤله باجابة شبيهة باجابة (ماميش اوغلي) في رواية (الرعب والجرأة) ، اذ يقول (ما ميش اوغلي) :ـ

الوطن هو انت ، الوطن هو نحن ، هو عائلاتنا ، هو امهاتنا هو زوجاتنا واطفالنا ، الوطن هو شعبنا ... (٢) .

ويقول الراوى في قصة (خمسة ايام في الفارعة) :ـ

" بدون الانسان لا يكون هناك وطن ... فالوطن والانسان شيء واحد ..! لانه لا يمكن الفصل بينهمـــا ...!

ويقول ايضا :ـ

" الوطن انتماء ... وهوية الانسان ... الدفاع عن الوطن .. يعني الدفاع عن وجود

Digitized by Birzeit University Library

الانسان وهويته.. لذلك يكتسب الوطن والانسان معنى واحـدا ".

وهذا المقطع له علاقة كبيرة بالمقطع الذى يحمل عنوان (لا موت بل حياة) في رواية الرعب والجرأة". وهناك تشابه اخر بين القصة والرواية ، وهذا التشابه نجده في المقطع الذى يحمل عنوان السجين .. ان هذا السجين يشبه ما مش اوغلي في كثير من الامور. ان السجين وماميش اوغلي كلاهما يؤكد على ضرورة المعاناة في الكتابة .. اى ان السمع ليس مثل الرؤيـة (خمسة ايام في الفارعة) او ان الذين يكتبون عن شيء معتمدين على اقاصيص غيرهم لا يكتبون عن الحقيقـة (الرعب والجـرأة).

ويبدو ان رواية الرعب والجرأة، قد تركت اثرها على الكاتب من حيث فكرتها واهدافها ، فالفكرة التي تقوم عليها قصتنا ، هي ان السجن لا يخيف ، وكذلك السجانون ، وفكرة الخوف والانتصار عليه هي جزء من الفكرة التي تقوم عليها رواية الرعب والجرأة. وقد جاءت نتيجة قصتنا محققة لهذه الفكرة ،ليس بما يمكن ان توحيه احداثها وسلوك شخصياتها فقط، وانما جاءت النتيجة بشكل مباشر. يقول الكاتب في نهاية قصتـه :ـ

" التفت الى الوراء لالقي نظرة اخيرة على بناء السجن . وملأ كياني شعور بالانتصار على السجن الذى خلفناه وراءنا.. وانني اقوى مما كنت عندما دخلت السجن ،وان الايام الماضية ،التي قضيناها هنا مرت ـ مثل حلم مزعج ـ منذ عهد بعيد. انهم يعتقدون ان السجن يضعفنا ويذلنا ولكن ماكنا نشعر به في تلك اللحظة كان عكس ذلك تماما ، فلم يستطع السجن ان ينال من ارادتنا.

ولقد كنا اقوى من السجن ، وشعرنا باننا نزداد صلابة وقوة ، وان ما كنا نخشاه ، لم يعد مصدر خوف لنـــا .

وفي رواية الرعب والجرأة يقول ماميش اوغلـــي :ـ

" "علام كان اعتماد الالمان ، عندما هجموا على بلادنا الشاسعة الارجاء ، لقد كانوا موقنين بانهم في الحملة الشرقية ، سيرافقهم في طليعة طوابير الدبابات ، الجنرال " الخوف" الذى سيحني له كل حي هامته او يهرب من وجهه (٣) وبعد اول احتكاك مع الالمان سقط هذا الجنرال ، فكانت اول معركة ـ معركة ضد الخوف ."

وعندما شاهد الجنود السوفييت احد الاسرى الالمان لاول مرة الذى بدا زري الهيئة ، مضطربا ، خائفا ، انسانا من لحم ودم يبوح بخطط القيادة العسكرية الالمانية... دوى الضحك ... ضحك الجنود السوفيات ،وهكذا كسبت المعركة ، هكذا انهزم عن خطهم الجنرال الرعب .

وعلى الرغم من ان الكاتب في رواية (الرعب والجرأة) لم يكن في كتابه الا ناسخا امينا ومجدا... وان كاتب قصتنا قد عاش تجربة قصته الا ان الصورة الفنية ليست مجرد نسخ للنموذج الاصلي عند الاول ، بينما هي لدى الثاني ، نسخ وتصوير فوتغرافي ، وهذا ما سنراه لدى حوارنا مع القصـة .

لقد رسم الكاتب (الكسندر بيك) ما سرد عليه ماميش اوغلي على ورق قوى ، فكانت روايته عبرة للاحفاد واحفاد الاحفـاد .

اما الكاتب جمال بنورة فقد سرد ما رأى وما سمع ولم يعبر ... اى انه كتب تقريرا اخباريا من

Digitized by Birzeit University Library

تجربته في السجـــــن .

المضمـــــــــــون :

ان الفكرة التي تقوم عليها هذه القصة هي ان السجن لا يخيف ، وكذلك السجانون ، وانه لا يـذل المحتلين ، وانه لا يمكن ان ينال من ارادتهم ، ولم يترك الكاتب المجال للقارئ لاكتشاف هذه الفكرة ففي نهاية القصة يقدم لنا الكاتب نتيجة قصته وهدفه منها مباشرة ،

وعلى الرغم من كون هذه الفكرة جيدة الا اننا لا نقرأ القصة او العمل الادبي لفكرته فحسب " ان القصة صورة للحياة ، ونحن نعرف الحياة معرفة جيدة ، وننتظر من القصة ، دائما ان تكون صادقة حية ، مقنعة كالحياة الواقعية . " .

وهذه الفكرة تسيطر على الكاتب ، فكل احداث القصة وسلوك شخصياتها تعد تجسيدا لها ، تجسيما للحركة الذهنية التي تتمثل في تطورها نحو الهدف الذى وصلت اليه القصـة .

في قصة " خمسة ايام في الفارعة " يقول احد الشباب لوالدته التي كانت تراقب ما يحدث من خلف الاسلاك الشائكة في مقر الحكم العسكرى في بيت لحم وقبل التوجه الى سجن الفارعة .

" لا تخافي يمه ، وروحي على البيت ، وما تفكرى فيّ ...."

وفي الحوار الذى يدور بين الراوى وصديقه الجالس بجانبه يقرأ " قلت وقد لا نجد الغطاء الكافي في هذا العدد الكبير من السجناء .

- سنعرف حينما نصـــل .....!
- مهما كان الامر ... علينا ان نتحمل .... ماذا نتوقع ؟
- تحت الاحتلال ... كل شيء متوقع ...."

ويصور لنا الكاتب مشاعر جنديين من حراس الباص فهما في حالة انتباه شديد ، وعيونهما مشدودة الى المعتقلين في ترقب وحذر ... معنى ذلك انهما يتحسبان من شيء ، وهذا يدل على الخوف.

وفي المقابل هناك شعور بالاسترخاء عند المعتقلين ...وبعقب شخص على ملاحظة لمعتقل شاب بأن السجانين يبدون لطفاء ! قائـلا :

" ليس من هدف لديهم سوى كسر شوكتنا واذلالنا ...الى ان نخضع ...ولكننا لن نخضع .

ارأيتم كيف تسيطر الفكرة على الكاتب ، السجن لا يخيف ... ماذا نتوقع في السجن غير الارهاب والاذلال ...الخ . والمعتقلون لا يخافون السجانين والحراس هم الذين يخافون ...

ولكن الناس في الظروف الصعبة ، وفي اللحظات الحرجة يتكشفون على حقيقتهم ، فمنهم من يكون بطلا او يكون جبانا ، شجاعا او ضعيف الارادة واهنا .. الخ .

اما ابطال قصة جمال بنورة فهم (ولا سيما السجناء) شجعان مكتملون ، تصرفاتهم لها طابع واحـد .

Digitized by Birzeit University Library

ان في ذهن الكاتب فكرة معينة، يجسدها في حادثة، او يختار لها الشخصية المناسبة، وهذا يفقد القصة جزءا كبيرا من حيويتها وصدقها الفني واقناعها .

وتقوده هذه الفكرة الى رؤية احد الحراس شابا تبدو عليه مظاهر الطفولة ، ويرى الكاتب قدير شخصية تجمع بين الطيبة والضعف ، ولكن طبيته " اصيلة" اما عنفه " فمصطنع " . فكان يبدو لطيفا معنا ومتساهلا في بعض الاحيان ، وفي احيان اخرى يتصنع القسوة ويحاول ان يقوم بمهام مركزه بشكل يرضي رؤساءه ، وبرضي ضميره في نفس الوقت . وكان يبدو انه لا يستطيع ....الخ. وفي الحوار الذي جرى بينه وبين السجين في المقطع (١٨) يوافق الراوي كلام السجين بأن الحارس هو سجين اكثر من المعتقلين يقول الراوي " نظرت الى الحارس متأملا ، كان يجلس وراء مكتب عتيق .. وضع بندقيته على الطاولة امامه، وفوهتها في اتجاهنا ... ونظره مصوب الى السجناء لا يرفع بصره عنا ، ولا تصدر عنه اي حركة كانما قيد الى مكانه ... "

ان السجناء يقلقونه وهولا يخيف .

والنتيجة ان المعتقلين اكثر حرية منه، وانهم اقوى منه، وانهم يملكون ذواتهم بينما السجانون لا ....

لكن هل يرى السجانون انفسهم هكذا ، وكيف عرف الكاتب ان قديرا طيب ؟ عندما يكون على سجيته ؟ وهل العبارة التي يرددها اثناء تناول الطعام " تفضلوا كلوا صحتين" كافية للحكم على طيبته ؟.

قد يتقبل القارئ الدردشة بين الحارس وبين المعتقلين تطبيقا للمقولة القائلة "بانسانية السجان" " وهذه تعتبر اشارة الى المعاناة والعزلة التي يعيشها السجين ، فاذا كان السجان والذي يتمتع بحرية نسبية لا يستطيع تحمل ظروف وظيفته ، فكيف بالسجين المكبل رغم ارادته ..." (٤)

ولكن ان يجرى توجيه هذا الكلام عن الكاتبين قدير ، لا يتفق مع الواقع ... اي انه لم يتوفر في هذا الحديث الصدق التاريخي ، ولا الصدق الفني .... كيف ذلك ؟.

ان الواقع يقول غير ما يقوله الكاتب جمال بنورة عن الكاتبين " قدير" واليكم جزءا من افادة طالب في جامعة بيرزيت ، يبلغ من العمر ٢١ عاما ... امضى في سجن الفارعة اربعة ايام .. اعتقل بتاريخ ١٩٨٤/٤/٢٢ ويتعلق جزء من افادته بالكاتبين (قدير) يقول :-

" في اليوم الثاني ،اي في يوم الاحد ،بينما كنت سائرا في الساحة استدعاني الكاتبين (جدير) وطلب من الحلاق ان يحلق شعري حتى النهاية ، وقد رفضت الفكرة ، فما كان من الكاتبين ان انهال علي بالضرب على رأسي ، وعلى ظهري ، وامرني بالخضوع لاوامره بان استجيب له وان اقبل ان يحلقوا لي شعري ، حتى النهاية ، وفعلا لقد قام الحلاق بحلق شعري وبعد ان انهى حلاقة ، اخذ الكاتبين " قدير " يستهزئ بي وقال لي كيف سوف تقابل زملاءك في الجامعة وانت في هذا المنظر وبنفس الوقت وضع احد زملائي في الزنزانة لانه رفض الخضوع لاوامر الكاتبين بحلاقة شعره حتى النهاية ، هذا وقد حلقوا شعر الستين طالبا من جامعتي بيرزيت والنجاح بنفس الطريقة ..." (٥).

وهذه شهادة معتقل اخر تتعلق بالسجان " قدير" ، يقول " بتاريخ ١٩٨٣/٣/٢١ م ، وهناك

Digitized by Birzeit University Library

في سجن الفارعة حيث المعاملة القاسية والاوضاع الصحية السيئة وكل شيء سيء ، مكثت مدة ١١ يوما وذقت خلالها اقسى انواع الضرب المبرح من المسؤول في السجن " غادير" ، وكانت المرة الاولى التي ضربت بها هي بسبب ارأحدافرادالغرفة، المعتقلين والتي انا موجود فيها قد غنى بصوت مسموع ، فسمع المسؤول صوتا في غرفتنا ، فجاء ليحقق من الذى كان يغني ،وعندما رفضنا الاستجابة لطلبه قام بضرب جميع من في الغرفة ، والبالغ عددهم ١٢ سجينا ، وعندما جاء دورى في الضرب وسألني اين ادرس؟ فاجبته بجامعة النجاح الوطنية فامر بكلبشتي واحضر سلكا كهربائيا وبدأ يضربني على كافة انحاء جسمي وتركني بعدها .

وفي منتصف الليل من تلك الليلة جاءني " غادير" واخذني الى الزنزانة ورماني على الارض وبدأ كالمجنون يضرب بسلك الكهرباء دون وعي او ضمير ، وبدأ يكيل المسبات على الصليب الاحمر الدولي ، والنتيجة النهائية لهذا الاسلوب ان اغمي علي " (٦) .

فهل لدى هذا السجان وقت ليكون على سجيته في السجن لتظهر طيبته .. انه يمارس دوره كما ورد في الافادة حتى في الليل ،وهولايكتفي بالتهديد، بالضرب او نزع اغطية الشبابيك كما هو في القصة اذا سمع غناءا جماعيا في السجن ، وانما يضرب بـ (الجلطة والمفرق) .

يبدو ان الكاتب لم يطلع على هذه الافادات الي وردت في كتاب (القمع والتنكيل في سجن الفارعة) الذى اصدرته لجنة الحقوقيين الدولية والقانون من اجل الانسان ، لذا اكتفى الكاتب فقط بتصوير ما رأى وما لمس في معتقل الفارعة من خلال تجربته ولكن " حتى عندما يكون امام الفنان نموذج اصلي واقعي للصورة التي ينشئها ، يظل وجود الصورة وفق ماهية اناس كثيرين من نفس النموذج" (٧) .

يجب ـ بهذا المعنى ـ ان تكون الصورة اغنى واوسع من الشيء الذى يعكسه الكاتب جمال بنـــورة .

والصدق في التصوير لا يعني تسجيل الحياة كما هي دون اختيار واع ومدروس لما هو جوهرى ومميز اكثر من اى شيء آخر ودون تقويم فكرى له .

في قصيدة الشاعر محمود درويش (جندى يحلم بالزنابق البيضاء) يقدم لنا الشاعر ، الجندى الصهيونـــي فهـــو :ـ

يحلم بالزنابـــق البيضـــاء
بغصـــن زيتـــــون
بصدرهـــا المـــورق فـــي المســـاء
.....
ولم يفلسف حلمه ، لم يفهـــم الاشيـــاء
الا كما يحسها .... يشمهـــــا .
بعد هذه المقدمة يسأله عن علاقته بالارض ، ويقول الجندى
لا اعرفها / ولا احس انها جلدى ونبضي / مثلما يقال في القصائد / وفجأة ،
رأيتها /كما ارى الحانوت ... والشارع ... والجرائـد .

Digitized by Birzeit University Library

اذن ، فعلاقة هذا الجندى بالارض ليست مثل علاقة الفلاح الفلسطيني بارضه التي يحس انها جلده ونبضه ، وكل ما يربط هذا الجندى مقاله نارية .. محاضرة من المحاضرات التي غرسوها في عقلـــه .

ويسأله معذبا نفسه ان يصف له قتيلا واحدا من القتلى الفلسطينيين والقتيل ليس الا انسان ، اعزل ، لم يحسن القتال ، وعندها سأله حزنت ؟ اجاب الجندى :ـ الحزن طير ابيض لا يقرب الميدان . والجنود يرتكبون الاثم حين يحزنون / كنت هناك الة تنفث نارا وَرَدى / وتجعل الفضاء طيرا اســـودا .

لقد هيـــأ الشاعر لهذا الحوار ... والجندى لم يكن في كامل وعيه ويقول الشاعر حين ملأت كاسه الرابع / قلت مازحا / ترحـل ... والوطن ؟/ اجاب : دعنـي .

واذن فقد كان الجندى على سجيته ، فاين هي اللحظات التي عرضها علينا الكاتب جمال بنورة وكان فيها الكابتن " قدير" على سجيته ، اين سجله في الضرب والتنكيل ؟ وهل هو نموذج للسجان ولا سيما في معتقل الفارعة الذى يذكرنا بعهد النازية ومعتقلاتها ، حيث السجناء بلا اسماء ،يتحولون الى ارقام ...وحيث يجرى اجراء التجارب على المعتقلين وقياس مدى تحطهم للتعذيـــب ... الخ .

ان الكاتب لم يقنعنا ولم يؤثر فينا .. ان الكاتب يفترض من القارئ عدم معرفته بالاحداث وكأنه يعيش في قبو ، بعيدا عن مجرى الحياة العامة ... والكاتب لم يعمد الى تحليل هذه الشخصية ولم يعرضها لنا في لقطات تكشف عن هذه " الطيبة" المزعومة .. والكاتب لم يقدم لنا ما لا نراه بحيث يكون كاتبا عميق النظرة ... انه حتى لم يعكس صورة هذا السجان عكسا حراريا صادقا بل مشوشا ان " الواقعية ليست نقلا او تقليدا حرفيا ، والا لكان من السهل ان يصبح من له اهتمام بالقصة كاتب قصة . يفترض ان يكون هدف الكتابة الابداعية ـ والقصة جزء منها ـ تعميق ادراك القارئ بالواقع عن طريق التأثير ، وهذا التأثير لا يتأتى الا عن طريق اعادة تكوين الواقع فنيا في الفكر الابداعي للكاتب بحيث يشمل على جديد ، اى انه يجب على الكاتب ان يكون عميق النظرة ، يرى في نفس الخبرة ما لا يراه الانسان العادى "٠(٨)٠

اما احداث القصة ولا سيما التي وقعت في سجن الفارعة ، فانها احداث تجربته الذاتية ، لم يمتد بها زمنيا او مكانيا .. فكانت رحلته مع المعتقلين الاخرين الى سجن الفارعة اشبه برحلة سياحية مخفورة بعدد من المسلحين ، وبدت لنا اجراءات الاستقبال شبه اخوية ... " كان بعض الجنود يصعدون الى الباص ، وآخرون ينزلون منه ، لم يبد على وجوههم القسوه او الضعف رغم سمعه السجن السيئة ، انهم يبدون كاناس عاديين ، يشعرون بسأم من الواجب الذى يقومون به ، وقد تعرفوا على بعض المعتقلين ممن دخلوا السجن في وقت سابق ، واخذوا يتبادلون معهم حديثا باللغة العبرية لم افهم منه شيئا ، وكانوا يهزون رؤوسهم بطريقة لم تعجبنـــي ..."

وقد كان ـ على حد قول الكاتب ـ السجانون كرماء مع المعتقلين فقدموا لهم قدحا آخر من الشاى ومنحوا كل معتقل سيجارتين بعد العشاء ، وفي المحاولة الثانية للاضراب يحاور الكابتن

Digitized by Birzeit University Library

"قدير" المعتقلين حوارا هادئا ودودا ، ويتساءل متعجبا :ـ

" لماذا تريدون ان تعملوا مشاكل ..؟ اقامتكم في السجن لن تطول ... انا اعلم هذا ...!
... وسوف تخرجون قريبا ... هذا الوضع سببه الازدحام في السجن .."

وهو يتحدث بلطف زائد ، وهو ايضا لا ينسى ان يزور غرفة المعتقلين في الليل ليستمع الى شكاوى المعتقلين ومطالبهم .

واحداث القصة هذه تفتقد الصدق التاريخي مرة ثانية ، وتشير ايضا الى قضية هامة يبدو انها ليست واضحة المعنى لدى الكاتب وهي الواقعيـــة .

ان كثيرا من الكتاب يخلطون بين الواقعية والواقعية الفوتغرافية ، الواقعية لا تعني ابدا ، النسخ المرآوي ، انها لا تعني التقاط الصور من الواقع كيفما كان ، لا بد من الانتقاء والاستقطاب ، وتثير كذلك احداث القصة الى قضية اخرى هي عدم وضوح هدف كتابة القصة لدى الكاتب .

" ان الفن القصصي عملية استقطار ، حتى في المدرسة الواقعية القديمة او الواقعية الجديدة "نيوريباليزم" . وكان انطون تشيكون قد اشار الى هذا .. والا فان التحقيقات الصحفية "الريبورتاج" أصدق واروع .. ولكن شتان شتان ... "(٩).

ونعود مرة اخرى الى قضية الصدق التاريخي في احداث القصة ، وبمعنى ادق ، ما مدى مواءمة موضوع القصة للفكرة او الهدف الذى اريد لها من جانب الكاتب ـ ان تتعامل مع الواقع .

تقول جريدة الطليعة الطلابية الصادرة عن كتلة اتحاد الطلبة التقدمية في جامعة بيرزيت في احدى ريبورتاجاتها الصحفية عن معتقل الفارعة " ان معتقل الفارعة قد افتتح ابان انتفاضة اذار ١٩٨٢ ، وهذا المعتقل لا يملك الحد الادنى من شروط المعتقل ، وفي الشهور الاولى من اقامته اجبر المعتقلون على العمل به وبناء الزنازين والمراحيض والقيام باعمال شاقة حول المبنى .

وفي نهاية عام ١٩٨٣ تم تطوير معتقل الفارعة ليصبح مركز استجواب وتحقيق ، حيث تم اعادة بناء الاسطبل على شكل زنازين انفرادية وجماعية ، وتم تزويد المعتقل بطاقم مخابرات عسكرية باشراف مسؤول مخابرات مختص ، واضحى معتقل الفارعة مركزا للتنكيل والارهاب وقتل الروح الوطنية للاطفال والشباب ، وهو يسعى باستمرار الى تحقيق ثلاثة اهداف :ـ

١) تحطيم الروح الكفاحية عند الشباب الفلسطيني ولا سيما من هم في السنين الاولى من شبابهم .
٢) انتزاع اعترافات صحيحة او غير حقيقية من هؤلاء الاطفال بهدف محاكمتهم .
٣) اخضاع نفسية وعقلية هؤلاء الشباب لدراسات وابحاث ، والحديث معهم حول قضايا عديدة اجتماعية واقتصادية وثقافية ، بهدف الخروج باستنتاجات تساعد في تطوير التحقيق واساليبه .

ويتعرض المعتقلون فيه لابشع انواع التعذيب من قبل السجانين والمحققين ، ويفتقر للرعاية الصحية ، ويشرف على المعتقل الحاكمية العسكرية وينفذ اوامرها ، الجيش ، ويضع السجانون اشارات بارزة على ايديهم تقول انهم شرطة عسكرية ((MP)) بهدف التغطية على حقيقة ان ادارته هي من الجيش ـ وهذا بحد ذاته يتعارض مع القانون ـ ان هذا المعتقل هو بمثابة مختبر تجارب على الطريقة الهتلرية النازية . ان رحلة المعتقلين الى هذا المعتقل في اغلبها لا تخلو من ضربهم وشتمهم .. الخ .

Digitized by Birzeit University Library

رأيتم عدم المواءمة بين موضوع القصة وهدفها او فكرتها . لقد ابرز لنا الكاتب سجن الفارعة في قصته سجنا عاديا ، انشيء كمركز " للاصلاح" ـ على حد تعبير السلطات الاسرائيلية ـ وليس كمركز للقمع والتنكيل كما تظهر الحقائق . وقد ظهر المعتقل وكانه مركز للتوقيف فقط دون تقديم اى لوائح اتهام ضد الموقوفين . وقد تم التحقيق في قصة الكاتب خارج السجن .

وسبب ذلك ان الكاتب قد اكتفى فقط بتسجيل تجربته .. " ان الفن ليس محضرا ، حتى ولو كان دقيقا جدا ، انه يستطيع ان يعطي ما هو اكثر بما لا يقدر من الحادثة المسجلة ، انه يعطي الحقيقة الحياتية .. وليس هناك ما هو ابعد عن روح الفن من اعادة تصوير الحياة او بعض تجلياتها تصويرا فوتغرافيا سلبيا . (١٠)

وكان وصف الكاتب للسجن حياديا من جهة. وصف ما رأته عيناه وقد كان دقيقا في وصفه (وصف الاصطبل مثلا) من جهة اخرى ، لذا فقد غابت عن عيني الكاتب اجزاء اخرى من السجن ، كما ان دقته هذه واطالته قد اضاعتا العلاقة النفسية بين المعتقل وهذا المكان ... فقد بدا عاديا ، وليس كجزء من آليّة القمع والتنكيل .

ومن هنا يتبين لنا ان القصة من حيث حادثتها وفكرتها وشخصياتها لم تتواءم مع موضوعها على الرغم من انها تنتهي الى الهدف الذى اراده الكاتب .

ويتبين لنا ان الكاتب لم يكتب عن الحقيقة على كلام مامش اوغلي (في رواية الرعب والجرأة) على الرغم من ان الكاتب قد عاش تجربة الاعتقال وان هؤلاء الذين كانوا يسألون الراوى في القصة .. هل تريد ان تكتب قصة عن ذلك .. عن تجربة الاعتقال في سجن الفارعة ، لاؤلئك الذين يجهلون في تحريك الريشة لنظم عقد قصة من القصص كان عليهم ان يسردوا مشاهداتهم او تجاربهم لكاتب مجرب حتى يرسم هذا ما يقال يقال له على ورق قوى ليكون عبرة للاحفاد واحفاد الاحفاد (من افتتاحية رواية الرعب والجرأة) يبقى ان تنظر الى القصة من حيث بناؤها الفني او من حيث لغتها .

البنـــــاء الفنـــــي :

" ان لغة النقد يجب ان تبحث في العمل الفني من خلال شكله وتتقرب اليه والى مضمونه عبر تقنيته واسلوبه .. وهذا لا يعني اننا نلغي اهمية المضمون ، اننا نعتبر اهمية الشكل متصلة ، بمسألة حسن ايصاله ...

ان المضمون الجيد عندما يقدم بشكل ردئ ، لا يخرج فنا جيدا ولا ادبا جيدا وانما يسيء حتى للاهداف المجيدة التي يطرحها ... والمقدرة الفنية هي ما يجعل القصة قصة ناجحة وليس الموقف العقائدى ، رجعيا كان ام ثوريا ، وسواء اكانت القصة توافق معتقداتنا ام تخالفها " (١١) .

يقوم بناء قصة " خمسة ايام في الفارعة " على اساس من الصراع بين هدف ونتيجة ... المحتلون يريدون اضعاف المحتلين واذلالهم بالاعتقال ، والراوى وشخصيات القصة لن يجعلوهم يفرحون بذلك ، وقد نجح الراوى وشخوص القصة في ذلك . وهذا النجاح هو النتيجة .

Digitized by Birzeit University Library

هم في سبيلهم الى هذه النتيجة لم تصادفهم حوادث مفاجئة تجعلهم يخفقون .. كل شيء متوقع من جهة، وما واجهوه لا يمت الى سمعة السجن السيئة من جهة اخرى . ومع ذلك فقد خرجوا اقوى مما كانوا عندما دخلوا السجن .

ان هذا البناء يعد ابسط صورة لبناء القصة، وعلى الرغم من ان هذه القصة ذات بناء بسيط الا ان هذا البناء جاء مهلهلا ، لم ينم فيه الصراع ، لذا لا يمكن الحديث عن عقدة او حبكة في القصـــة .... الخ .

وهي قصة لم تعن عناية خاصة بالحادثة او الشخصية بل اهتمت اهتماما اكبر بالفكرة، واغلب الشخصيات تصرفت وفقا لفكرة الكاتب لا تبعا لتكوينها الخاص، على الرغم من ان تصرفاتها منطقية ، الا انها غير مؤثرة، فقد فقدت كثيرا من حريتها ، امام التوجيه الخاص الذي يوجهها به المؤلـــف ....

قلنا سابقا ان النتيجة في القصة جاءت محققة للفكرة التي كانت تحتل دماغ الكاتب .... ولكن هذه النتيجة لا تتفق مع خبرة القارئ ولا تتفـق مع عالـم القصـــة .

واستخدام الكاتب لطريقة السرد على لسان المتكلم، والسرد المباشر لم يكن موفقا ، فقد افتقدت القصة حرية الحركة والمتعة والقرب الى النفس، لان السرد اقرب الى كتابة التاريخ منه السرد الفني . ولان القصة بسيطة التركيب ومضطربة البناء وتخلو من التطور. ولذا فقد فقدت عنصر التشويق .

اما لغة القصة ، فلم تكن اغنى من بنائها، فقد افتقدت لجهد من التكثيف ، اضافة الى اتباعها اسلوب السرد التسجيلي في غالب اجزائها ، مما اخل بانسيابية الشحنات النفسية القادرة على توفير عنصر التفاعل المتبادل بين القارئ (المتلقي) وبين العمل الادبـــي ...

ولم تكن لغة الحوار حية، فاغلبهم كانوا ينطقون بلغة المؤلف، لذا لم تنجح لغة الحوار، لانها فضلا عن تقييدها بالعربية الفصحى في الاغلب، لم تدل دلالة كافية على المستويات الفكرية للشخصيات المختلفـــة .

واذن فلم يكن في القصة اعتماد على حادثة او على حبكة، ولا تدل على قدرة تصوير او تحليل .... اي قدرة في تصوير الجو باجزائه الدقيقة وتفصيلاته الخفية واحاطته باطار فني واقعي يشوق القارئ بصدقه وبساطته او قدرة في تحليل النفس الانسانية تحليلا يستخرج اعمق مكوناتها وادق خفاياها .

خمسة ايام في الفارعة قصة صحفية وليس ادبية :-

ان (قصة خمسة أيام في الفارعة) تفتقر الى كثير من اسس الفن او الادب في القصة، فهي لا تعبر وانما تروى، وهي تفتقر الايقاع او النغم ومكوناته الحاكية ومقتضيات القالب، وكثير من الاحاسيس. وبما ان القصة تحكي، وليس لها مفهوم اول ومفهوم ثان، وانما لها مفهوم واحد، واضح لا لبس فيه ، ولغتها هي لغة الخبر وقليلة فيها الالفاظ الموحية المعبرة ... وبما ان مادتها

Digitized by Birzeit University Library

ذات طابع استهلاكي ، واضحة الهدف فهي اقرب الى القصة الصحفية منها الى القصة الادبية .

ملاحظات عابـــــرة :ـ

× نهاية القصة جاءت باهتة سردية مملة ولا تترك اى اثر على القارئ ، ولا ضرورة لها وليست ذات فائدة ... وحبذا لو انتهت القصة عند " وانني اعرف ماذا اريد ان اقول ....! ".

× ورد في القصة : :ـ

" في داخل الغرفة المضاءة جندى يقف كان يتناول كل معتقل برشه وهو عبارة عن ثلاثة بطانيات وقطعة اسفنج. تناولت برشي ضغطته تحت ابطي وشبكت يدى وراء ظهرى وسرت متلما طريقي في الظـــلام ".

وهذا المقطع يطرح سؤالا :ـ كيف حمل الراوى البرش ويداه مشبوكتان خلف ظهره ؟ الا تلحظ استحالة مثل هذا الامر .

× ويقول الكاتب :ـ

" دخلت علينا امرأة من الدهيشة ، كان زوجها وابنها محتجزين معنا ، وهي تحمل سلة كبيرة مليئة بالطعام وترمسا مليئا بالشـاى . شربنا من الشاى الساخن فدفأ قلوبنا ، واخذت توزع علينا ساندويشات من الهام والجبن وبعض الموز ."

في هذا المقطع خطأ نحوى ، فصفة المنصوب منصوبة ، اليس كذلك ؟.

ويبدو ان هذه المرأة لم تقصد ان تشترى "الهام" (وهو لحم الخنزير) من بيت لحم ، ربما طلبت "مرتديلا" ، فاعطاها البائع " هاما ".

هذه هي قصة (خمسة ايام في القارعة) من حيث مضمونها ، حوادثها وشخصياتها وهدفها ، ثم من حيث بناؤها الفني ولغتها ، وقد تكون قراءتنا هذه مدخل لاثارة اوسع نقاش بخصوص القصة او اى عمل شبيه لهـــا .

هوامـــــش :ـ

١) الكاتب / العدد ٤٩ / ايار ١٩٨٤ / ص ٧٥.
٢) الرعب والجرأة / رواية / الكسندر بيك / ص ٥٦ .
٣) المرجع السابق / صفحة ١٩.
٤) الفجر الادبي / العدد ٢٣ /آب ١٩٨٢ / صفحة ٩٠ .
٥) القمع والتنكيل في سجن القارعة / اصدار لجنة الحقوقيين الدولية والقانون من اجل الانسان

Digitized by Birzeit University Library

(الحق) / كانون الثاني ١٩٨٥ / صفحة ٣٦ و ٣٧ .

٦) المرجع السابق / صفحة ١٠١ .

٧) اسس علم الجمال الماركسي / جماعة من الاساتذة السوفييت / دار الجماهير / دمشق / صفحة ١٣ .

٨) الفجر الادبي / العدد ٢٣ / آب ١٩٨٢ / صفحة ٩٤ .

٩) ثقافتنا في خمسين عاما / مجموعة من المؤلفين / دائرة الثقافة والفنون / عمان / ١٩٧٢ / محمود سيف الدين الايراني (القصة) / ص ١٠٥ .

١٠) اسس علم الجمال الماركسي / جماعة من الاساتذة السوفييت / دار الجماهير / دمشق / صفحة ١٩ .

١١) الصوت والصدى / رياض عصمت / دار الطليعة / بيروت / الطبعة الاولى / ١٩٧٦ / صفحة ٣٤

Digitized by Birzeit University Library

مكسيم غوركي رائد الواقعية الاشتراكية في روايته «الأم»

بقلم : جمال بنورة

مقدمة :

فقد مكسيم غوركي والديه في سن مبكرة، وبعد ايام من تشييع امه، قال له جده : " حسنا يا الكسي : اني بالضبط لا استطيع ان اسميك مدالية معلقة حول عنقي ! ليس لك مكان بعد اليوم ههنا ، فقد آن لك ان تخرج الى ما بين الناس لكسب القوت " .

يقول مكسيم غوركي : " وهكذا خرجت الى ما بين الناس . " (١)

اسمه الحقيقي الكسي مكسيموفتش بيشكوف، ولد في ٢٨ آذار سنة ١٨٦٨ في نيجني نوفغورد (مدينة غوركي حاليا) ، وقد اختار لنفسه اسما مستعارا هو اسم ابيه مكسيم ، اما الاسم الثاني غوركي وتعني (المر) فقد اخبر جمهور القراء عن نفسه قائلا بالاسم المستعار : " انا كاتب مر وستتذوقون مرارة النبيذ الذى خمرته، وستسمعون مرارة الكلمة التي اقول " . ولكن ماذا قال عنه جمهرة الكتاب والنقاد فيما بعد : " كلا ، لست كاتبا مرا ، انك عسلي المذاق ، فعيك حلاوة فرحة الحياة الحقيقيه ، الفرحة الواعدة الوضاءة " . (٢)

عاش مكسيم غوركي طفولة قاسية، واضطر وهو دون العاشرة ان يشق طريقه في الحياة ، ويعاني جسده النحل الاعمال المرهقة، فاشتغل خادما وحمالا والى غير ذلك من الاعمال الشاقة، وذاق مرارة الجوع والتشرد، وتعرض للضرب والاهانة. " ولكنه كان يتحلى بطباع صلبة، ويمكن القول انه تخلص من تلك المحن اكثر مما تألم . " (٣) .

وقام بجولات واسعة في انحاء روسيا، ورأى بعينيه الظلم الذى يتعرض له غالبية الشعب الروسي، وارتبط منذ حداثته بالحلقات الثورية السرية، وهو الذى سمى نفسه فيما بعد : " المتعلم على نفسه من الشعب . " فقد قال عن نفسه : " استطيع ان

Digitized by Birzeit University Library

اشبه نفسي طفلا بخلية نحل يحمل اليها اناس بسطاء متباينون عسل معرفتهم وآرائهم في الحياة، وكل منهم يشترك اشتراكا واسعا حسب امكانياته الخاصة في تطور شخصيتي ونموها، وغالبا ما كان العسل وسخا مرا ، ولكنه كان، باعتباره معرفة، عسلا على اية حال ." (٤)

كما تأثر مكسيم غوركي الى حد بعيد بجدته لامه "التي انصرت في طباع حفيدها قوة شاعرية مدهشة وانصبت فيها كنهر واسع طليق هادئ وجبار عتي. فبالاضافة الى الوراثة البيولوجية نجد هنا التأثيرات الاجتماعية ـ فالاغاني والحكايات ورعاية هذه الجدة قد خلقت حول مهد الكسي مكسيموفيتش وطفولته جوا من التناغم. والجمال الذي بني فيه هذين العالمين : التصورات عن الكيفية التي ينبغي للناس ان يعيشوا فيها ... ثم الواقع الذي يعيشون فيه وكقطبين هائلين مثلت امام انظاره حقيقة الحياة المرة والحاجة الهائلة الى السعادة والسلام والحب'(٥)

لقد آمن مكسيم غوركي بأن الحياة يمكن ان تكون رائعة وان تتحول الى فرحة عظيمة واروع سعادة يعيشها الانسان .. ولكن ذلك لا يتم الا بالنضال وقد ناضل من اجل ذلك بكل مثابرة فتعرض للاعتقال عدة مرات .. وقد قال عن نفسه " جئت الى العالم لكي اعترض" (٦)

وقد عاصر غوركي النضال الثوري الذي خاضته الطبقة العاملة الروسية في بدايات هذا القرن، وربط حياته بهذا النضال، وكان تعرفه على لينين لاول مرة في ايام الثورة الروسية الاولى سنة ١٩٠٥ وربطته به صداقة كبرى لم تنقطع عراها. وقال عنه لينين : " ان غوركي لموهبة فنية ضخمة، وهو بلا شك اكبر ممثل للفن البروليتاري " فقد ارتبطت اعماله الادبية بالحركة العمالية في روسيا والعالم. وقد ظل مكسيم غوركي حتى ايامه الاخيرة اميناً عاما لاتحاد الكتاب السوفييت، وهو الذي اطلق اصطلاح الواقعية الاشتراكية في الادب في المؤتمر الاول للكتاب عام ١٩٣٤.

عن كتابات مكسيم غوركي :

عندما نشر مكسيم غوركي قصته الاولى "لم يكن اشتراكيا الا في قلبه ... وكانت هذه القصص تفيض عزة نفس وايثارا وعنفوانا انسانيا . وبطولة شخصية لمصلحة الجماعة كلها، وكانت ترفعه الى مستوى ثورى ... وبعضها كان يشير الى الاهمية التي كان يعلقها على اولى مظاهر الوعي العمالي ." (٧)

في روايته " الاصدقاء الثلاثة " التي نشرت عام ١٩٠١ يحاول مكسيم غوركي ان يكشف عن التناقض الشديد في الواقع الرأسمالي .. وهو يكرس روايته للاجابة على هذا السؤال كيف ينبغي العيش ؟ وهو يقول " تتصارع في الانسان في الاكثر والاغلب نزعتان متنافرتان نزعة لان يكون احسن ونزعة لان يعيش احسن والجمع بين هذين المطمحين في بنيان واحد غير ممكن في ظروف تشوش الحياة الحالية " (٨).

فهو يرى ما يسود العالم من ظلم ونذالة وانانية وجشع .. ويدين هذه الصفات في الانسان في بحثه عن العدالة.. حيث يقول احد ابطال قصته." ان ما يسمى بالعدالة هو في معظم الحالات مهزلة خفيفة، كوميديا . الناس الشبعانون يتدربون على اصلاح ما لدى الجياع من عيوب . وانا غالبا ما احضر جلسات المحاكم، ولكني ما رأيت جياعا

Digitized by Birzeit University Library

يحاكمون شبعانين .." (٩) مما حدا ببطل الرواية ان يقول في النهاية " كنت ابحث عن حياة شريفة نظيفة .. لا وجود لها قط ، فما انتهيت الا الى افساد نفسي.. الانسان الطيب لا يستطيع العيش معكم ، انكم تميتون الناس الطيبين تعذيبا .. لو اعلم بأية قوة يمكن سحقكم لست اعلم ..." (١٠).

وهو يدين في هذه الرواية الملكية الخاصة ويكشف عن تأثيرها المدمر على روح الانسان لدرجة ان تقوده الى ارتكاب الجريمة .. وفي نفس الوقت تكشف عدم جدوى الاحتجاج السلبي ..ويوضح الطريق الحقيقي في حياة الانسان ..

ويبرز ذلك مع بدايات ظهور الوعي العمالي رواية توماس غورديف ثم الرواية اللاحقة لها الحظوظ الثلاثة .

اما رواية الام التي انهى كتابتها في امريكا عام ١٩٠٦ فهي تعتبر بداية الادب الاشتراكي .. كما اجمع على ذلك معظم الادباء والنقاد .. وأتبعها في مرحلة لاحقة بعدد من المسرحيات والروايات منها رواية آل اوتامونوف التي ابدى تولستوى استحسانه لها والذى كتب عنه يقول " انا شخصيا اعرف غوركي واحبه ليس فقط بوصفه موهوبا له قدره في اوروبا ، بل كذلك بوصفه انسانا ذكيا ، طيبا لطيفا (١١)

ثم نشر الرواية التاريخية "كليم سامغين" ذات الاربعة مجلدات والتي تحمل في كتابتها قرابة عشر سنوات ، وحين كان في المهجر في ايطاليا كتب ثلاثيته الشهيرة عن تاريخ حياته : " طفولتي ، بين الناس ، جامعاتي ، " وكذلك كتب حكايات عن ايطاليا ..

وفي جميع كتاباته تعرض مكسيم غوركي لجميع طبقات المجتمع الروسي فشجب البرجوازية الصغيرة وبرجوازية الريف "الكولاك ،وصور نفسيتهم اصدق تصوير كما تناول المثقفين فأشاد بالمثقفين المبدعين ، وأدان المثقفين الذين يبررون مصائب الشعب على انها ضرورة كما تناول الرأسماليين والاقطاعيين واعلن عليهم حربا لا هوادة فيها .. وعلى البيروقراطية القيصرية البشعة كذلك بين ان هذا النظام قائم على الانانية والاستغلال وكتب عن المشردين . فاعتبر قسما منهم بمثابة النمور البشرية ووجد بينهم نوعا جذابا رائعا .. ولكنهم لا يتحلون بأى قوة فهم. كما يقول في مقدمة كتابه طفولتي ." اناس نشأ التشرد والسكر بينهم بسبب انعدام امكانية تحقيق الاحلام وتحويلها الى واقع .." (١٢) وتعاطف مع الشعب الكادح من صغار البرجوازية الكادحين والفلاحين وعمال المصانع فكان يكن لهم شعورا عميقا من الحب والعطف ،وقد صور حياتهم أصدق تصوير بما فيها من قسوة وحقد على بعضهم البعض وعن ضربهم لزوجاتهم بقسوة بالغة وهو عندما يكتب عنهم هكذا فليس بقصد اتهامهم بتلك العيوب ، فالقارئ يشعر من خلال كتاباته انه لا يلومهم هم ، بل الوضع كله ." فان هؤلاء كان من الممكن ان يكونوا اناسا مثاليين رائعين او بناة نشيطين للحياة الانسانية " (١٣).

وأدرك غوركي بما يشبه النبوءة وفي عهد مبكر مع بدايات ظهور الوعي الاشتراكي الدور الثورى الهام الذى ستلعبه البروليتاريا في التاريخ الروسي .. فقد قال عنها " ستأتي الى العالم لتنقذه " فكانت رواية الام التي تروى قصة آلام العامل الروسي المناضل في اطار القيصرية ، والتي سلحت شعوب العالم

Digitized by Birzeit University Library

باهم سلاح وهو الايمان بالنصر ففي نهايتها تقول الام : " انكم لن تختنقوا الحقيقة في بحار الدماء ." ولقد قال له لينين عن كتاب الام " لقد احسنت اذ أسرعت ، فان كتابك لمفيد، لان كثيرا من العمال اسهموا في الحركة الثورية دونما وعي حقيقي .. انهم اسهموا فيها غريزيا .. اما الان فانهم سيقرأون الام وسيجنون منها الكثير"(١٤).

روايـــــة الام :

في عام ١٩٠٢ ،واثناء الاحتفال بالاول من ايار كان صانع الاقفال الفتى بييـر يحمل العلم الاحمر، ويسير مع عضو اللجنة الحزبية في طليعة الموكب. هذا الفتى تعرض للاعتقال ثم حوكم ونفي الى سيبيريا .. وهو الذى سيتقمص فيما بعد بطل " الام" بول فلاسوف. ولم يلتق به مكسيم غوركي الا بعد ثلاث سنوات حاول خلالها تقديم المعونات الضرورية له لتهكينه من الفرار من السجن .. وبسبب نشاطه تعرض مكسيم غوركي للاعتقال ايضا ، ثم افرج عنه تحت ضغط الرأى العالمي. وفرضت الاقامة الجبرية عليه .. ولكنه استطاع الهرب عام ١٩٠٥ الى امريكا .. وهناك كتب روايته الام .

تدور احداث رواية الام حول النضال الثورى الذى خاضته الطبقة العاملة الروسية في مطلع هذا القرن، في مرحلة تبلور الوعي السياسي والثورى للحركة العمالية، حيث نضجت تحت قيادة لبنين طليعة عمالية ثورية عملت على قيادة الثورة الديموقراطية في نضالها ضد الحكم الاستبدادى، وضد الظلم والجشع والاستغلال الذى عانت منه غالبية الشعب الروســـي .

بول فلاسوف بطل رواية الام يموت والده من القهر والظلم والاستغلال الذى تعرض له طوال حياته ويعيش بول وحيدا مع امه بيلاجي نيولفنا . يحاول في البداية ان يقلد والده في سلوكه وقسوته وادمانه على الخمر..

تجزع والدته من سلوكه هذا وتحاول ان تنصحه . بعد اصابته بنوبة تقيؤ .. تقول له " كيف ستتمكن من اعالتي ، اذا ما بدأت تدمن الشراب .. يجب الا تشرب، لقد شرب ابوك كثيرا بالنيابة عنك، وعذبني كثيرا . وباستطاعتك انت ان ترفق بأمك .."

وبطرأ تحول تدريجي في حياة الشاب عندما ينخرط في العمل الثورى، ويتغير سلوكه تجاه امه. اقلع عن الشرب، واختفت التعابير القاسية من لغته.. وأصبح اكثر ثقة بنفسه، ويقضي امسياته في قراءة الكتب وأصبحت نظرته اكثر صرامة، ويغدو مع الايام اقل ثرثرة ،وصار يخفف عن امه عبء مشاغلها .. وهي تراقب ذلك في دهشـــة ..

ثم يخبر امه بأن رجالا خطرين سيزورونه في البيت ...

وعندما يحضر رفاقه ومعهم الفتاة ناتاشا لعقد اجتماع في بيته.. ــ وكانت جزعة قبل مجيئهم ــ يراودها خاطر بأن ابنها بالغ كثيرا في تصوير خطر هذا الاجتماع فسألته : " اهؤلاء هم الناس الخطرون ؟" فيجيبها : " انهم هم بالضبط " فتغمغم في سرها بأن ابنها ما زال طفلا .." وبعد ذلك عندما تخبره بأنها لم تر أى ضير في اجتماعهم .. وانها لم تفهم لم كان ذلك خطرا او محرما . يرد عليها قائلا إ " اجل .. ليس في ذلك اى ضير ومع ذلك فالسجن ينتظرنا جميعا ،

Digitized by Birzeit University Library

ويجب ان تدركي هذا جيدا . ويطلب اليها اذا كانت تحبه الا تحول بينه وبين ذلك الطريق الذى سلكه، فتوافق وتطلب منه ان يكون حذرا فقط .

هكذا ينخرط بول في النضال ثم يسجن مع عدد من رفاقه .

كانت الام تريد ان تعمل شيئا من اجل ولدها . ويقودها قدرها للتعرف الى رفاقه الذين لم يدخلوا السجن، وتنخرط معهم في العمل . بل هي تريد ان تنفذ المهام التي كان يقوم بها ولدها .. وتخاطب العمال قائلة " يجب ان تعطوا شيئا من اجل بول، لان ما فعله كان من اجلكم جميعا "

وتقدم لنا الرواية صورا حافلة بالنضال، ومظاهر البؤس التي يعيشها الشعب الروسي في ظل النظام القيصرى ..

تنتهي الرواية بتوقيف الام ايضا بعد ان ضبطت وهي توزع المنشورات السرية التي تضمنت مرافعة ولدها اثناء محاكمته .

ان ما تقدم ليس محاولة لتلخيص الرواية، فحتى مثل هذا العمل لو اردته يحتاج الى صفحات طويلة، وهو ابعد ما يكون عما افكر به وانما قصدت الى وضع القارئ في موقف يساعده على التعرف على ماهية الاحداث التي تزخر بها الرواية، فهناك اكثر من موضوع ،وأكثر من فكرة اراد المؤلف ان يطرحها في روايته، ولنحاول ان نستكشف ما يمكننا من ذلك ..

ان اهم ما تطرحه الرواية، هو عملية التحول الذى يحدث في داخل الانسان في مجرى عملية النضال. يقول البروفسور بيديك " ان هذه الرواية لا تقتصر على التحدث عن النضال الثورى، بل تروى كيفية تغير الانسان البسيط داخليا في مضمار هذا النضال ... انها تروى كيف تنبعث النفوس الانسانية متحررة من الذعر امام القمع الالي الفظ" (١٥)

ان مكسيم غوركي يدين هذا الخوف الذى يشل ارادة الانسان، ويدعو للتخلص منه .. لان هذا الخوف لا يزيد وضعنا الا سوءا . في البداية نرى الام خائفة من الطريق الذى سار فيه ولدها .. فهي تخشى على ولدها من ناحية .. وتفكر فيمن سيعيلها اذا حدث له شيء .. فيقول لها غاضبا : " هذا الخوف هو الذى يفجرنا جميعا . اما اولئك الذى يحكموننا فانهم يستغلون هذا الخوف ويزيدوننا رهبة" فترد عليه الام : " لا تغضب .. اتريدني الا اخاف وقد عشت حياتي كلها خائفة ؟" وبعد سجن ولدها تبدأ بالقيام ببعض المهام التي كان يقوم بها ولدها .. وتبدأ بالتخلي عن خوفها القديم . وفي المدينة حيث انتقلت لتكسب عيشها كانوا يحاولون اعادة عقد الصلة بالفلاحين التي انقطعت بعد سجن عدد كبير من الرفاق .. وتستعد للقيام بذلك قائلة " اتوسل اليك ايها الصديق العزيز ان تكلفوني بهذه المهمة .. سأمشي دون ملل صيفا وشتاء الى ان الاقي حتفي كحاج في طريقه الى كعبته .. اليس مثل هذا المصير شيئا احسد عليه ؟... ان ابناءنا الذين يحتلون في قلوبنا المقام الاعلى يضحون بحريتهم وحياتهم .. دون ان يتحسروا على انفسهم .. فهل اتوانى انا كأم عن عمل مهما كان .." وكانوا يسألونها باستمرار فيما اذا كانت خائفة فترد عليهم في ضيق :" عبثا تسألونني عما اذا كنت اخاف ..انكم لا تطرحون هذا السؤال على بعضكم البعض". هكذا تتخلى نهائيا عن خوفها .. وتقرر السير

Digitized by Birzeit University Library

في درب النضال حتى نهايته ..

كذلك نرى مثل هذا التحول في معتقداتها الدينية .. وفي نظرتها الى رجال الدين .. كان بول ورفاقه يتحدثون عن الخداع الذي يتعرض له الشعب من الكهنة ، وكيف انهم " زيفوا لنا حتى الله "..فتطلب منهم ان يكونوا اكثر حذرا عندما يتحدثون عن الله ثم تخبرهم باندفاع وقوة : " علام تعتمد عجوز مثلي في حزنها اذا انتزعتم الله منها ؟" فيرد عليها بول بوقار وحنو : " انك لم تفهمينا يا اماه .. لم اكن اتحدث عن الله الطيب الرحيم الذي تؤمنون به، بل عن الله الذي يهددنا به الكهنة، كما لو كانوا يهددوننا بعصا، عن اله يراد باسمه ان يخضع العالم كله للارادة القاسية ارادة البعض .."

لقد لعب رجال الدين في ظل النظام القيصري دورا كبيرا في عملية اخضاع الشعب. لقد ارادوا من الدين ان يكون مخدرا لالام الشعب ووسيلة لالهائه عن حقيقة بؤسه ومصدر احزانه، وأداة لاستغلاله.. وانه اذا كانت الدنيا للاغنياء فان الآخرة ستكون من نصيب الفقراء ..!

ولكن ربيين احد اصدقاء بول يفضح رجال الدين قائلا : " انهم يطلبون من الشعب ان يصبر وأن يستسلم ، وان يصلي لله ليمنحه القدرة على الاحتمال .." اما هو فقد قال للكاهن :" ان الشعب قد صلى كثيرا ، ولكن الامر الذي لا شك فيه هو انه ليس لدى الله متسع من الوقت ليسمع . " ولكن الام تقول : " فيما يتعلق بالله لا اعرف شيئا ولكنني اؤمن بالمسيح وكلماته .. فقد كان صديقا للفقراء .. وهو الذي قال:"احب جارك كما تحب نفسك .." وكانت الام تجوب المقاطعة متذكرة واثناء تجوالها كانت ترى الخيرات موفورة في الارض وترى الشعب مع ذلك يعيش في العوز والحرمان ، وترى المعابد تعج بالذهب والفضة والكهنة بملابسهم الموشاة بالذهب ، وكذلك ترى اكواخ المعدمين وأسمالهم المخزية وكانت ترى ذلك طبيعيا .. اما الان فانها تجد هذا شيئا مهينا لا يطاق. وتقتنع ان المسيح الذي تحبه والذي كان صديقا للفقراء لا يمكن ان يقبل بذلك .. كما اقتنعت ان المجتمع الذي يعتبر الانسان اداة لاثرائه هو مجتمع لا انساني .

كذلك نلمس التحول في حياة الام من زاوية اخرى، فهي في البداية ترى حياتها بدون معنى .. وتحس بأنها ليست شيئا مفيدا لاي انسان .. وهي كما تقول عن نفسها عاشت للضرب والعمل ولا تعرف شيئا غير الخوف ولا هم لها سوى اشباع ذلك الوحش الضاري (زوجها) وخدمته كي لا يستشيط غضبا ويشبعها ضربا .." اما الان فهي ترى بوضوح ان الكثيرين يحتاجون اليها ، ولقد كان هذا الشعور بالنسبة لها شعورا جديدا حلوا. يحملها على ان ترفع رأسها باعتزاز". واثناء تغيرها التدريجي تحس ان الحياة لم تعد هي نفسها " وقلبي الان غيره بالامس .. لقد فتحت نفسي عينها وتطلعت ، فاذا الحزن فيها يمتزج بالغبطة، اني ادرك قليلا من الامور .. وأعرف انكم قوم طيبون .. وانكم نذرتم انفسكم لحياة قاسية في سبيل الشعب .. وفي سبيل الحقيقة .. لقد ادركت انا ايضا .. تلك الحقيقة التي تتشدونها .. فان الحياة اصبحت بالنسبة لي افضل من ذي قبل، وأنا ارى نفسي بوضوح يوما عن يوم .."

في الرواية تجد صورا عديدة لمظاهر

Digitized by Birzeit University Library

البؤس والشقاء الذى يعاني منه غالبية الشعب الروسي .. دون أن يعلموا من اين جاءهم هذا الشقاء .. كان بول يسأل امه دائما : " استطيعين ان تحدثيني عن شيء بهيج في حياتك ؟.. تأملي اية حياة هي حياتنا . لقد بلغت الاربعين من عمرك ومع ذلك هل عشت حقا ؟ لقد كان ابي يضربك ، وانا ادرك الان انه كان يثأر ، على حساب اضلاعك ، من شقائه ، شقاء حياته التي خنقته ، دون ان يدرى من اين جاءه هذا الشقـــاء .."."

لم تكن الام تعرف لم كانت الحياة شديدة القسوة ، ولم يكن احد ليشرح لها ذلك .. وكانت تسأل بول :" ثم ماذا تريد ان تفعل ؟" فيجيبها : " اتعلم ، ثم اعلم الاخرين .. يجب علينا نحن معشر العمال ان ندرس ، ان نعرف ، ان ندرك لم كانت حياتنا هكذا شديدة القسوة". ويرسم لنا ريبين احد ابطال القصة صورة عن حية البؤس التي يعيشها الفلاحون : " هناك في الريف يلاحق الجوع الانسان كظله ، ولا امل مطلقا في ان تتوفر له الكفاية من الخبز .. لقد افترس الجوع النفوس ، وصنع مخلوقات ليس لها وجه انسان انهم هناك لا يعيشون ، انهم يتعفنون في حضن بؤس لا نستطيع ان نتصوره ". وحتى لو توفر الخبز فليس ما ننشده هو ان نأكل فحسب ، بل ان نعيش كائنات جديرة بالحياة ، والرواية تقوم بدور التوعية والتحريض " فان البؤس وحده لا يثير الشعوب وانما يثيرها الوعي به " (١٦) وكما يقول اندريه احد ابطال القصة : " يجب ان نسلح الرأس اولا ، ثم نسلح الايدى بعد ذلك " ما دام هناك اغنياء فسيظل الشعب معدما لا يعرف العدالة ولا الفرحة ". ويقول ريبين عن الفلاحين : " انني لن امنحهم الخبز .. ولكني سأثير المشكلة .. أجل سأثيرها .. انني احمل الضغينة لاولئك الذين يصنعون الشر للناس " وبنفس المعنى يتحدث بول قائلا :" نحن الذين نبني الكنائس ونقيم المصانع .. نحن القوة الحية التي تهب الناس جميعا الخبز والملذات من المهد الى اللحد . ابدا وفي كل مكان .. نحن اول من يعمل وآخر من يعيش " .

وعندما يقبض رجال السلطة على المناضل ريبين وينهمونه بأنه لص لاستعداء الناس عليه .. فيخاطبهم قائلا :" ايها الفلاحون . الا ترون كيف تعيشون .. انهم يسرقونكم ، ويخدعونكم ويمتصون دمائكم .. انتم القوة الرئيسية على الارض ، ومع ذلك ما هي الحقوق التي تملكونها ؟ ان حقكم الوحيد الذى تملكونه هو ان تنفلقوا من الجوع !.. وكانت لكلماته فعل السحر ففك الشعب وثاقه وحاول انقاذه .. لقد بدأ الشعب يتحرك من تلقاء ذاته .. فعندما يعتقلون احدا تجد من يقوم مقامه في نفس الوقت ، .. هكذا يبدأ التحول في حياة الجماهير المسحوقة ويتكشف لنا الدور التحريضي الذى تقوم به الرواية " فالادب يلعب احد دورين اما انه مخدر يدعو للهروب واما انه محرض يدعو الى اليقظة ويستثير الوجدان الانساني .." (١٧)

كذلك تبرز لنا الرواية التلاحم بين الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين الثوريين من ناحية ، فهناك العامل والفلاح والمثقف الذى انسلخ عن طبقته البرجوازية والتحم بالقضية المشتركة لجماهير الشعب المسحوقة ، واتصهروا جميعا في بوتقة الثورة . ومن ناحية اخرى تلاحم الطبقة العاملة في جميع بقاع

Digitized by Birzeit University Library

الارض. فكان العمال يفرحون لاى انتصار تحققه الطبقة العاملة في اى بلد كان .

" ـ يا لهم من ابطال .. العمال الالمان .. "

وتتساءل الام :

ـ غريب امركم .. ان الجميع بالنسبة لكم رفاق .....!

ويهتف احدهم قائلا :

ـ اجل رفاق للجميع ، ايتها الام الصغيرة ليس هناك بالنسبة لنا امم ولا عروق ، بل هناك اصدقاء او اعداء ، والعمال جميعا اصدقاء لنا ، اما الاثرياء واولئك الذين يحكمون فهم جميعا اعداء لنا .. ويؤكد اندريه ايضا : " انه ليس على ظهر الارض سوى شعبين ، سوى عرقين لا انسجام بينهما ابدا ، هما الاغنياء والفقراء ... عندما نرى كيف يعامل الاثرياء الفرنسيون والالمان والانكليز عمالهم ، ندرك انهم جميعا بالنسبة للعامل طغاة ".

وللمرأة دور هام ورئيسي في النضال الثوري. وكما يقول لينين :" تبين تجارب حركات التحرر كافة ان نجاح الثورة يعتمد على مشاركة النساء فيها ، ولن تتمكن البروليتاريا من تحقيق الحرية التامة حتى يتم لها تحقيق الحرية للمرأة كاملة". وقد رسم لنا مكسيم غوركي صورا مشرقة لنساء مكافحات اخترن طريق النضال الى جانب الشعب الكادح ، فهناك بالاضافة الى الام الفتاة ناتاشا ، وهي مدرسة ابنة ثري طردها والدها لانها اختارت هذا الطريق .. والفتاة ساندرين ، ابنة ملاك ايضا متناسقة الجسم فارعة القوام رحبة العينين احبها بول وبادلته نفس الحب ، ولكنه لم يستطع الزواج منها فهو عندما يكون في السجن تكون هي خارجة وبالعكس . ماريا كورسونوف ارملة حداد تتبع الطعام للعمال وهي التي تخبر الام عن عزم السلطات تفتيش منزلهم .

لوميلا ، ثائرة ، شديدة الصلف وهي مسؤولة عن طباعة المنشورات السرية منفصلة عن زوجها وكيل النيابة ، لها ولد عمره ثلاث عشرة سنة . واكثر ما تخشاه ان يصبح عدوا لها عندما يكبـــر .

صوفيا ، اخت المثقف الثوري نيقولا ايفانوفيتش والذى كان يعمل مدرسا وهو الذى يأتي من المدينة للاشراف على تنظيم العمال وتثقيفهم .. اما اخته صوفيا فهي ارملة ، نفي زوجها الى سيبيريا ثم هرب ومات في الخارج ، لها نشاط ثوري وفي مسكنها مطبعة سرية ، وهي متخصصة في اخفاء المناضلين عن اعين السلطة وتدبير فرارهم وتستغرب الام ان صوفيا رغم الحياة الشاقة التي تعيشها فهي دائمة الابتسام . وهي تقول عن نفسها : " انا لا اعتبر حياتي شاقة ، ولا استطيع ان اتخيل حياة افضل منها . وأشد امتاعا ".

كذلك تعرض الرواية رجال السلطة ، فيصفهم اندريه البيوروسي " هؤلاء ليسوا ببشر . انهم مطارق لسحق الناس . انهم الات تستخدم لتكييفنا نحن افراد الشعب ، لنغدو اداة طيعة ، وهم انفسهم في خدمة اليد التي تحركنا . انهم ينفذون ما يؤمرون به دونما تفكير ودون ان يسألوا عن الغاية ".

وكانت الام تقول عن قائد الدرك الذى منعها من زيارة ابنها ، وهو يبتسم لها : " انه عالي التهذيب .. لقد كان يبتسم دائما " فيرد عليها اندريه " اجل انهم في غاية اللطف والبشاشة . يقال لهم : خذوا هذا رجل ذكي شريف وانه خطر علينا فاشنقوه ،

Digitized by Birzeit University Library

فيبتسمون ويشنقون الرجل، ثم يعودون للابتسام ".

ولكن بول لم يفقد ثقته في الجنود الذين هم ابناء الشعب وكما قال عنهم اربيين : " انهم يختقوننا بأيدينا ". ولذلكفهو يقول عنهم : " سيدركون الحقيقة يوما وسوف يسيرون لا تحت راية النهب والقتل ، بل تحت رايتنا نحن، راية الحرية .."

ولم يطل الزمن حينما انضم الجنود الى صفوف الثورة في عام ١٩١٧ فقد كانت هذه الرواية بمثابة النذير لانهيار طبقة ، وصعود طبقة اخرى لاستلام الحكم. وكماجاء في الرواية : " نحن الكادحين الذين اختارتهم قوة التاريخ لتهديم العالم الهرم وبناء الحياة الجديدة ".

لقد تنبأ غوركي بأن الطبقة العاملة هي التي سترث المجتمع القديم بكل مساوئه .. وستبني الحياة الجديدة التي يتمتع فيها الجميع بالمساواة وبحق كل انسان في العمل والحياة الكريمة .

وهي تعلمك ان ذات الانسان تتحقق، ويصل الى السعادة عندما يعيش من اجل قضيته ، ويضحي في سبيلها .

ورغم أن الرواية تنتهي بالحكم على بول ورفاقه وتوقيف الام .. ولكن هذه الهزيمة لا تضعف شيئا من الثقة بالنصر النهائي، نصر القيم الانسانية التي يحملونها في اعماقهم ..

الام وادب الواقعيـة الاشتراكيـة :

" ان الواقعية في الادب ـ كما تشرحها دائرة معارف كاسل الادبية ـ موقف فحواه ان يصور الحياة، وأن يعيد رسم الطبيعة في كل اشكالها بكل اخلاص ممكن، وهي ترفض تزيين الواقع لمصلحة الجمال " (١٨).

وقد ظهرت الواقعية في القرن التاسع عشر على ايدى كتاب كبار امثال بلزاك وفلوبير في فرنسا ، وديكنز في بريطانيا، ودوستويفسكي، وتولستوى في روسيا .. وآخرين غيرهم . وقد عمدت الواقعية الى تصوير المجتمع الرأسمالي الناشئ نتيجة التقدم العلمي والاقتصادى ، وصعود الطبقة البرجوازية ، ونشوء طبقة جديدة هي البروليتاريا، وما تتعرض له هذه الطبقة من اضطهاد وظلم اجتماعي " ان صعود الواقعية تاريخيا ارتبط بعصرالتنوير، فأصبحت هي التصور الادبي الذى نقل الكتابة من مدار القصور الملكية المغلقة الى مدار الحياة اليومية والهموم (١٩).

وقد تطورت الواقعية من فوتوغرافية الى نقدية وطبيعية وأخيرا الواقعية الاشتراكية على يد مكسيم غوركي والتي جاءت تطورا طبيعيا لاحسن التقاليد الواقعية التي سبقتها .وتكتفي الواقعية الاوروبية الحديثة بوصف تحلل المجتمع الى نصفة، وهي تميل الى التشاؤم من مصير الانسانية وترسم صورة قاتمة سوداوية للعالم وبؤسه وضياعه . " فلم يعد هناك من قضايا مطروحة امام الانسان الاوروبي سوى محاولة تفحص ذاته ، بعد ان بلغ مرحلة التحلل في الحضارة البرجوازية، وبعد ان بدت الحلول امام مشاكله مسدودة الافاق ".(٢٠)

فالواقعية الاوروبية اصبحت انهزامية بشكل متزايد ، وهي تكتفي بتصوير الواقع المعاش بكل ما فيه من مساوئ وشرور ، وامراض اجتماعية، دون ان تدعو الى تغيير هذا الواقع .. بعكس الواقعية الاشتراكية التي تطورت في الاتحاد السوفييتي كأداة فنية

Digitized by Birzeit University Library

للمذهب الماركسي، وهي تدعو الى توطيد المجتمع الاشتراكي، وهي عندما تقوم بتصوير الواقع فانها تهدف في الوقت نفسه الى تغيير هذا الواقع الى الافضل، حيث ان : "

مهمة الفن ليس في تفسير العالم فحسب، وانما ايضا في تغييره " وهي تهدف الى ابراز الجانب المشرق في الانسان وتحاول ان تنميه ،وتدعو الى محاربة الشر والظلم في المجتمع ، وهي تؤمن بمستقبل الانسان، ولذلك فالواقعية الاشتراكية مذهب تفاؤلي.

وقد جاء في المعجم الفلسفي السوفياتي " الواقعية الاشتراكية منهج فني يفترض مسبقا انعكاسا حقيقيا للواقع الملموس تاريخيا ضمن تطوره الثوري. بدأت في مطلع القرن العشرين ،في ظروف ازمات الرأسمالية، وتصاعد نضال البروليتاريا والاعداد للثورة الاشتراكية في روسيـــا "(٢١).

وعنها يقول غوركي :" ان الواقعية الاشتراكية تنظر الى الكينونة على انها فعل، وتعتبر الوجود نشاطا خلاقا . وهدفها نمو المواهب الفردية للشعب نموا دائما لا يتوقف حتى يستطيع ان يقهر قوى الطبيعية .ويستمتع بالحظ السعيد الذى جعله يعيش على ارض يريد الانسان فيها خلال استجابته للنمو المتواصل لاحتياجاته ان يجعل من كمالها مكانا رائعا لسكنى الجنس البشرى الموحد في اسرة كبيرة واحدة "(٢٢)

فالواقعية الاشتراكية. أدب تغيير،وليس ادب تصوير فقط ، وهكذا فان غوركي لا يكتفي باظهار عذاب البشر مثل غيره من الكتاب.. بل انهم يعملون لتغيير هذا العالم، ليصبح مكانا جديرا بان يعيش فيه الانسان، اى ان غرض التقدم يسيرفي صعود نحو الامام ولمصلحة الانسان ومستقبله.وهذا ما برزبشكل واضح في رواية الام. حيث يقول المفكر الماركسي ج.لوكاش: "لعل فظاعة الحياة الرهيبة في المجتمع الرأسمالي ما انكشفت ابدا بمثل هذا الصدق..ان غوركي لا يقدم ابدا النتيجة العارية لماينهار في عالم الرأسمالية وسببها بل يعمد بالعكس الى صياغة ما ينهار،وكيف ينهار،وبأى كفاح يتم القضاء عليه.(٢٣).

يعتبر الناقد المصرى المعروف غالي شكرى ــ رواية الام من ادب الثورات، يقول ذلك في معرض مقارنته رواية الام برواية "كوخ العم توم" للكاتبة الامريكية هاريت بيتشرستو التي لعبت دورا في تحريك الضمير الامريكي تجاه ما يتعرض له الزنوج من ظلم واضطهاد .. والتي ساهمت في اشعال نيران الحرب الاهلية في الجنوب الامريكي يقول : " ان رواية ستو تنضح بالالم العميق من سوء المعاملة التي يلقاها السود في الجنوب الامريكي، فهي تجسد ظلما فادحا يقع على كاهل العبيد . ومن ثم فهي ترمي بعدالة ما تؤدى الى حسن المعاملة، لا اكثر .. اى ان ثورية بيتشر ستو ترمي الى ايقاظ الضمير الاخلاقي الديموقراطي بين مواطني الولايات المتحدة... وهي تطالب بالمساواة الديموقراطية العادلة بين جميع افراد هذا الشعب على اختلاف الوانهم في حدود النظام القائم، ويعني ذلك ان النظام الامريكي في الاقتصاد والاجتماع والسياسة كان بعيدا كل البعد عن دائرة احلام ستو ... ولذلك تعد رواياتها من اعمال ادب الثورة الديموقراطية . (٢٤).

اما عن رواية الام فيقول : " اما غوركي فكان يعالج قضية اخرى في مجتمع مختلف كانت احلام المجتمع الروسي منذ اواخر القرن التاسع عشر هي الخلاص من النظام القيصرى

Digitized by Birzeit University Library

... ومن هنا كانت " الام " هي حلم الثورة الاشتراكية الذى طبع وجدان غوركي ببصمات الارادة الروسية للشعب العامل . الارادة العملاقة في تغيير جذرى من الاساس . ولذلك تعد " الام " من بواكير اعمال ادب الثورة الاشتراكية " (٢٥).

ويؤكد غالي شكرى على ان : " الجسر العظيم الذى يمكن اقامته بين ادب الثورات هو ان هذا الادب يحمل في احشائه حلما جماعيا بالتغيير ، وان هذا الادب يستبطن في ثناياه ارادة جماعية في التقدم " (٢٦).

عندما سئل الكاتب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز عن العلاقة بين الادب والسياسة اجاب قائلا : " اعتقد ان العالم سيتحول الى عالم اشتراكي .. على اني اعتقد ان كتابة ادب سيء تعرقل مسيرة العملية التاريخية نحو الاشتراكية . وفي رأيي ان القارئ لا يحتاج الى من يقص عليه مآسيه واضطهاده وغياب العدالة الاجتماعية . انه يعرف كل هذا ويعاني منه يوميا ، وانما هو بحاجة الى ادب جديد ، ففي الادب الجديد تحريض وتوعية " (٢٧).

في رواية " طريق التبغ " وهي من اشهر الروايات الامريكية التي تصور حياة الفقراء والمسحوقين في المجتمع الامريكي يكتفي الكاتب العالمي ارسكين كالدويل بتصوير واقع البؤس الذى يعيشه هؤلاء الفقراء دون ان يحثهم على التغيير .. بل انهم لا يعرفون مصدر هذا البؤس الذى يعيشونه وكأنه قدرهم ان يعيشوا هكذا، فهو يقول : " كان جيد ليستر (بطل الرواية) لا يزال عاجزا عن ان يفهم لماذا كان معدما لا يملك شيئا ، ولن يملك شيئا . ولم يكن ثمة احد يدرى او يستطيع ان يفهمه. كان ذلك لغز حياته المستعصي على الحل" (٢٨) . وهو يتوجه بتفكيره الغيبي الى الله لينقذه : " لعل الله ان يهيء لي وسيلة تمكنني من ان ازرع محصولا من القطن . انه هو الذى خلق الارض والسماء ، والمطر .. فينبغي ان يبعث الى ببزر القطن وسماد الطير بطريقة من الطرق " . (٢٩)

تبقى القضية غائمة مضببة ، انه يتعاطف مع الفقراء .. ولكن لا يعمل شيئا من اجلهم .. انه لا يوضح لهم محتوى معركتهم ، وطريق نضالهم .. " يبدو لي وكأن الرب لم يعد يهتم بأن يزرع القطن كاهتمامه السابق ، والا لكان اكثر مساعدة للفقراء . ان في استطاعته ان يجبر الاغنياء على ان يعيروا الفقراء اموالهم بدلا من ان يحبسوها . ولا استطع ان اتصور كيف استولوا على جميع المال الذى في البلاد ، على كل حال يبدو لي ان من الواجب ان يوزع بالتساوى على جميع الناس " (٣٠).

هكذا اذن .. ان بطل القصة بتفكيره الساذج يؤمن بالمساواة والعدالة .. ولكنه لا يعرف كيف يمكن تحقيق ذلك .. فالكاتب يكتفي بابراز معاناة الفقراء والمسحوقين دون ان يوضح لهم طريق التغيير فكأنه يقول لمجتمعه الامريكي ان عليه ان يلتفت لهؤلاء الفقراء وينصفهم ، ويحل مشاكلهم .. لذلك نضع مثل هذه الروايات في مصاف الادب الانساني العالمي ، فالكاتب يقوم بدور تشريحي كالطبيب الذى يشخص المرض ويترك لغيره مهمة العلاج .

رغم ذلك لا نستطيع ان نقول الا ان الكاتب عبر عن مجتمعه بصورة رائعة ، فنحن لا نستطيع ان ندعي ان هناك حركة ثورية نفذت الى اعماق المجتمع الامريكي ، وتدعو الى تغيير جذرى في النظام والسياسة ، بعكس

Digitized by Birzeit University Library

الواقع الروسي الذى كان يمور بالثورة منذ مطلع القرن الحالي . لان الامور وصلت حدا لا يمكن السكوت عليه، فكان حلم الثورة الذى جسده غوركي في رواية الام .

في رواية الام الطريق واضح يرسمه غوركي بدقة و براعة . عندما يقوم رجال السلطة بتوقيف الام ـ بعد محاكمة بول ورفاقه وادانتهم ـ واتهامهم بانها لصة ،لتبرير اعتقالها امام جمهور كبير من الناس، وكانت هي تحمل المنشورات السرية التي تتضمن مرافعة ولدها اثناء محاكمته، والتي هي عبارة عن خطبة رائعة تكشف زيف النظام الذى يحاكمهم ، تفتح الام حقيبتها ، وتطوح بيدها المنشورات التي يتخاطفها الناس، وهي تقول لهم : "اقرأوا الحقيقة ". وتتعرض للضرب المبرح وهي تصرخ فيهم : " يا لكم من جبناء .. انكم لن تراكموا الا الحقد، وسينصب هذا الحقد عليكم .. ايها الاشقياء ".

هذه الكلمات الاخيرة التي تنتهي بها الرواية .. ورغم الهزيمة التي يتعرض لها بول ورفاقه، ورغم الجو الكئيب الذى يسود معظم صفحات الرواية . الا ان الرواية تظل متفائلة من مستقبل الانسان .. وأنت واجد فيها مثل هذه اللمحات الوضاءة التي تنير لك سبيل المستقبل. فالرواية عملية كشف رائعة للواقع الذى احال حياة الشعب الروسي الى جحيم من البؤس والجوع والشقاء . وهي تعلمهم لماذا كانت حياتهم قاسية بهذا الشكل، ولماذا هم مضطهدون ؟! وهي في الوقت نفسه تعبئ الجماهير، وتدعوها للنضال من اجل تغيير هذا الواقع ، من اجل تحقيق طموحات الانسان بحياة سعيدة، كما تصور التحول في حياة الانسان في مجرى عملية النضال اليومي .. وتمنحه الثقة بأن المستقبل سيكون من نصيب الشعوب المكافحة من اجل حريتها وكرامتها وانسانيتها . ورغم الهزائم التي يتعرض لها العمال، الا انها لا تدعو لليأس بل هي تمنح القارئ الثقة بالنصر النهائي... والرواية تزخر بمثل هذه المواقف التي تشيع الامل في نفس القارئ .. فعندما تسأل الام صوفيا : " من الذى سيكافئكم على جهودكم ؟ اجابت صوفيا بلهجة تعبق بالزهو "لقد كوفئنا .ربحنا حياة تحقق لنا الاكتفاء ، حياة نستطيع فيها ان نظهر قوانا الروحية .. فماذا نبغي اكثر من ذلك ؟".

وصوفيا لا شيء يزعزع ثقتها بالنصر، فهي تعلم ان الكادحين يملكون قوة هائلة، سوف تجرف امامها كل ما يعترض طريقها ..فهي تقول : " سيكون النصر لنا، لاننا مع الكادحين. لقد قرر الشعب ، وهو حين يقرر يجعل كل شيء ممكنا ، وعلينا نحن ان نوقظ وجدانه فقط ، هذا الوجدان الذى ليس له حرية التطور والنمو ".

وتقول الام عن الطليعة التي تقود الناس الى النصر :" ثقوا بقلوب ابنائكم ، فهم يصنعون الحقيقة ومن اجلها يموتون". وفي مكان آخر : " على ابناء الشعب كلهم ان يسيروا للقاء اولئك الذين يهلكون في السجون من أجلهم، ويواجهون الموت والتعذيب.. انهم يدلون الناس اين هي طريق السعادة، سعادة الجميع ، ... واذا ما انتظم المرء في صفوفهم ، فانه لن يخرج منها ابدا، لانه سيقتنع بأنهم على حق، وبأن طريقهم هذا هو الطريق الخير ولا طريق آخر سواه ".

وبعد محاكمة ابنها تفكر الام :" ان هؤلاء الشبان يوجهون قواهم التي لا تقهر في

Digitized by Birzeit University Library

سبيل غاية واحدة وهي تحقيق العدالة .. انهم يسيرون نحو الانتصار، ويمتشقون السلاح ، ليقضوا على شقاء الكون.. لقد قال لي احدهم :" اننا سنشعل شمسا جديدة .."

خاتمـــــــة :

لقد حاول منظرو الادب البرجوازي التشكيك بالواقعية الاشتراكية . بأن الادب لم يزدهر في ظلها ،وان الادب الاشتراكي متحزب، ويتحدثون عن سيطرة الدولة والحزب على الكتاب، وعن تقييد حريتهم والحد من ابداعهم ... وينعون حرية الاديب ... فأي حرية يتحدثون عنها ؟.. ان تطور الادب الاشتراكي اثبت عكس ذلك تماما فالادب المقروء عالميا هو الادب الذي يتفيأ ظلال الواقعية الاشتراكية، فليس هناك كتاب مقروء على مستوى عالمي مثل كتاب الام .. وهناك ايضا كتاب الواقعية الاشتراكية السوفييت مثل الكسي تولستوي، وشولوخوف، والكاتب الكولومبي غارسيا ماركيز الذي تربع على قمة المجد، ونال جائزة نوبل للاداب على كتابه " مائة عام من العزلة" وغيرهم كثيرون الذين ازدهر ادبهم في الوقت الذي يسود فيه الانحطاط ، والشكلية والتجريدية، والعبثية في الادب البرجوازي .

ان الادب انعكاس للواقع ، كما يؤكد لينين في كتابه" المادية والمذهب النقدي التجريبي" : " ان كل اشكال الوعي الاجتماعي بما فيها الادب والفن هي انعكاس للواقع المادي". وهذا الانعكاس ليس جامدا او فوتوغرافيا بل ينشأ من خلال العلاقة الديالكتيكية بين الفنان او الاديب والواقع المحيط به .. ولقد فتحت نظرية الانعكاس آفاقا واسعة امام تطور الادب والفن : " فالنظر الى الفن باعتباره انعكاسا للواقع يحدو بماركس وانجلز الى التأكيد دائما على ان هذا الانعكاس في ظروف المجتمعات المتناحرة طبقيا يحمل دائما طابعا طبقيا ." (٣١)

كما يدعو لينين الى حزبية الادب ، والسؤال الذي يطرح نفسه الى جانب من يتحزب الادب ، والى اي من الطبقات ينحاز يقول لينين :" يجب ان يصبح الادب حزبيا ليقف في وجه الاخلاق البرجوازية والادب البرجوازي الصناعي والتجاري . وضد الادب البرجوازي الداعي الى تعظيم الافراد والمناصب راكضا وراء الربح . يجب على البروليتاريا الاشتراكية ان تطرح مبدأ حزبية الادب وتعمل على تطويره وادخاله الى الحياة بشكل اعمق " (٣٢).

وحول موضوع حرية الفنان يؤكد لينين : " ان لكل فنان ولكل من يعد نفسه فنانا الحق في ان يبدع ما يتلاءم ومثله الاعلى متحررا من كل شيء ". وهو في رأيه ان حرية الابداع الفني الحقيقية والواقعية تنبع من الارتباط العميق بحياة الشعب وخدمة الاشتراكية بشكل اختياري وتطوعي". ويؤكد :" على ضرورة تأمين مجال واسع للمبادرة الشخصية وللموهبة الشخصية". ويدعو " الى ثقافة بروليتارية تكون تطورا شرعيا لتلك الذخيرة من المعارف التي توصلت اليها البشرية تحت نير المجتمع الرأسمالي والاقطاعي ".

نخلص الى ان الادب الاشتراكي هو ادب حزبي وطبقي معا ، ومن حزبيته وطبقيته تنبع قيمته الابداعية ، فهو يكتب عن الانسان ويتوجه الى الانسان الذي هو اقدس شيء في

Digitized by Birzeit University Library

الوجود كما يقول غوركي. وهو يتحيز الى الانسان في تطلعه نحو غد افضل، ونحو حياة مملوءة بالتفاؤل والخير والامل والفرح

الانساني، وهو من اجل ذلك يحتل هذه المكانة المرموقة في الاداب العالمية .

الهوامـــش :

١) مكسيم غوركي ــ طفولتي دار التقدم ص ٣٧٥ .
٢) المصدر السابق ص ١٢
٣) المصدر السابق ص ١١
٤) المصدر السابق ص ٢١٢
٥) المصدر السابق ١٠
٦) مكسيم غوركي ــ مقدمة الاصدقاء الثلاثة ــ دار التقدم ص ٥
٧) مكسيم غوركي ــ مقدمة الام ــ مكتبة المعارف بيروت ــ ص ٧
٨) الاصدقاء الثلاثة ــ ص ٨
٩) المصدر السابق ــ ص ٤٣٩
١٠) المصدر السابق ــ ص ٤٦٠، ٤٦٣
١١) المصدر السابق ــ ص ٣
١٢) طفولتي ــ ص ١٩
١٣) المصدر السابق ــ ص ١٤
١٤) مقدمة الام ــ ص ١١
١٥) عبدالمطلب صالح ــ دراسات في ادب الواقعية والواقعية الاشتراكية ــ منشورات البيادر ــ ص ١٦
١٦) د. محمد مندور ــ في الادب والنقد ــ دار نهضة مصر للطبع والنشر ص ١٢٦.
١٧) فريدة النقاش ــ الاهالي بتاريخ ١٩٨٤/١/١١.
١٨) المصدر السابق ــ دراسات في الواقعية الاشتراكية ــ ص ١٠
١٩) د. فيصل دراج ــ مجلة ادب ونقد عدد ١٧ نوفمبر ١٩٨٥ ص ٢١.
٢٠) حنا مينا ــ هواجس في التجربة الروائية ــ دار الادية ــ ص ١٠
٢١) المصدر السابق درسات ... ص ٢١
٢٢) المصدر اسابق ــ ص ٢١
٢٣) ج ــ لوكاش ــ دراسات في الواقعية ص ١٤
٢٤) غالي شكرى ــ معنى المأساة في الرواية العربية ــ دار الافاق الجديدة بيروت ص ١٤، ١٥
٢٥) المصدر السابق ــ ص ١٥
٢٦) المصدر السابق ــ ص ١٤
٢٧) غابربيبل غارسيا ماركيز ــ مائة عام من العزلة ــ دار الكلمة للنشر ص ١٠
٢٨) ارسكين كالدويل ــ طريق التبغ ــ دار العلم للملايين ــ ص ٢٧٢ .
٢٩) المصدر السابق ــ ص ٢٧٣.
٣٠) المصدر السابق ــ ص ٢٨١ .
٣١) م. اوفسيانيكوف ــ موجز تاريخ النظريات الجمالية ــ دار الفارابي بيروت ــ ص ٤٣٧ .
٣٢) المصدر السابق ــ ص ٤٥٠
٣٣) المصدر السابق ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ .

Digitized by Birzeit University Library

الأحد الدامي
لمكسيم غوركي

عن الروسية / قسم الترجمة في مجلة الكاتب

... مع هدوء العاصفة بدأت الجماهير المحتشدة تسير الى الامام، وكانت الوجوه مكفهرة تشية لون الزبد الذى يظهر على الامـــواج .

ونظر الناس كل الى الاخر غيرمصدقين قرارهم متعجبين من انفسهم . وحامت الكلمات فوق الرؤوس كعصافير صغيرة .

وتحدث الجمهور بصوت منخفض وبجدية وكأنهم يبررون عملهم كل امام صاحبه.

– لم يكن في وسعنا ان نصبراكثر، لذلك ذهبنا ...

– لا يمكن التصدى للشعب بدون سبب ...

– الا يفهم " هو" (١) ذلك ؟...

وتحدثوا كثيرا عن "هو" وحاول احدهم ان يقنع الاخر بأن "هو" طيب وحساس وسيفهم كل شيء ... وكان يفهم من الكلام انهم من زمن بعيد لم يفكروا فيه حتى ولو مرة بشكل جدى. ولم يشعروا به كحقيقة واقعة، وحتى لم يعرفوا بشكل واضح لماذا " هو" ؟ وأى شيء يمكن ان يعمله ؟ ولكن اليوم كان "هو " ضروريا وأسرع الجميع لفهمه، ولعدم معرفتهم ما هو في الحقيقة فقد تصوروا في مخيلاتهم اشياء ضخمة. وكانت الاماني عظيمة لذلك فقد طلبوا الشخص العظيم لحمايتهم .

وفي هذا الوضع سمع صوت من بين الجماهير ظهر بشكل حاد يقول :

– ايها الرفاق لا تخدعوا انفسكم ..!

ولكن خداع النفس كان ضروريا، وضاع صوت الرجل بين الصيحات المتعالية المنبعثة من كل جانب والمتسمة بطابع الخوف والعصبية

– اننا نريدها بصراحة ...

– انت يا اخ، اخرس .. !

– ومع كل ذلك – فالاب جابون (٢) .

– انه يعـــرف ...

---

١) الضمير "هو" استعمل هنا بدل القيصر لان الناس كانوا يخافون حتى من ذكر اسمه ولا يجرؤون على ذلك .

٢) الاب جابون هو القس الذى دبر هذه المسيرة وتآمر مع الوزارة للفتك بها .

Digitized by Birzeit University Library

وتوزع الجمهور في الشارع منقسما الى مجموعات تضج بالجدل والنقاش لتصطدم بجدران البيوت وتعود لتملأ وسط الشارع من جديد ، وفي كل ذلك كانت تظهر بذور الشك وكان واضحا الانتظار المتوتر لشيء ما ، الذى سينير الطريق الى الهدف ــ بالثقة، وبتلك الثقة يمكن تجميع كل الاجزاء في كل متناسق. لقد حاولوا اخفاء عدم الثقة ولكن لم يقدروا. وكان يلاحظ الاضطراب والحساسية نحو الاصوات. ساروا بحذر يتسمعون لكل الاصوات وينظرون الى الامام كمن يبحث عن شيء ما.

وكانت اصوات الذين كانوا يؤمنون بقوتهم وليس بقوة خارجية تثير الخوف والعصبية في الجمهور ، وكانت هذه الاصوات حادة جدا بالنسبة لكائن مقتنع بحقه ويتعذب في نقاش مفتوح مع تلك القوة التي اراد ان يراها .

ولكن، بالسير من شارع الى شارع ازداد حشد الجماهير بسرعة وهذا التزايد الخارجي اثار بالتدريج شعورا بالنمو الداخلي، وايقظ الوعي لدى الشعب المستعبد ليطالب السلطات بحقه والانتباه الى احتياجاته.

- اننا ايضا بشـــر ــ
- "هو" يفهم ، ــ اننا نتلمس ...
- يجب ان يفهم ! ... فنحن لا نثور .
- ومرة اخرى الاب جابون ــ
- ايها الرفاق ! الحرية لا تطلب ...
- يا الهـي ! ...
- انتظر انت يا اخ .
- اطردوه بعيدا ، يا للشيطان ! ...
- ان الاب جابون يعرف كيف ...

ووقف رجل يلبس معطفا اسود عليه رقعة على الكتف من لون آخر وازاح قبعته عن رأسه الاصلع وبدأ يتحدث بصوت يهتز وعيناه تلمعان! تحدث بصوت عال وبشكل حماسي ملتهب. هذا الرجل تحدث عن "هو" عن القيصر .

ولكن في البداية كان يلمس في الكلمات واللفظ حماس مصطنع ولم تلاحظ تلك العاطفة التي بتأثيرها على الاخرين يمكن ان تخلق العجب . وبدا كأن ذلك الشخص يجبر نفسه على الكلام محاولا ايقاظ ذلك الشكل الذى جرده الزمن من حيويته وشكله من زمن بعيد. لقد كان ذلك الشكل دائما بعيدا عن الانسانية ولكنه الان اصبح ضروريا له واراد الانسان ان يضع امله فيـــه .

لقد احبوا الميت بالتدريج. وكان الجمهور يسمع بانتباه، فقد عبر الخطيب عن رغباته. ومع ان الفكرة عن القوة الخرافية لم تخلع عن ذلك الشكل ، الا ان الجميع كان يعلم ان هذه القوة موجودة ويجب ان تكون. لقد جسد الخطيب هذه القوة في كائن معروف للجميع من صور التقاويم،وربطه بالشكل الذى يعرفونه من القصص ــ وفي القصص كان هذا الشكل انسانيا. لقد رسمت كلمات الخطيب العالية والواضحة بشكل واضح هذا الكائن بأنه صاحب سلطة، طيب عادل وبانتباه ابوى ينظر الى حاجات الشعب .

وعادت الثقة ولفت الجماهير موقظة اياها وقاضية على وسوسة الشكوك .. وتدافع الناس كل نحو الاخر في مجموعه الاجسام المتحدة، وألهب الزحام وتصادم الاكتاف والجوانب، القلوب بنار الثقة والامل في النجاح .

ــ لا نريد اعلاما حمراء ! ــ صرخ الرجل الاصلع وذهب الى مقدمة الجماهير ملوحا بقبعته وكانت جمجمته تلمع بشكل خافت

Digitized by Birzeit University Library

– نحن ذاهبون الى الاب !...
– انه لا يتركنا نهان !
– اللون الاحمر – لون دمنا . ايها الرفاق !

ارتفع هذا الصوت يعناد فوق رؤوس الجماهير .

– لا يوجد قوة يمكنها تحرير الشعب غير قوة الشعب نفسه .
– غير ضروي !...
– ايها الشياطين !...
– الاب جابون بالصليب ، اما هو فبالراية .
– انه اصغر من ان يتحمل مسؤولية القيادة .

والذين لم تتقد نفوسهم بالايمان بالجماهير ، اخذوا يصيحون بخوف :

– اطردوا ذلك الذى يحمل الراية .

الان تحرك الجمهور بسرعة وبدون تردد ، ومع كل خطوة اثر كل على الاخر بشكل اكبر بوحدة المزاج ونشوة خداع النفس . و"هو" الذى اوجد من مدة قليلة اثار في الذاكرة الظلال القديمة عن الابطال الطيبين – وصدى القصص التي سمعوها في الطفولة .

صاح احدهم :

– " هو " يحبنا ...

وبدون شك ، فقد آمن الجمهور باخلاص في حب هذا الكائن الذى خلقه نفس الجمهور من وقت قريب .

وعندما خرج الجمهور من الشارع الى ضفة النهر رأى امامه صفا طويلا غير منتظم من الجنود الذين سدوا عليه الطريق الى الجسر . ولكن هذا الحاجز الرقيق لم يوقف الجماهير ، ولم يكن على وجوه الجنود المرسومة على ماء النهر الازرق الصافي ما يخيف . لقد كان الجنود يقفزون لتدفئة ارجلهم المتجمدة ، وكانوا يحركون ايديهم ويتدافعون . ورأى الناس خلف النهر ذلك البيت المعتم – وهناك انتظرهم " هو" القيصر صاحب ذلك البيت . انه عظيم وقوى ، طيب ومحب ، ولا يعقل طبعا انه يمكن ان يأمر جنوده بعدم السماح للشعب بالدخول عليه ، هذا الشعب الذى يحبه ويرغب في التحدث اليه عن حاجاته .

ومع ذلك ، فقد ظهر على وجوه كثيرة علامات التحسب ، وبدأ الناس في المقدمة بابطاء خطواتهم . وآخرون بدأوا ينظرون الى الخلف . وقسم ثالث ذهب الى ناحية الطريق

والجميع كانوا يحاولون ان يظهروا انهم يعرفون معنى وقوف الجنود ، وان هذا المنظر لا يدهشهم . وكان البعض ينظر بهدوء الى الملاك الذهبي الذى يلمع عاليا في السماء فوق الحصن ، وآخرون يبتسمون .. واثناء ذلك سمع صوت يقول :

– ان الجو بارد بالنسبة للجنود .
– آه ، ه ...
– ولكن يجب ان يقفوا !
– الجنود من اجل النظام .
– بهدوء ايها الشباب !... استعد !
– مرحى للجنود – صاح احدهم .

ولكن الضابط ذا الشارات الصفراء على كتفيه استل سيفه من غمده وصاح بشيء لم يفهمه الجمهور ملوحا بسيفه المسلول . وقد وقف الجنود كتفا الى كتف وبدون حركة .

– ماذا يريدون ؟ سألت امرأة سمينة .

لم يجبها احد . وفجأة اصبح المشي صعبا على الجميع .

– الى الخلف – سمع صياح الضابط .

وتبادل عدد من الاشخاص النظرات – لقد وقفت خلفهم كتلة من الاجساد ينضم اليها من

Digitized by Birzeit University Library

الشارع بشكل متواصل نهر من الناس. وقد توزع الجمهور نتيجة الضغط حتى ملأ الساحة امام الجسر . وتقدم بعد ذلك عدد من الناس الى الامام يلوحون بمناديل بيضاء وذهبوا للقاء الضابط وكانوا يصيحون :

ـ اننا ذاهبون الى السيد ، سيدنا .

ـ بهدوء ، بهدوء !...

ـ الى الخلف !وإلا امرت باطلاق النار !..

وعندما وصل صوت الضابط للجمهور اجاب بدهشة شديدة. لقد تحدث البعض انهم لا يسمحون بالذهاب "اليه" . ولكن ان يطلقوا النار على الشعب الذاهب " اليه" بهدوء وايمان بقوته وطيبته . ـ " انه " قوة فوق كل قوة ومن يمكن ان يخاف ، ولا يوجد سبب لان يبعد شعبه عنه بالحراب والرصاص .

وفجأة صاح شخص نحيف طويل بوجه جائـــع :

ـ ان تطلق النار ؟ لا تجرؤ !...

وأكمل حديثه بصوت مرتفع متوجها نحو الجمهور :

ـ ماذا ؟ لقد قلت . انهم لا يسمحون ...

ـ من ؟ الجنـــود ؟

ـ ليس الجنود ، ولكن ـ هنا ك

وأشار بيده الى جهة بعيدة .

ـ الاعلى من الجنود .. اها ؟ لقد قلت .

ـ ان هذا ليس واضحا بعد ...

ـ سيعرفون لماذا اتينا وسيسمحون لنا !.

وعلا الضجيج. وسمعت الصيحات وترددت عبارات السخرية، واصبحت حركة الناس اكثر توترا . وهبت من النهر نفحة برد قارصة وكانت رؤوس الحراب تلمع بدون حركة وتحرك الناس الى الامام بفعل الضغط من الخلف. واولئك الذين حملوا المناديل البيضاء تنحوا الى جهة واختفوا بين الجماهير ولكن بقي في المقدمة رجال ونساء واطفال يلوحون بمناديل بيضاء .

ـ اى اطلاق نار هذا ؟ لماذا ؟ قالها بجدية رجل كبير السن ثم تابع ـ ببساطة انهم لا يسمحون بعبور الجسر ، اذهبوا على الثلج.

وفجأة امتلاء الهواء بشيء عصبي جامد، صدم الجمهور كأنه عشرات السياط اللامرئية. وللحظة تجمدت جميع الاصوات ولكن الجمهور استمر في التقدم بهدوء .

ـ انها فارغة .. ولا ادري سئل ام قيل ذلك بصوت جاف .

ولكن الاناث سمعت هنا وهناك وسقط عدد من الجثث عند ارجل الجمهور. وخرجت امرأة تتأوه بشدة وتتلمس صدرها بيدها وركضت تجاه الحراب المرفوعة لملاقاتها. وجرى وراءها عدد من الناس يمسكونها ويركضون امامها .

وسمع من جديد صوت البنادق بشكل اقوى وغير منتظم. وسمع الواقفون عند السياج كيف اهتزت اجزاؤه ـ وكأن اسنانا غير مرئية عضتها ، فقد ارتطمت احدى الرصاصات بخشب السياج ناثرة اجزاء منه في وجوه الناس وسقط الناس اثنين وثلاثة على الارض ممسكين بطونهم وهربوا الى مكان ما يعرجون، سبحوا على الثلج، وظهرت في كل مكان على الثلج بقع حمراء. رجع الجمهور الى الخلف وللحظة وقف، وفجأة انفجر صوت المئات بشكل يهز ارتفع هذا الصوت وانتشر في الهواء دون انقطاع واختلط مع صيحات الالم الشديد والخوف الشديد، صيحات الاستنكار وطلب المساعـــدة .

واندفع الناس جماعات ليحملوا القتلى

Digitized by Birzeit University Library

والجرحى. وكان الجرحى يصيحون مهددين بقبضاتهم. وفجأة تغيرت الوجوه ولمع في العيون شيء جنوني. لم يكن هنالك فوضى كالتي تحدث في مثل هذا الوضع من الخوف الصارم الاسود الذى يلف الجماهير ــ وكأنها الريح تكوم اوراق الشجر الجافة ــ ويجرهم الى مكان ما في محاولة وحشية للاختباء. وجمد الهلع القلوب وعصر الاجساد وارغم الجميع على النظر بأعين واسعة الى الدم الذى غطى الثلج، والوجوه والايدى والملابس الملطخة بالدماء وكذلك الى الجثث الهامدة في جو من حركة الاحياء الخائفة.

كان هنالك استنكار لاذع وحقد عنيف وكان يشاهد الارتباك. وكثير من الاعين الجامدة التي لا تتحرك والحواجب العابسة، قبضات مضمومة بقوة وكلمات حادة لاذعة. ولكن يظهر ان اكثر شيء كان يختلج في صدور الناس هو الدهشة الباردة والقاتلة للنفس. لم تمض بضع دقائق بعد عن الوقت الذى كان فيه الهدف واضحا امامهم، ووقف امامهم بعظمة ذلك الشكل الاسطورى والذى احبوه واعجبوا به وعللوا انفسهم بالامال العظام. رصاص، دماء، جثث، اناث ــ وقف الجميع بقلوب ممزقة امام هذا الفراغ لا قوة لهم.

وقفوا يتخبطون في مكان واحد وكأنهم مقيدون بشيء لا يستطيعون كسره. حمل بعضهم الجرحى بصمت وعناية، وجمعوا الجثث وكان الآخرون وكانهم في حلم ينظرون مشدوهين لعمل اولئك. كثيرون كانوا يصيحون على الجنود بعبارات التقريع والشتم والرجاء، لوحوا بقبضاتهم، خلعوا قبعاتهم ولا ادرى لاى سبب ينحنون، يهددون بغضب..

وفي الجهة الاخرى وقف الجنود دون حراك تاركين بنادقهم بجانب ارجلهم، وكانت وجوههم ايضا بدون حركة وكان الجلد على خدودهم مشدودا جدا حتى ظهرت عظام الوجه بشكل بارز. وكان يظهر وكأن عيون جميع الجنود بيضاء وشفاههم متجمدة.

وصاح احد من الجمهور بشكل جنوني:

ــ خطأ! كان خطأ ايها الاخوة!.. لم يعرفوا هويتنا! إلا تصدقوا! إلتذهب ايها الاخوة يجب ان نوضح!..

ــ جابون ــ خائن! إصاح صبي وهو يتسلق عمود الضـــوء.

ــ ماذا ايها الرفاق! اترون كيف يستقبلونكم؟.

ــ انتظر هذا خطأ! إلا يمكن ان يحدث ذلك! افهـــم.

ــ افتح الطريق للجريـــح!...

عاملان وامرأة كانوا يقودون رجلا طويلا ضعيفا وكان كله مغطى بالثلج والدم يتدفق من كم معطفه. وكان وجهه مزرقا وشفتاه الغامقتان تتحركان بضعف بهمس:

ــ لقد قلت ــ لا يسمحون! انهم يخفونه

ــ ما لهم وللشعب!

ــ الخيالة!

ــ اهربوا!...

الجنود الذين يقفون كالحائط تحركوا وانفتح الحائط وكانه مصراعي باب خشبي كبير ومرت الخيول تتراقص من بينهم، وسمعت صيحة الضابط، وصاح الخيالة ممزقين الهواء فوق الرؤوس ولمعت السيوف المزينة بالاشرطة الفضية واتجهوا جميعا في اتجاه واحد. ووقف الجمهور مندهشا ينظر ولا يصدق.

ــ تفرقوا ــ علا صوت لا انساني

وكأن عاصفة لفحت وجوه الناس. ومادت

Digitized by Birzeit University Library

الارض تحت اقدامهم وبدأ الجميع بالهرب مدافعين بعضهم بعضا رامين الجرحى قافزين عن الجثث. واقترب وقع حوافر الخيل والجنود يصيحون، وكانت خيولهم تقفز فوق الجرحى والساقطين على الارض وعن القتلى ولمعت السيوف وعلت صيحات الخوف والالم، وكان يسمع صوت ارتطام الفولاذ بالعظام. وقد اختلطت صيحات الجرحى بالانات الخافتة المستمرة.

- ها، ها، ها !...

وكان الجنود يلوحون بسيوفهم ويهوون بها على رؤوس الناس، وكانت وجوههم حمراء لا اعين فيها. وصهلت الخيل رافعة مشارفها.

حشروا الجمهور في الشارع ... وفي نفس الوقت الذي سمع فيه وقع حوافر الخيل وهي تبتعد وقف الناس يستريحون. ونظر كل الى الاخر بعيون شاردة وظهرت على وجوه كثيرة ابتسامات مذنبة وضحك احدهم ثم صاح :

- اه انني استطيع الهرب !
- والى اين تهرب هنا - اجابه اخر.

وفجأة انهمرت من كل النواحي عبارات الدهشة والخوف والغضب ....

- ما هذا ايها الاحوة - ها ؟
- انها مذبحة، ايها الارثوذكس.
- ولكن لماذا ؟
- هكذا تريد الحكومة !
- انهم يضربون بالسيوف ها ؟ ويدوسننا بالخيول.

وكان الناس يقفون في امكنتهم دون فهم لما يحدث، يتبادل كل مع الاخر استنكاره. لم يفهموا ما يجب ان يعمل. لم يذهب احد منهم، بل وقفوا كل بجانب الاخر محاولين ايجاد مخرج من متاهة المشاعر المتعددة الاشكال. ونظر كل الى الاخر بحب استطلاع ومع كل ذلك فقد كانوا مندهشين اكثر من كونهم خائفين. كانوا ينتظرون شيئا ما، يتسمعون ويترقبون. لقد كان الجميع محطمين من هول الدهشة، وهذه الدهشة كانت فوق كل المشاعر في هذه اللحظات الرهيبة غير المتوقعة والمروية بدماء الابرياء ...

صوت شاب ينادي بحرارة :

- الى اذهبوا لحمل الجرحى !

اهتز الجميع وذهبوا الى المخرج نحو النهر يسيحون ويتمايلون وهم يسيرون في اتجاههم وكان اناس مشوهون يغمرهم الدم والثلج. وحملوهم واوقفوا عربات النقل ليصفوهم عليها. الجميع يعمل باهتمام. بعبوس وصمت. وكانوا ينظرون الى الجرحى بعيون فاحصة وبسكون يقارنون مع شيء ما ويبحثون بتعمق عن جواب لذلك السؤال الرهيب الذي يقف امامهم كظل اسود بدون شكل ولا وضوح. وهذا السؤال حطم ذلك الشكل المختلق من وقت قريب - شكل القيصر البطل مصدر الرحمة والخير. ولكن قلائل الذين تمكنوا بشكل علني من الاعتراف بأن هذا الشكل اصبح محطما. لقد كان الاعتراف بذلك صعبا - كيف لا وان هذا يعني ان يحرم الانسان نفسه من الامل الوحيد ..

ومر الرجل الاصلع ذو المعطف المرقوع ولكن جمجمته الباهتة كانت مزينة بالدم. وكان يخفض رأسه وكتفيه ورجلاه لا تحملانه. لقد قاده شاب عريض المنكبين مكشوف الرأس مجعد الشعر وامرأة بمعطف ممزق وبوجه ابله بدون حياة.

- انتظر ميخائل، - كيف يمكن ان يحدث

Digitized by Birzeit University Library

هذا ؟ همس الجريح ـ اطلاق النار على الشعب ، ـ لا يسمح به !... يجب ان لا يحدث هذا يا ميخائيل .

ـ ولكنه حدث !ـ صرخ الشاب .

ـ واطلقوا النار .. وضربوا بالسيوف ـ اردفت المرأة .

ـ هذا يعني ان امرا اعطى بذلك يا ميخائيـل ...

ـ وهذا حدث ! ـ صاح الشاب بغضب ـ وانت كنت تفكر انهم سيتحدثون معك وسيقدمون لك كأس نبيـذ ؟.

ـ انتظر يا ميخائيل ...

وقف الجريح واسند ظهره الى الحائط وصـــاح :

ـ ايها الارثوذكس !... لماذا يقتلوننا ؟ بأى قانون ؟ وبأمر من ؟

وكان الناس يمرون بجانبه مطأطئي الرؤوس .

وفي مكان آخر في الزاوية عند السياج تجمع بضع عشرات من الناس وسمع صوت شخص يتحدث بسرعة في وسطهم يتحدث بخوف وغضـب :

ـ لقد كان جابون بالاس عند الوزير . وكان يعرف ما سيحدث ، هذا يعني انه خاننا ـ انه قادنا الى الموت !.

ـ وأى فائدة يجنيها من ذلك ؟.

ـ ومن اين لي ان اعرف ؟.

في كل مكان زاد غليان الجماهير . وبرزت امام الجميع اسئلة ما زالت غير واضحة ، ولكن كل واحد كان شعر بأهميتها ، بعمقها وبضرورة الاجابة عليها . وفي نار الغليان هذه زالت الثقة في المساعدة من الخارج وزال الامل في المخلص العجيب من الفاقة .

ومرت امرأة في وسط الشارع سمينه وثيابها رثة ذات وجه طيب للام وعيون كبيرة حزينة وكانت تنوح ممسكة بيدها اليمنى يدها اليسرى الدامية وتقـول :ـ

ـ كيف سأعمل بعد الان ؟ ماذا اطعم اطفالي ؟ لمن اشتكي ؟... ايها الارثوذكس !اين حامي الشعب اذا كان القيصر ضده ؟.

لقد ايقظت اسئلتها العالية والواضحة الناس وهزتهم هزا . فاقترب الناس منها ، ركضوا من كل الجهات ووقفوا يسمعون كلماتها بانتباه .

ـ هذا يعني ان الشعب ليس له قانون ؟. صدرت تنهدات من البعض ومن البعض الاخر شتائم .

وسمع صوت حاد غاضب من جهة اخرى يقول :

ـ لقد ثلت المساعدة ـ فقد كسروا رجل ابنـي ..

ـ اما بتروخ ـ فقد مات !...

لقد كانت الصيحات كثيرة تملأ الاذان محدثة صدى الانتقام والحقد ، والوعي بضرورة الحماية من القاتل . وظهر على الوجوه قرار ما

ـ ايها الرفاق ـ ومع كل ذلك فلنذهب الى المدينة .. ربما حصلنا على شيء ما .. اذهبوا جماعات صغيرة !.

ـ سيضربوننا ...

ـ فلنتحدث للجنود ـ يمكن ان يفهموا انه لا يوجد قانون يسمح بقتل الشعب .

ـ ويمكن ان يكون هناك قانون ـ كيف نعلم ؟

وتدريجيا ولكن بدون تردد بدأ الجمهور يتحول الى شعب . وتفرق الشباب في جماعات صغيرة وكلهم ذاهبون في اتجاه واحد نحو

Digitized by Birzeit University Library

النهر من جديد. وكانوا ما يزالون يحملون الجرحى والقتلى. وكانت تشم رائحة الدم الدافئ وتتردد الانات والصيحات .

– لقد اصابت الرصاصة يا كوف زيمن في الجبهة تماما .

– شكرا لابينا القيصر !.

– نعم لقد استقبلنـــا !

وسمعت بعض الكلمات الحادة التي لو قيلت قبل ربع ساعة لمزق الجمهور قائلها اربـــا .

ومرت فتاة صغيرة تصيح للجميع :

– الم تروا امي ؟

نظر الناس اليها بصمت وفتحوا لها الطريق .

وبعدها سمع صوت امرأة ذات يد محطمة :

– انني هنا ، هنا ..

وخلا الشارع – وكان الشباب يسيرون اسرع فأسرع. اما الشيوخ فكانوا يسيرون متجهمين وبخطى بطيئة كل اثنين او ثلاثة ينظرون الى الشباب . تحدثوا قليلا الا بعض الاشخاص الذين لم يتحملوا هذه الالام رددوا بصوت منخفض :

– هذا يعني انهم رموا الشعب الان .

– ايها القتلة الملاعين !...

تأسفوا على القتلى وحدسوا ان القاتل هو من مخلفات العبودية وصمتوا بحذر عن ذلك .. ولم يلفظوا اسمه الذى يجرح الاذان .

ويمكن انهم صمتوا عنه خوفا من ان يخلقوا آخر مكان الميت .

حول منزل القيصر وقف الجنود سلسلة متماسكة ، اما الخيالة فكانوا في الساحة تحت النوافذ . لقد كان القصر محاطا برائحة البرسيم والزبل ورائحة الخيل. وتحت النوافذ كان تنظيف السيوف والاوامر ووقع الارجل يسمع باستمرار .

وانهالت على الجنود من كل الجوانب كتل بشرية ضخمة. عشرات الالاف من الناس الحاقدين. لقد كانوا يتكلمون بشكل خاص بكلمات جديدة وبأمل جديد لا يكاد يكون واضحا حتى لهم انفسهم . وكانت وحدة الجنود ، التي وقف طرفها عند جدار البناء اما الطرف الاخر فارتكز على سياج الحديقة ، تسد الطريق المؤدى الى ساحة القصر . واقترب الجمهور الذى لا يحصى من صف الجنود ووقفوا معهم وجها لوجه .

– تفرقوا ايها السادة :– قال العريف بنصف صوته وهو يسير بمحاذاة صف الجنود دافعا الناس بيديه وكتفيه محاولا ان لا ينظر الى الوجوه الادمية .

– لماذا لا تسمحوا لنا بالمرور؟ سألوه .

– الى ايـــن ؟

– الى القيصـر !

ووقف العريف ثانية واجاب بشعور يشبه الارهاق

– لقد قلت لكم – انه غير موجود !

– القيصر غير موجود ؟ !

– نعم – لقد قيل لكم تفرقوا !

– لا يوجد قيصر بتاتا ؟ قال صوت ساخر

ووقف العريف مرة ثانية ورفع يده :

– احذر من مثل هذه الكلمات !

وبلهجة اخرى اوضح :

– انه غير موجود في المدينة –

واجابه الجمهور :

– انه غير موجود ولا في اى مكان !

– لقد انتهـى !

– لقد اطلقتم النار عليه ايها الشياطين !

– انكم تفكرون انكم تقتلون الشعب !

Digitized by Birzeit University Library

– لا يمكن قتل الشعب ، انه يكفي لكل شيء.
– لقد قتلتم القيصر !! انفهمون ؟
– ابتعدوا ايها السادة !! لا تتحدثوا !
– انت من انت ؟ هل انت جندي ؟ ما هو
– الجنـــدي ؟

وفي مكان آخر وقف شيخ ذو لحية يتحدث للجنود بحيوية وحرارة :

– انتم بشر – وكذلك نحن !! انتم في الملابس العسكرية وغدا ستلبسون الملابس المدنية. ستبحثون عن عمل، وستضطرون للاكل. لا يوجد عمل ولا ما نأكل.

وستكونون مجبرين ايها الشباب لان تطالبوا بذلك مثلنا .. وعندها سيطلقون النار عليكم اليس كذلك ؟ وسيقتلونكم لانكم تجوعون هـا ؟

لقد كان الجنود يشعرون بالبرد . وكانوا يتحولون من رجل الى رجل يضربون الارض بكعابهم ، يفركون اذانهم ناقلين بنادقهم من يد الى يد . وكانوا يتنهدون وهم يسمعون الكلام ويحركون عيونهم هنا وهناك . وعلا وجوه الجنود المزرقة من البرد شيء كالارهاق والبلة والشرود . وكانت عيونهم ترمش باستمرار وتختبيء خوفا من ان يراها احد . غير ان بعضهم كانوا يغمضون احدى اعينهم وكانهم يصوبون الى شيء ما ، وبالقوة يخفون غضبهم من هذه الكتلة من الناس التي بسببها كان عليهم ان يتجمدوا من البرد . وكانت تفوح رائحة التعب والالم من صف الجنود هذا.

وكان الناس يقفون وجها لوجه مع الجنود وبفعل الضغط من الخلف كانوا في بعض الاحيان يدفعون الجنود .

– بهدوء !! قال شخص بصوت منخفض .

كان البعض يمسك بأيدي الجنود يحدثونهم عن شيء ما . وكان الجنود يسمعون معبرين بوجوههم وعيونهم بحركات غير محددة .

– لا تمس السلاح : – قال احد الجنود لشاب يلبس على رأسه قبعة من فرو منقوش وكان الشاب يدفع الجندي باصبعه في صدره قائلا :

– انك جندي وليس جلاد .. لقد دعوك لتحمي روسيا من الاعداء وليس لتطلق النار على الشعب. انفهم !! الشعب – هذا هو روسيا !.

– نحن لانطلق النار !! – اجاب الجندي

– انظر – انها روسيا ، انه الشعب الروسي يريد ان يرى قيصره !!

وقطع احدهم الكلام قائلا :

– لا يريـــد !!!

– هل هنا ك ما يمنع الشعب ان يتحدث مع القيصر عن اموره ؟

– انا لا اعرف !– قال الجندي أما جاره فاضاف .

– لا يسمح لنا بالحديث .

وتنهد متعبا وخفض عينيه .

وفجأة سأل احد الجنود الشخص الذي يقف امامه بحنان :

– هل انت من ريزان ؟

– انا من بسكوف .. ماذا تعني بسوء الك؟

– لا شيء .. انا – من ريزان .

وهز كتفيه مبتسما ابتسامة عريضة .

وكان الناس يتجمعون امام هذا الحائط من الجنود ويرتطمون به مثل امواج النهر ترتطم بحجارة ضفته . ذهبوا وعادوا من جديد . واكثرهم لا يعرف لماذا هو موجود هنا . ماذا يريدون وماذا ينتظرون ؟ لم يكن هنالك هدف

Digitized by Birzeit University Library

واضح . وكان يستحوذ عليهم شعور بمرارة الاهانة والاستنكار، والرغبة في الانتقام . وكانت هذه المشاعر تجمع بينهم وتبعثهم في الشارع ولكنهم لم يجدوا الشخص الذى يصبون عليه مشاعر الحقد والاستنكار ولا الشخص الذى عليهم ان ينتقموا منه .. اما الجنود فلم يثيروا حفيظة الجمهور لقد كانوا بكل بساطة بلهاء تعساء كثير منهم لم يتحمل البرد القارص فانتفضت اجسامهم واصطكت اسنانهم .

– اننا نقف هنا من الساعة الرابعة صباحا – انها مصيبة ... !

– الا تذهبون ها ؟ وعندها نذهب نحن الى الثكنات ، الى الدفء .

– لماذا انتم متأثرون هكذا ؟ ماذا تنتظرون قال العريف .

لقد كانت الكلمات ووجهه، الجدى ولهجته الواثقة التي تحدث بها تأثير على الناس . وفي كل ما قاله كان شيء معقول اعمق بكثير من نفس كلماته البسيطة .

– لا يوجد سبب للانتظار ! ان الجنود فقط يعانون من اجلكم .

– اتطلقون النار علينا ؟ سأل احد الشباب

صمت العريف لحظة ثم اجاب بهدوء :

– اذا امرونا – فسنفعل !

لقد اثار هذا الجواب عاصفة من التعليقات التوبيخية والشتائم والاستهزاء .

– لماذا ؟ لماذا ؟ سأل شخص اشقر طويل بأعلى صوته .

– الا تسمعون اوامر القيادة :– اوضح العريف وهو يفرك اذنه .

لقد كان الجنود يسمعون حديث الجمهور والارهاق باد عليهم . وعلق احدهم بقوله :

– آه لو احصل على شيء ساخن الان !..

– هل تريد دمي ؟ سأل احدهم بغيظ .

– لست وحشا . اجاب الجندى شاعرا بالاهانة

لقد كانت الاعين الكثيرة تنظر الى صف الجنود بحب استطلاع صامت بارد ، باحتقار . ولكن الاغلبية كانوا يحاولون تدفئة الجنود بنار معتقداتهم وان يجركوا شيئا في هذه القلوب المضغوطة في الثكنات وهذه الرؤوس المحشوة بالتوافه من التعليم العسكرى . اغلبية الناس كانوا يريدون عمل شيء ما . ان يحققوا احساساتهم وافكارهم ولذلك كانوا يرتطمون بهذا الحجر البارد الذى كان يريد شيئا واحدا فقط – ان يدفئ جسمه .

وكان الكلام اكثر حرارة والكلمات اكثر وضوحا .

– ايها الجنود ! قال رجل ذو لحية وعيون زرقاء – من انتم ؟ انكم اطفال الشعب الروسي لقد افتقر الشعب ، انه منهي . ترك دون حماية دون عمل ، دون خبز . وها هو اليوم ذاهب يسأل المساعدة من القيصر، اما القيصر فيأمركم باطلاق النار عليه وقتله . ايها الجنود ! الشعب – اباؤكم، واخوتكم – انهم يطالبون ليس فقط لانفسهم ، ولكن لكم ايضا انهم يضعونكم ضد الشعب ويدفعونكم لقتل الاب وقتل الاخ .فكروا ! الا تفهمون تسيرون ضد انفسكم ؟.

لقدكان لذلك الصوت الهادئ المتزن تأثيره الكبير في الجنود وقد زاد الصوت تأثيرا وذلك الوجه الطيب والشيب الوقور والمظهر الهادئ والكلمات البسيطة المفعمة بالثقة فانصت الجنود بانتباه ولم يجرؤوا على مواجهة نظرات ذلك الرجل فخفضوا عيونهم وهز بعضهم رأسه متنهدا وعبس القسم الاخر

Digitized by Birzeit University Library

وتبادلوا النظرات فقال جندى بصوت منخفض ينصح صاحب الصوت .

ـ ابتعد ـ سيسمع الضابط !

وكان الضابط الطويل ذو الشارب الكبير يسير ببطء حذاء صف الجنود . وكان يشد قفازه على يده اليمنى ويقول من بين اسنانه :

ـ تفر .. رقوا !اذهـ .. ب من هنا !ماذا؟ تتحدث !سأريك كيف تتحدث .

لقد كان وجهه سمينا احمر وعيناه مستديرتين فاتحتين ولكن بدون لمعان. وكان يسير ببطء ضاربا الارض بقدميه بقوة . لقد كان الوقت يسير بسرعة بقدومه وكأن كل ثانية تسرع في الاختفاء خوفا من ان تمتلئ بشيء محزن . وخلفه كان الجنود ينتظمون في صفهم دافعين صدورهم ينظرون الى مقدمة احذيتهم . وكان بعضهم يدل بعينيه للناس على الضابط ويعبرون بوجوههم تعابير غاضبة وعندما وقف الضابط في طرف الصف صاح :

ـ استعـد !

تحرك الجنود بسرعة ووقفوا دون حراك

ـ امر بأن تتفرقوا !قال الضابط وسحب سيفه من غمده .

لقد كان الانصراف عمليا غير ممكن ـ فقد ملأ الجمهور كل الساحة الصغيرة، ومن الشارع في المؤخرة كان الناس يردون باستمرار .

لقد نظر الجميع بحقد الى الضابط . وكان يسمع الاستهزاء والشتائم . ولكنه وقف صامدا تحت ضرباتهم . وكان ينظر الى وحدة الجنود بجمود . لقد ضج الجمهور وقد اثاره هذا الهدوء انه لا انساني ان يكون هادئا في هذه اللحظات .

ـ هذا ـ يا مر !

ـ انه يستطيع ان يضرب بالسيف حتى بدون أمر .

ـ اس، سحب سيفه ...

ـ اى يا سيد !هل انت جاهز للقتل؟

وعلا الضجيج، وساد شعوربعدم الاهتمام وعدم فائدة الابتعاد وعلت الصيحات اكثر والاستهزاء بشكل أحدّ .

نظر العريف الى الضابط واهتز وسحب سيفه ايضا .

وفجأة سمع غناء السلاح الشرير. ونظر الجمهور الى احد الجنود وكان شكله عجيبا، منتفخ الوجنتين مبحلق العينين . وكانت البندقية تهتز في يده وتغني لوقت طويل . لقد كان صفير الناس العالي يختلط مع كلمات التأنيب وأنات الضعف وصيحات الاستسلام المنبعث من امكانية الموت في اللحظة التالية وعدم امكانية الهروب من الموت، حيث انه لم يكن هنالك طريق للهرب منه . وسقطت بعض الاجساد على الارض ، وغيرهم كانوا يغطون وجوههم بايديهم. اما الشخص ذو اللحية الكبيرة فقد فتح معطفه على صدره ووقف امام الجميع ناظرا بعينيه الزرقاوين الى الجنود . وقد كان يتحدث ويتحدث شيئا غير مسموع يختفي في فوضى الصيحات .

اما الجنود فقد رفعوا بنادقهم في وضع تهيؤ ، ووجهوا حرابهم تجاه الجمهور.

وكان يلاحظ ان صف الحراب لم يكن هادئا ولا متجانسا فبعضها رفع كثيرا الى اعلى والبعض الاخر خفض الى اسفل. وفقط عدد قليل كان ينظر تماما في صدور الناس .

وسمع صوت يصيح بخوف واشمئزاز :

ـ ماذا تفعلون ؟!ايها القتلة !

اهتزت الحراب بقوة وبغير تجانس، وسمع صوت الطلقات. ارتد الناس الى الخلف

Digitized by Birzeit University Library

مدفوعين من صوت وفعل الرصاص وسقوط القتلى والجرحى. وبدأ البعض بصمت يقفز عن سياج الحديقة .

وانفجرت الطلقة الثانية .. وتبعها طلقات

واصابت رصاصة احد الاولاد على سياج الحديقة وفجأ تدلى معلقا ورجلاه الى اعلى . اما امرأة طويلة ممشوقة القامة فقد تأوهت وهبطت برفق بجانبه .

ـ ايها الملاعين :... صاح شخص ما .

وأصبح المكان هادئا وواسعا . فالذين كانوا يقفون الى الخلف هربوا الى الشارع والاحواش. وتراجع الجمهور خاضعا لدفعات غير مرئية. وتشكل بين الجمهور والجنود مساحة من الارض امتلأت كلها بالاجسام . كان بعضهم يقوم ويهرب بسرعة الى الجمهور وآخرون وقفوا بجهود كبيرة مخلفين وراءهم بقعا من الدم وهؤلاء ايضا ساروا الى جهة ما يترنحون وسال الدم في اثرهم. كثير من الناس كانوا يرقدون دون حراك بعضهم وجوههم الى اعلى او الى اسفل او على الجنب. ولكن كلهم كانت اجسامهم ممتدة بتوتر عجيب من تأثير الموت الذى اخذهم بين يديه .

وعمت رائحة الدم. ورائحة الدم هذه كانت تذكر بنسيم البحر الدافيء المالح في المساء بعد يوم حار . وكانت هذه الرائحة راحة مريضة ومسكرة بشكل يثير العطش لشربها من جديد اكثر فاكثر . وهذه الرائحة تتلف التفكير كما يعلم ذلك الجزارون والجنود وكل القتلة بحكم مهنتهم .

وتراجع الجمهور متأوها . واختلطت اللعنات والشتائم وصيحات الالم مع الصفير والتأوهات والانات في مجموعة متعددة الاشكال. اما الجنود فكانوا يقفون بصلابة وبدون حركة مثل الاموات. واكفهرت وجوههم وانضمت شفاههم بقوة وكأن هؤلاء الناس كانوا يريدون الصياح والصفير ولكن لم يجراوا وكانوا ينظرون امامهم بأعين واسعة ولكنهم الان لم يرمشوا .لم يكن يلاحظ اى شيء انساني في هذه النظرات. وظهروا كأنهم لا يرون شيئا . لا يريدون ان يروا ـ ويمكن انهم خفية يخافون ان يروا الدم الحار الذى اهرقوه لئلا يريدوا ان يهرقوه مرة ثانية .

كانت البنادق ترتعش في ايديهم والحراب تهتز في الهواء. ولكن هذه الرعشة في الجسم لم تكن لتستطيع ان تثير اى مشاعر في قلوب هؤلاء الناس الذين حطمت قلوبهم بنير العنف، على القوة وعبئت عقولهم بالكذب العفن. ونهض عن الارض ذلك الرجل ذو اللحية والعيون الزرقاء وبدأ يتكلم من جديد بصوت باك .

ـ لم تقتلوني . هذا لانني جئتكم عن الحقيقة المقدسة ...

ومن جديد تقدم الجمهور بعبوس وبطء الى الامام لازالة القتلى والجرحى . ووقف عدد من الناس بجانب ذلك الشخص الذى كان يتحدث الى الجنود وكانوا يقاطعونه، يصيحون ويحاولون اقناع الجنود ويعنفونهم على ما فعلوه. وكان ما زال يلمس في اصواتهم تلك الثقة البدائية في انتصار كلمة الحق والرغبة في البرهان بعدم جدوى العنف. وحاولوا ان يفهموا الجنود دورهم المخزى اللاارادى .

وسحب الضابط مسدسه وفحصه بغباء واتجه نحو هذه المجموعة من الناس الذين ابتعدوا عنه غير مسرعين كما يبتعدون عن حجر

Digitized by Birzeit University Library

يتدحرج ببطء من مرتفع . اما الرجل ذو اللحية والعيون الزرقاء فلم يتحرك واستقبل الضابط بكلمات العتاب الحارة مشيرا الى الدم الذى يحيط به .

ـ بماذا تعلل هذا ، فكر ؟ ليس هنالك تعليـــلا !

ووقف الضابط امامه ورفع حاجبه بعلو ومد يده. لم يسمع صوت الطلقة. ولكن الجميع شاهد الدخان وقد لف حول يد القاتل مرة، مرتين، وثلاثة. وبعد اللفة الثالثة حنى الرجل قدميه وسقط الى الخلف ملوحا بيده اليمنى. وهجم الجميع من كل الجهات على القاتل الذى تراجع ملوحا بسيفه وموجها مسدسه نحو الجميع ... وسقط صبي تحت قدمي الضابط فما كان منه الا ان طعنه بسيفه في بطنه. وكان الضابط يصيح بصوت عال ويقفز في جميع الاتجاهات كحصان عنيد . ورمى احدهم بقبعته في وجهه وكانوا يرمونه بالحجارة والثلج الملطخ بالدم. وجرى نحوه العريف وعدد من الجنود مادين حرابهم الى الامام ـ عندها هرب المهاجمون. اما المنتصر فكان يهددهم بسيفه. وفجأة خفض سيفه ومرة ثانية طعن جسم الصبي الذى كان يسبح عند قدميه نازفا دمه .

وسمع اطلاق النار مرة ثانية. ونظف الناس الساحة بسرعة امام هذا الصوت. اما الصوت فكان يرن في الهواء مصورا عيون الجنود الفارغة وشجاعة الضابط ، وسيفه ذا الطرف الاحمر من اثر الدم وشواربه المشعثة ...

لقد كان لون الدم الحي الاحمر يثير العيون ويجذبها لنفسه مثيرا الرغبة النشوانة لرؤيته اكثر فاكثر ،لرؤيته في كل مكان. اما الجنود فكانهم انتبهوا وحركوا رقابهم باحثين بأعينهم عن اهداف حية لرصاصهم.

ووقف الضابط في طرف صف الجنود ملوحا بسيفه وكان يصيح شيئا ما بشكل متقطع حيواني وجوابا على ذلك علت الصيحات من كل جانب .

ـ جـلاد :

ـ سافـــل !

اما الضابط فبدأ بترتيب شواربه .

واطلق الرصاص مرة، واخرى ...

وكانت الشوارع محتشدة بالناس وكانها اكياس محشوة بالحبوب. لقد كان الاقلية من العمال،اما الفئة الغالبة فكانت من صغار التجار والموظفين. وبعضهم الان فقط رأى الدم والجثث اما الاخرون فكانوا من الشرطة. وكان الرجال والنساء والاحداث ينظرون كل الى الاخر بحذر ، ينتظرون .. كان يحدث احدهم الاخر عن القتل، كانوا يتأوهون ويشتمون ويسألون العمال ذوى الجراح الخفيفة وكانوا يخفضون اصواتهم حتى الهمس وتحدثوا كثيرا عن اشياء سرية. لا احد كان يفهم ماذا يجب ان يعمل، ولم يذهب احد الى بيته. كانوا يشعرون ويقدرون ان وراء هذه المذابح شيء هام اكثر عمقا واكثر مأساة لهم من مئات القتلى والجرحى الغريبين عنهم.

حتى هذا اليوم كانوا يعيشون بدون حساب وبتصورات غير واضحة عن السلطة والقانون والقيادة وعن حقوقهم. وعدم وضوح هذه التصورات لم يعقهم من ان يحيطوا الدماغ بشبكة وثيقة تغطي قشرته السميكة ـ وقد اعتاد الناس التفكير بأن هنالك قوة ما قادرة على حمايتهم ـ ان هنالك ـ قانون . وهذه العادة اعطتهم ثقة بالحماية واحاطتهم بالافكار المثيرة . لقد كانوا يعيشون بهذه

Digitized by Birzeit University Library

التصورات بشكل لا بأس به ، مع ان الحياة بعثرات الوخزات والخدوش واحيانا اللطمات القوية كانت تهز هذه التصورات الغامضة، الا انها يقيت قوية وحافظت على كليتها وبشكل سريع كانت تلتئم كل الخدوش والجروح التي تسببها الحياة.

اما اليوم فقد تعرى الدماغ وارتعش، اما الصدر فامتلأ بالخطر والبرد. وكل شيء كان قد اصبح عادة انقلب رأسا على عقب، تحطم واختفى . وبشكل اكثر او اقل وضوحا كانوا يشعرون انفسهم وحيدين بدون حام امام قوة الاستهتار والظلم التي لا تعرف الحقوق او القوانين . وكانت في ايدى هذه القوة حياة الناس وكانت تقدر ان تزرع الموت بدون حساب في كتلة الناس، قادرة على قتل الاحياء مثلما تريد وبقدر ما تريد، لا احد يقدر ان يوقفها ، ولا تريد الحديث مع احد.

كانت تملك كل السلطة وبهدوء تعرض قوتها وسلطتها وبشكل غير معقول تملأ الشوارع بالجثث والدماء. وكانت تلاحظ نزواتها الدموية الجنونية، هذه النزوات كانت تبعث الخطر والخوف في النفس. وفي نفس الوقت كان كل ذلك يحث الدماغ على ان يضع خططا جديدة لحماية الشخصية، وبنيان جديد لحماية الحياة .

ومر شخص قوى خافض الرأس يهز يديه الدامیتین، وكان معطفه من الامام غارقا بالدم.

– هل انت جرح ؟ – سألوه

– لا .

– والدم ؟

– انه ليس دمي :– اجابهم بدون ان يتوقف. وفجأة توقف ونظر حوله وتحدث بصوت عال بشكل غريب :

– انه ليس دمي ايها السادة.– انه دم اولئك الذين آمنوا !– وابتعد دون ان يكمل خافضا رأسه .

وهجمت فرقة من الخيالة ملوحة بسيوفها على الجمهور . وهربوا منهم الى كل الجهات مدافعين بعضهم بعضا ملتصقين بالحائط . وكان الجنود سكارى، يضحكون بدون معنى ويترنحون في السروج، واحيانا وكانهم لا يريدون يضربون بسيوفهم على الرؤوس والاكتاف . وسقط احد المصابين،بسرعة قفز واقفا على قدميه يسأل :

– لماذا ؟ اه ايها الوحش !.

وأمسك الجندى بندقيته عن كتفه بسرعة وأطلق عليه النار دون ان يصوب ودون ان يوقف الفرس. وسقط الرجل من جديد اما الجندى فكان يضحك .

– ماذا يفعلون ؟– صاح بخوف شخص محترم يلبس لباسا انيقا – ايها السادة ! هل ترون؟

وعلا ضجيج الاصوات بشكل غير منقطع. وفي آلام الخوف والخطر ولدت فكرة جديدة ببطء وبشكل غير ملاحظ وكانت منبعثة من الاموات .

وكان يوجد في الجمهور ايضا رجال سلام

– اسمحوا لي . لماذا شتم الجندى ؟

– لقد ضربه الجندى !

– كان يجب ان يبتعد !

وفي احد مداخل البيوت كانت امرأة وطالب يضمدون يد احد العمال الذى نظر حوله وتحدث للمحيطين به :

– لم يكن لدينا اية اهداف سرية، والذين يقولون ذلك هم الحقيرون ورجال المباحث. لقد سرنا علنا. وقد علم الوزراء لماذا نحن ذاهبون لان عندهم

Digitized by Birzeit University Library

نسخة من عريضتنا . لماذا لم يقل الحقيرون بأن ذلك ممنوع فلا تذهبوا . لقد كان لديهم الوقت الكافي ليخبرونا . الجميع كان يعلم ـ الشرطة والوزراء بأننا سنذهب. انهم قطاع طرق ...

ـ ماذا كانت مطالبكم ؟ سأل شيخ غطى الشيب رأسه، بجدية .

ـ مطالبنا بأن يقوم القيصر بدعوة ممثلين عن الشعب منتخبين من قبله وان يدير الامور معهم وليس مع موظفين . لقد افقروا روسيا قطاع الطرق .

ـ في الحقيقة فان المراقبة ضرورية إ ـ علق الشيخ .

وبعد ان ضمدوا الجرح انزلوا كم المعطف بحـــذر .

ـ شكرا ايها السادة إلقد قلت للرفاق بأننا عبثا نذهب، سوف لن نستفيد شيئا . لقد صح هذا الان .

ودس يده بحذر بين ازرار المعطف وذهب غير مسرع .

ـ هل تسمعون كيف يفكر هؤلاء إانه اخي

ـ اه نعم إولكن مثل هذه المذبحة ....

ـ اليوم ـ هو، وغدا يمكن ان يكون انا ...

ـ اه نعم ....

واحتد النقاش في مكان آخر .

ـ يمكن انه لا يعرف إ

ـ وفي هذه الحالة لماذا ـ " هو "؟

ولكن مثل هؤلاء الناس الذين كانوا يحاولون بعث الميت كانوا ندرة وغير ملاحظين. وقد اثاروا الغضب بمحاولاتهم بعث الخيال الميت . وهجموا عليهم كالاعداء فكانوا يهربون خائفين .

ومرت في الشارع بطارية مدفعية ، وكان الجنود يجلسون في المقدمة وينظرون عبر رؤوس الناس الى الامام. وانحسر الجمهور فاتحا لهم الطريق بصمت . وكانت المدافع موجهة الى الارض وكأنها تشمها . لقد كان هذا الموكب يذكر بالجنازة .

وسمع في مكان ما صوت اطلاق نار، وانصت الجمهور، وقال احدهم بصوت خافت:

ـ وايضا ا...

وفجأة ظهر في الشارع حيوية انتشرت بسرعة .

ـ اين ؟ اين ؟

ـ في الجزيرة ... في فاسيلوفسك .

ـ هل سمعتم ؟

ـ نعم وهل هذا صحيح ؟

ـ بشرفي إلقد استولوا على مخزن للسلاح .

ـ آه ... هـو .

ـ حطموا اعمدة التلغراف واقاموا المتاريس ..

ـ آه ـ نعم ـ هكـذا ؟

ـ هل عددهـم كثيـر إ

ـ كثيـــرا إ

ـ آه . ليتهم يثأرون للدم البرئ إ..

ـ لنذهب هنا ك إ

ـ ايفان ايفانوفتش ، اتذهب ها ؟

ـ نـــعم ـ هذا ، تعرف ...

وعلا فوق الجماهير جسم شخص داعيا في الظـلام :

ـ من يريدان يقاتل من اجل الحرية، من اجل الشعب، من اجل حق الانسان في العيش والعمل، فليذهب للمساعدة كل من يريد الموت من اجل المستقبل .

وذهب البعض نحوه، وتكون في وسط الشارع نواة من الاجسام . اما الاخرون فقد اسرعوا للاختفاء في مكان ما .

Digitized by Birzeit University Library

– هل ترون كم الشعب ثائر ؟
– انها ثورة قانونية .
– ستحدث اشياء جنونية ...لى – لى – لى

وذاب الناس في ظلام الليل وذهبوا الى بيوتهم حاملين معهم خطرا غير معروف واحساسا مخيفا بالوحدة، ووعيا نصف صاح عن دراما حياتهم. حياة العبيد عديمي الحقوق ... والاستعداد للتكيف السريع مع اى شيء مفيد ومريح .

وقطع الظلام العلاقة بين الناس – هذه العلاقة الضعيفة للاهتمام الخارجي . وكل من خلا صدره من النور ذهب الى زاويته المعتادة أظلمت ،ولكن لم تشعل الانوار ...

– الخيالة إصاح صوت مبحوح .

وظهر فجأة عند الزاوية فرقة صغيرة من الخيالة. ولثوان كانت الخيول تتخبط في مكانها . وفجأة اسرعت نحو الناس. كان الجنود يصيحون بشكل عجيب. كانت الاصوات لا انسانية. مظلمة، عمياء وغير مفهومة . وأصبح الناس والخيول في الظلام اصغر واكثر سوادا . كانت السيوف تلمع بشكل خافت، والضربات تسمع اكثر من الصيحات .

– ايها الرفاق إضربوهم بأى شيء إلدم بالدم – اضرب .
– اهرب إ...
– احذر ايها الجندى إفانا لست فلاحا !
– ايها الرفاق بالحجارة !

وسمع امر :

– فر...قة ...

وعزف البوق بشكل سريع وعصبي . هرب الناس دافعين بعضهم بعضا، ساقطين على الارض وخلا الشارع من الجميع. وفي نهاية الشارع فقط خلف المنعطف سمع خطم الخيل السريع الثقيل ...

– هل انت جريح . ايها الرفيق ؟
– يظهر انهم قطعوا اذني ..
– ماذا يمكن ان تفعل بأيد فارغة إ..

وتجاوب في الشارع المقفر صوت الطلقات

– لم يتعبوا بعد إالشياطين !

صمت وخطوات سريعة . لقد كان غريبا قلة الاصوات والحركة في الشارع . وكان يسمع الضجيج من كل مكان وكأن البحر قد غمر المدينة .

وفي الظلام سمعت انات منخفضة في مكان قريب... شخص ما هارب يتنفس بعناء وبشكل متقطع :

– ماذا ؟ مجروح ؟ يا كوف؟
– بسيطة، لا شيء إاجاب صوت مبحوح ،

ومن خلف المنعطف الذى اختفى وراءه الخيالة ظهر الجمهور من جديد وبشكل عارم يسير بعرض الشارع. وشخص يسير في المقدمة غير منفصل عن الجمهور يتحدث في الظلام :

– اليوم اخذوا منا ضريبة الدم – ومن الان يجب ان نكن مواطنين .

وقاطعه بعصبية صوت آخر :

– نعم لقد اظهروا انفسهم آباؤنا إ.

وقال آخر من المحيطين :

– لن ننسى هذا اليوم .

ساروا بسرعة في مجموعة واحدة، وتحدث كثيرون في نفس الوقت واندمجت الاصوات بشكل فوضوى في الضجيج المظلم. وفي بعض الاحيان كان يرفع احدهم صوته الى الصراخ ليغطي على الاخرين .

– كم عدد القتلى ؟
– لماذا ؟
– لا إلا يمكن ان ننسى هذا اليوم .

Digitized by Birzeit University Library

ومن جهة اخرى سمع صوت مبحوح كالبنوة يقول :

ـ تتسون . ايها العبيد إما عليكم ان الدم غريب ليس دمكم ؟

ـ اصمت يا باكوف !

وسار الناس في الظلام ينظرون الى جهة الصوت ويتمتمون .

وسقط على الشارع من نوافذ البيوت ضوء اصفر . وفي بقعة سقوطه عند عمود التلغراف كان شخصان ، احدهما يجلس على الارض ساندا ظهره الى العمود وانحنى الاخر يريد ان يرفعه . ومن جديد قال احدهما بغضب :

ـ عبيـــــد .....

Digitized by Birzeit University Library

التشكيليون الفلسطينيون يتجاوزون أرغفة الأشكال والمكان الموضعي في البحث

بقلم : بقلم علي الجريري

لا يمكن للفنان ايا كان شاعرا ، مغنيا او فنانا تشكيليا ان يحافظ على تحرره واستقلاله اذا ما انحرف نحو الموقف البراجماتي الذاتي .

اذ ان المتعامل مع فنه تعاملا تجاريا يخضعه لحساب السوق وقانون العرض والطلب والربح والخسارة ولذلك لايتمكن من توسيع دائرة تفكيره الفني ابعد من مستوى كسبه السريع مما يدفعه ليكون فنان بلاط ، وبوقا فنيا يوظفه وفق تلك المعطيات التجارية .

فيخرج امثال هؤلاء الشعراء والفنانين من صفوف شعبهم ليقفوا في صف اسيادهم لعجزهم عن مواصلة الطريق نتيجة ما اصابهم من عجز في زاوية الرؤية الفكرية حبيسة العلاقات التجاريـــة .

وعلى النقيض من هؤلاء يواكب العديد من الفنانين والشعراء والكتاب الالتزام بنهج شعبهم رغم كل المعوقات ، فيحافظون على سلامة موقفهم .

وضمن هذا الالتزام اقامت رابطة التشكليين الفلسطينيين معرضها السنوى هذا العام تحت شعار

في سبيل استمرار المسيرة التشكيلية الفلسطينيـــــة .

هذا الشعار لم يأت من فراغ بل يعكس خوف وحرص هؤلاء الفنانين على حركتهم التشكيلية التي عبرت خلال مسيرتها القاسية عن مجمل طموحات هذا الشعب وكافحت معه، ومن اجله تعرضت لما تعرضت له المؤسسات النقابية والشعبية الاخرى للشراء والتجيير والانشقاق بغية حرف هذه المسيرة عن طريقها

وقد نجح الفنانون التشكيليون الفلسطينيون بانجاز معرضهم هذا بنجاح متميز شارك فيه

Digitized by Birzeit University Library

.اربعـــون فنانا وفنانة من الضفة الغربية وقطاع غزة ولجنة اعمار المسجد الاقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة وقسم الاثار الاسلامية.

وتنوعت وتعددت اساليبهم الفنية في هذه الاعمال من اعمال الرسم بالزيت والكاريكاتير والبورتريد والزينكوغراف والاعمال القشية والفسيفساء والخطوط التشكيلية "والبوستر" الملصق .

واستخدم الفنانون مناهج متعددة ومذاهب متنوعة من الواقعية حتى السريالية كما في لوحات "تكوين" لعصام حلس وعلي الاشهـب .

ويعود سبب تعدد تلك المذاهب الى تعدد الوظائف الفنية لديهم ، في اشباع رغبة او حاجة في ذات الفنان او بين الفنان وذاته او بين المبدع ومحيطه وعالمه الكامل اوبين الخلق الفني والواقع الحالي .

الى التعبير عن الواقع بعد تنقيته من جراثيم الثقافة المشوّهة لتاريـــخ انساننا الفلسطينـــي .

والتعبير عن الذات المبدعة بجماعيتها وفرديتها بخصوصيتها وتكاملهـا .

كل ذلك ظهر من خلال الافاق والتطلعات الواسعة لهذه الاعمال التشكيلية وهذا الانسجام المجتمع في العمل الفني .

انها آمال والام هذا الانسجام المتشكل في الكل والتي تعبر عن الحي والرائحة والصورة والشكل والعمق الانساني في العمل التشكيلي .

كتّاب التراث والادب يصوّرون الواقع بكلمات نقرأها ونردّدها حسب فهمنا واستيعابنا لها واستخراجنا لواقعيتها وامكانية توظيفها .

ولكن الفنان التشكيلي المبدع يصوغ عالما متكاملا . بشكله بريشته وادواته ، ويسخّر كل شيء، نعم كل شيء يراه مناسبا .

من الخيط الصغير حتى قصاصات الجرائد والحروف والكلمات والادوات والالوان والخطوط ،والتاريخ والجغرافيا والنحاس والهندسة ، وعلم الفلك والتراث والحكايات الجنية والاساطير الدينية وكل مالها علاقة بالانسان وانسانيته والارض وقضيتها المركزية كما تميز ذلك في لوحات كريم دباح الذي برزت لوحاته النحاسية بشكل رائع .

وفي لوحة الزبيدي في رصد حركة الكفاح اليومية لشعبنا وهذا الرصد يوظف الوثائقية لصالح التقنية التشكيلية ، انه عالم تشكيلي شعبي متكامل لصق القاع والذي بدى اكثر تمسكا بارضه وشعبه من خلال لوحاته التراثية .

ففي لوحة سنابل لبائع الجرائد "فتحي غبن" عضو الهيئة الادارية للرابطة هذا الفنان الاصيل اصالة هذه الارض ، تثمر باحتفال فلاحي يقام بذكرى يوم الارض احتفال هادئ مليء بالحركة والعطاء الفلاحون وادواتهم وتراثهم الحياتي الخوابي والمناجل وسنابل القمح وتراب الوطـــــن .

والفنان عصام حلس في "لمبة كاز" جعلني اغض الطرف عن تقنية عمله الفني الى واقعيته التي يصور فيها عصامية الانسان الفلسطيني المتعطش للعلم والمعرفة رغم قساوة هذا العصر وظلمـــه .

Digitized by Birzeit University Library

غير ان لوحة تكوين جميلة ورائعةمن الناحية التشكيلية ولكني اخذ على مبدعها السريالية الغامضة، صحيح انه اجبرني على الوقوف امامها اكثر من غيرها لكني لم اخرج منها بنتيجة اوبحصيلة معرفية فنية تذوقية اكثر من غيرهـــا .

ولهذا كان خاصا جدا بها، وهو ما يجب الانتباه اليه والتخلي عن هذاالمنحى الفني لصالح المدرسة الواقعية الشعبية لان الاتجاهات الخاصة لا تتفق مع ما طرحته الرابطة في مذكرتها الموزعة عن هذا المعرض من ضرورة تسخير الفن والابداع لغرض النضال من اجل وطن حر وشعب سعيد،والجمع بين الفن والحياة الواقعية ومتابعة مجريات الاحداث العالمية ، الامر التيعكسته الاعمال لمجملها في تكاملها وتمكنت اعمالهم من تحويل تشكيلاتهم الى وسائل وادوات مستنهضة للتقدم والوعي ومحرضة طبقيا ووطنيا وانسانيا .

وشكلت اعمالهم جمهرة من الرسائل الفنية الجامعة لظواهر حياة مجتمعهم وشخصيتهم التقدمية المتميزة، والتي ظهرت في التحليل الواعي لتلك الظواهر والفهم العميق متجاوزة ارغفة الاشكال والمسكن الموضوعي في البحث الفنـــي .

فالفنانون الغزيون (غزة) ابدعوا في تصوير الحياة التراثية المكافحة ضد طمسها وقد ظهر ذلك في اللوحات والاعمال القشية التراثية لكل من، زيدان النعيزي، سعيد عياش، بشير ابو حصيرة ، علي الاشهب ، لمياء عبود ، عيسى عبده ، هاشم كلوب ، سمير ظاهر، محمد العاوور، فتحي فحجان وابراهيم المزين .

وظهر الطابع الاسلامي الزخرفي في الاعمال المقدسية ـ القدس ـ حيث ظهرت الملامح الهادئة بعيدا عن التعفن كلوحات خليل ابو عرفة، وحاتم ابو رجب وحاتم ابو سيد ويمكن قراءة قصيدة كاملة في كل لوحة من لوحات قاسم منصور،وظهر العمل الفسيفسائي والفني الاسلامي العربي " ارابسك" والخط العربي بجمالية متميزة في اعمال لجنة اعمار المسجد الاقصى وقسم الاثار فيه .

ومن رام الله والخليـــل :

ظهرت مجموعةمن التشكيليين بحضورفني متقدم امثال لوحات حسام ناصر ونادر الحذوة ووليد حمودة وخالد الحوراني .

كما سجل هذا العمل حضورا فنيا متميزا وتقدما سريعا فاق عروضه السابقة بشكل مقروء وملموس، وقد تمثل هذا الحضور المتميز وذلك التقدم السريع فيما اشرت اليه في هذه المقالة النقديـــة .

أضف الى ذلك . الحشد الفني لابرز الفنانين التشكيليين ممن شاركوافي المعارض السابقة وظهور اعمال تشكيلية جديدة بتعابير فنية حديثة ومتنوعة لاول مرة .

كما عند دباح وفتحي غبن ، ومنصور، والزبيدى . وحضور جديد لفنانين شباب يخطون بخطوات واثقة وجريئة .

وفي الحضور الشعبي والحياتي للمساهمات التشكيلية فالتراث وقضايا الارض والانسان مسائل مشتركة اتفقت وتكاملت معها الاعمال المعروضة ، فما من لوحة الا وعالجت جانبا واضحا من قضايا الارض والانسان فاما ان تعكس جانبا من جوانب الاضطهاد والملاحقة

Digitized by Birzeit University Library

اليومية اوفي النمو الحياتي المعاكس كرد فعل ثورى ضد القتل والسحق القومي . والتأكيد على الهوية المستقلة في مواجهة مصادرتها وهو ما برز في لوحات الملاحقة اليومية والعطاء اليومي المعاكس كما في لوحة الزبيدى ولوحة كريم دباح في رصد اعمال لجنة الاغاثة الطبية والتي وظفت الوثائقية في التقنية التشكيلية الى جانب واقعيتها وتجاوزها لارغفة الاشكال والمسكن الموضعي في البحث .

هذا الحضور الفني المتقدم تم تحقيقه في ظروف متزاحمةورغم ذلك اكد الشخصية التشكيلية الفلسطينية التي فرضت حضورها واكدت ذاتها التشكيلية بالحركة الدافئة النشطة والالوان الحارة الملتهبة ، وباشخاصهم ذات الخصوصية المتميزة في مجمل لوحات المعرض .

وعبر النجاح المتقدم لهذا المعرض عن ذاته في حضور جمهور واسع من الادباء والكتاب والفنانيين والعمال والطلاب وعلى مختلف المشارب ،الامر الذى لم اشهده خلال زيارتي للمعارض السابقة الى جانب ما تثيره لوحات المعرض من توشيحات نادرة تأخذ جماليتها من القصائد الموشاة في عدد من اللوحات

ويقدم لنا بنفس تقدمي معاصر الخط العربي كمحور تشكيلي في العديد من اللوحات مما يدلل على مقدرة هذا الخط الجمالية في تشكيلات فنية متميزة تجمع المعاصرة والروحانيات، مستوحية الماضي بثوب جديد وعلى اهمية الحرف العربي في الابداعات التشكيلية .

وخاتمة القول :

انني احسد المشاركين في هذا المعرض على امريـــن :

الاول : حضورهم الفني المتميز والمتقدم والناجـــح .

والثاني : انهم عبروا بلوحاتهم عن كل ما في احاسيسهم فكانت ابداعاتهم متحررة من قلم الرقيب والمراقب وهو الذى لا يتوفر لنا نحن النقاد والكتاب والشعراء فلا نستطيع ان نكتب بتلك الحرية التي يشكلون فيها ، فكل لوحة تشكل حكاية شعبية او قصة ادبية او ملحمة بطولية ، وتزخر بالاحتجاج والمواجهـــة .

واخيرا اتمنى للفنانـين المشاركين مزيدا من الخلق والابداع الفني المتقدم في رسم هوية الفن التشكيلي الفلسطيني المتميز .

Digitized by Birzeit University Library

قراءة في نماذج أغاني الثمانينات

بقلم : هيفاء السباسي وصافي صافي

تمهيد :

ان هذه الدراسة هدفها القاء الضوء على الاغاني الواسعة الانتشار في هذه الحقبة من تطور شعوبنا العربية وانظمتها كذلك ، هذه الاغاني التي يستخفها الكثيرون ومع ذلك يرددونها ، وليس القصد من هذه الدراسة الوقوف بجانبها والدفاع عنها ، كما لا نقصد اخفاء ايجابيات بعضها ، بقدر ما نريد القاء الضوء عليها ضمن التطور التاريخي لهذه المنطقة ، واذا كان انتشا رهذه الاغاني يختلف درجته من قطر عربي لاخر تبعا للظروف الخاصة الثقافة الشعبية الخاصة ايضا لهذا الشعب او سواه فاننا سنحاول التركيز هنا على شعبنا وعلى ارض هذا الوطن ، وحتى لا نقع كغيرنا في مطب التصنيف الغنائي ، فاننا رغم اعترافنا بشيوع هذه الاغاني بشكل كبير وترددها على السن اجيال ما تحت الاربعين ، الا انها ــ الاغاني ــ ليست شعبية بما يعني ذلك ارتباطا بالاغاني التراثية ، واخيرا فان هذه الدراسة ستتطرق لمضمون الكلمة بشكل اساسي رغم ان ذلك هو احد جوانب تقييم الاغنيـــة .

لماذا الكلمـــة :ــ

في النقاش الذى استمر لفترة طويلة في اتحاد الفنانيين المصريين دفاعا عن انفسهم في مواجهة " ثورة الكاسيت " اعتمدوا في ذلك على الكلمة ومضمونها (انظر ادب ونقد : ٣٤،٥٤) ،

Digitized by Birzeit University Library

ان الكلمة لا تعتبر فقط احدى اضلع المثلث المتساوى الاضلاع في الاغنية (الكلمة ـ اللحن ـ الصوت) انها قاعدة هذا الشكل الهندسي الذي يبنى عليه اللحن والصوت ليصبح اغنية ، واذا كنا نعترف بدور اللحن ووحدة الموسيقى) في دفع عجلة المجتمع الى الامام كالسمفونيات مثلا فان الكلمة في الاغنية ، هي شكل اكثر وضوحا ومباشرة لدفع المجتمع للتغير ، واذا كنا نرى ايضا بأن المجتمع كمراحل تاريخية وعلى المدى الطويل لا يمكن ان يعود الى الوراء ، فان في داخل هذا المجتمع تحركات وتموجات يمكن ان ترجعه سنوات عدة الى الوراء ليندفع بعدها الى الامام اكثر اصرارا ومعرفة ووعيا من السابق ، فلذلك فان التغيير ليس بالضرورة ، ان يكون تقدميا .

وهـل الثمانينـات مرحلـة ؟

بالمعنى الحرفي لا ، فهذه المرحلة التي سنناقش ابعادها السياسية والاقتصادية وارتباط ذلك بالثقافة السائدة وانعكاسه ايضا على الثقافة التحتية لمجموع الشعوب العربية والشعب الفلسطيني خاصة في الارض المحتلة لم تبدأ من اليوم الاول لهذا العقد ، كما وليس بالضرورة ان تكون نهايتها مع بداية العقد المقبل ، لكن اذا كان باستطاعتنا ان نقول اننا نعيش مرحلة ، فلا بد لنا ان نبين المرحلة الاخرى التي سبقتها ورؤيتنا للمرحلة القادمـة .

نستطيع ان نتلمس مرحلتين سابقتين على الوقت الحالي (لا يعني ذلك انه لم يكن هناك مراحل قبلها) ، الاولى بدأت في الخمسينات ، مرحلة صعود البرجوازيات العربية للسلطة وعلى رأسها البرجوازية المصرية حين استكملت حلقتها الثانية بحركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ (لم يبدأ هذا الصعود مرة واحدة ولا بنفس الوقت في بقية الاقطار العربية ، ففي العراق وسوريا وصلت البرجوازيات للسلطة في مرحلة متأخرة عن المصرية) ، اتسمت هذه المرحلة بصدام عنيف احيانا مع الامبريالية ، اذ كانت هذه تنوى خلق اقتصاد مستقل لها لتنفرد بالسوق دون ان تظل في شباك التبعية للسوق الرأسمالي بشكل ذليل (كما الاردن الان) ، واعتمد في ذلك على تحالفات تكتيكية مع البرجوازية الصغيرة وما بينهما واطلقت شعارات تقدمية بشكل ديماغوجي كالاشتراكية والوحدة والحرية ، ولقد تبلورت التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية في البلدان العربية ضمن مستويات مختلفة من التطور في ظل السيطرة الامبريالية ، وقد استطاعت البرجوازيات العربية في عدد من البلدان العربية ان تنتزع لنفسها في البداية مكانا في اطار السوق القومي ، ولكنها لم تستطع مع ذلك الافلات من اشكال التبعية الامبريالية ، فنمت على هامش السوق الامبريالية ينازعها داخل اسواق سوقها القومي الرأسمال الاحتكاري الاجنبي ، ولم يكن ذلك الوجود المباشر (للرأسمال الاحتكاري الامبريالي) عوضا عن الروابط الشاملة التي تربط مجمل السوق القومي ، بعملية الانتاج الرأسمالي العالمية في اطار الهيمنة الامبريالية وتقسيم العمل الدولي ، ولقد تفاوتت في مختلف البلدان العربية اشكال الوجود المباشر للرأسمال الاحتكاري الامبريالي ، وكذلك اشكال الروابط المختلفة والحلقات التي تحكم ربط البرجوازيات بالامبريالية العالمية ، الا ان حرب الايام الستة جاءت لتسرع من السير نحوها ، فبدأت بعدها مرحلة الهبوط والسقوط في هذا المستنقع بشكل متفاوت

Digitized by Birzeit University Library

وبطيء ، بدأه النظام المصرية بالغاء القطاع العام والانفتاح الاقتصادي وانتهى باتفاقية كامب ديفيد ،ومن هنا ساد الانقسام في "وحدة الموقف" ، ومبدأ التراجع لدىهذه الانظمة، عقبها الاجتياح الاسرائيلي للبنان الذى كان من اهم نتائجه خروج الفلسطينيين كقوة مسلحة من اجزاء كبيرة من لبنان، عقبها مذبحة صبرا وشاتيلا، فالمواجهة المسلحة بين الاطراف الفلسطينية، معارك نهر البارد والبداوى والخروجمن طرابلس، فاتفاقية عمان التي عمقت اليأس والاحباط لدى سكّان الارض المحتلة وزادت من النفوذ الاردني فيها ، ثم ما تبع ذلك من مبادرات وتسويات وتحركات .

لقد كان لهذه التطورات السياسية والاقتصادية في العالم العربي التأثير الكبير على الثقافة السائدة من بينها الفنون ، فالثقافة السائدة هي امتداد لهذه التطورات ، هي امتداد للظروف الاقتصادية والسياسية بالشكل المكثف ، ومن هنا جاءت الاغاني انعكاس للتطورات السياسية المختلفة ، فاذا كان "سيد درويش" قد مثل رغبة العرب بالاستقلال وطرد المستعمرين ، فان مرحلة صعود البرجوازية مثلها في ذلك الحين " عبد الحليم حافظ و " فايدة كامل" ، وفي حالة شبه الاستقرار تلك ظهر " عمالقة الفن" المصريين وهيمنتهم على السوق الفني (ام كلثوم ، عبدالحليم حافظ، فريد الاطرش، محمد عبدالوهاب، رياض السنباطي، زكريا احمد، بيرم التونسي ...الخ) في هذه المرحلة سادت ظاهرة الاغنية الطويلة، الخيال الواسع في الكلمات ، واللحن العربي الاصيل .

وفي المرحلة الثانية، مرحلة السقوط، حين بدأت هذه البرجوازيات تتخلى عن شعاراتها التقدمية الشكل وشقت طريقها للارتباط العلني بالسوق الامبريالي بعد ما حققت اقتصادا مستقلا نسبيا، ظهرت " ثورة الكاسيت" كردة فعل عكسية على هذا الانحدار، تلك الاغاني التي شقت طريقها بين صفوف الطبقات التحتية متحدية الثقافةالحكومية السائدة بوسائل اعلامها المتعددة، هذه الثورة جاءت من تحت، فيها ما نقل الثقافة التحتيةهذه الى اوساط اخرى، ومنهاماعبرعن مصالح هذه الطبقات والحركات الوطنية في العالمالعربي وارتباطها بالنضال العالمي، منها ماكان ثورة بالشكل مثل احمد عدوية، فبدل اللحن الهادئ جاء هادرا ،قويا وسريعا، وبدل طولها الذى كان يصل لاكثر من ساعة جاء قصيرا ولبضعة دقائق، وبدل الكلمات الفصحى والصعبة جاء سهلا حفظه ومباشرا ، بمعني آخر تمرد على الشكل، جاء ليحفظ الصغير قبل الكبير، ومنها ما جاء ثورة في المضمون والشكل معا، معبرا عن مصالح الطبقات الفقيرة في بلادنا ومتساوقامع التحدى المفروض على الحركات الوطنية العربية كالشيخ امام ، مارسيل خليفة ، احمد قعبور وغيرهم ، وضمن هذه الفترة والسياق ظهر اول جيل شباب متمرد .

الا ان هذه المرحلة لم تدم طويلا ، اذ كان لا بد للانظمة العربية ان تزيد قمعها للحركات الوطنية لترتيب اوضاعها الداخلية بما يتلائم والمرحلة الجديدة، مرحلة الارتباط العلني بالامبريالية وبسوقها ، وبتراجع الحركات الوطنية وعلى رأسها الفلسطينية كرأس حربة ، تراجعت هذه الاغاني ايضا الى الوراء ، وتقدمت عليها الاغاني الحالية، الاغاني الخفيفة الخالية في معظمها من المضامين التقدمية ،تراجعت امام الاغاني السطحية في عصر الاذاعة والتلفزيون والفيديو والانتاج الرأسمالي الثقافي الواسع والمدروس، بلجاءت ليست متساوقة فقط مع هذه

Digitized by Birzeit University Library

المرحلة بل مقلدة له ايضا، كنقل اللحن الغربي وتعريبه بالكلمات، والغناء كمجموعات، وان ابسط دليل على ازمتهم ايضا وسطحيتهم " الاجترار" الغنائي للاغاني القديمة، برز العديد من المغنين يصعب علينا عدهم، امثال: عازر حبيب، سامي كلارك، فؤاد غازي، سلوى قطريب، فرقة الفورام ،داليدا رحمة، مروان حسام الدين وغيرهم كثير .

ان هذه الاغاني لم تأت كتغيير عن طموح الشعوب العربية بالحرية والديموقراطية والاستقلال الحقيقي، بل معبرة عن متطلبات السوق الذى تدعمت اسسه الرأسمالية عميقا في مجتمعاتنا، جاءت لتزرع فيه الاحباط والتأزم واليأس كل يوم، جاءت لتبعده تماما عن المشاكل اليومية التي يعاني منها، هي حاولت وما زالت تحاول ان تلهيه وتبعده عن التصدى للخطوات الاستسلامية التي تجرى على قدم وساق تقوم ببطولتها الانظمة العربية، واذا كان صعبا من الناحية الاقتصادية والنفسية ان يذهب كل منا الى ملهى يقضي ليله ناسيا مشاكل العمل والخنق الاقتصادى والسياسي، فقد جعلت هذه الانظمة بخلقها او سماحها لهذه الاغاني ان تبرز ملهى كبيرا لنا في البيت، في الشارع وفي العمل .

ان الحدود ليست فاصلة تماما بين المراحل الثلاث التي ناقشناها معا، فهي متداخلة ومترابطة الى حد كبير، بل وان كل مرحلة ولدت التي تليها، فمثلا وقبل ما يزيد على عشرين سنة ظهر نوع من الاغاني الخفيفة، المتمردة في الشكل مثل " فهد بلان" و" سميرة توفيق" الا انهم في تلك المرحلة لم يمثلوا الظاهرة ، صحيح انهم لاقوا جمهورا استقبله وردد اغانيهم، الا ان هذه الاغاني بقيت في القاع ولم تطفو على السطح في وقت طفت فيه اغاني ام كلثوم وعبد الحليم وفريد الاطرش، كما وان المرحلة الثانية لا تعني بأن الاغاني الطويلة قد انتهت والى الابد، فأغاني وردة الجزائرية ، فايزة احمد، نجاة الصغيرة وميادة الحناوى ايضا كان لها سوقها وجمهورها، الا انها تراجعت ولم تعد الظاهرة في زمن التحدى المفروض على الحركات الوطنية، وكذلك فان "الاغاني الظاهرة في المرحلتين السابقتين لم تعد كذلك امام ظاهرة اغاني الثمانينات ".

ولكن لماذا كان جمهور هذه الاغاني ايضا من جيل الشباب هنا في الارض المحتلة؟ ان الترابط لشديد، ولا يمكن انكار تأثير التغيرات في اى من الانظمة العربية سلبا اوايجابا على سكان الارض المحتلة، فاذا كانت مشكلتهم هي لب الصراع في الشرق الاوسط، فانه لا يمكن القفز على كل الاوضاع المحيطة والمؤثرة في حركتهم ايضا كما يؤثرون هم كذلك ، لكن هذه المرحلة اصابتهم باليأس والاحباط والتأزم، اذ ان مرحلة الصعود وتلاقي جمهورا واسعا من الشعب للالتفاف حول مطالبهم المعيشية والسياسية ، لكن مرحلة الهبوط والسقوط لا تلاقي سوى شديدى اليأس، الاكثر تحملا ووعيا، والاكثر اصرارا على تحقيق اهدافهم ، من هنا جاء رد الفعل السلبي لدى جيل الشباب نتيجة الضغوطات النفسية والاقتصادية والسياسية ضمن الواقع المعاش، واذا كان الكبت السياسي والاقتصادى يصعب التعبير عنه، فقد جاءت هذه الاغاني متنفسا للكبت الجنسي والاجتماعي

ان الاحباطات المتتالية نتيجة الضغوطات التي نوهنا لها ارادت بها الانظمة العربية ان تصنع الانسان العربي والفلسطيني خاصة ضمن نمط معين و"برمجة" بحيث يعيش في خيال ، تخدير

Digitized by Birzeit University Library

وتصور للاحلام الجميلة البعيدة عن الواقع وذلك لتغطية هذا العفن (عفن الانظمة) لمزيدمن الاستغلال وتمرير المخططات المرسومة من قبلهـــا .

مـــا شكلهـــا ؟:

هذه الاغاني جاءت خفيفة، توقفك ايقاعتها السريعة الحلوة، تدغدغ عواطفك كلماتها ، تلمسها ، تمسك بك وتجرك نحوها ، نحو لا شيء ، تحاول ان توهمك بأنها تحل لك عقدك النفسية ،تضحكك تارة وتحاول ان تبكيك تارة اخرى ، تقول كما قال "محمد عبدالوهاب" من قبل :

انســى الدنيـا وريـح بالـــك اوع تفكـر باللـي جـرى لـــك

واذا كان عبدالوهاب قد قالها بشكل مباشر الا ان هذه الاغاني تأتيك بشكل اكثر خطورة، تحاول ان تمتصك كما الاسفنجة لتخنقك بعدها ، تلهيك في مشاكل تافهة لا تعنيك اصلا ، وبشكل جذاب تردد عليك كلمات ليس لهـا معنى وكأنها هي الاغنية مثل "آه آه آه .. الخ ، " لا لا لا ... الخ" ايوى ايوى ...الخ".

مـــا معنـــى الحيـــاة ومـــا مهامنـــا ؟

ها هو " سامي كلارك" يختصر لنا الحياة بالرقص والغناء ليل نهار، فيكفيه ان يراها ترقص معه " على الواحدة ونص" وشعرها يميل على خصرهـــا :

قومـي تانرقـــص يـــا صبيـــة واشبكـي ايديكـي بايديـــي
خلينـــا علـــى بكـــره نرقـص ونغنـي يـا صبيـــة
قومي قومي قومي على الواحدة ونـص وقلبـي طايـر فيـك وعـم بيغـص
شعـرك الطويـل علـى خصرك يميـل لاحطـك فـي قلبـي وعينـــي

أما "سلوى قطريب" فتدعو الناس للضحك ونسيان كـل الهموم ، انها تستغرب" التلبك" عندهم ، فهي ترى حلو الايام بينما لا ترى مرهـا :

اضحـــك للدنيـــا حاجـة بأمـرك تتلبـــك
اضحـــك وغنـــي وشيـل همومـك عـن قلبـك
اسمـــع منـــي خلـي البسمة تمحـل عنـــك
الدنيـا حلـــوة اضحـــك وغنـــي كـل الدنيـا بتضحكـــك

وأما فرقة " الفورام " فيدعوننا ان نكون مثلهم مغنواتيـة :

مغنواتـــي سفـــر يومـاتـــي
سهـــر ليلاتـــي اشكـــي آهاتـــي

و"وليد توفيق يتمنى ان يكون بحارا في بحر العيون :

Digitized by Birzeit University Library

اتمنى يا حلوة اكون يار يت اكون
بحار في بحر العيون آه من العيون

وقد يسأل سائل، وهل هناك احد ضد الضحك والغناء والرقص والفرح؟ بالطبع لا، هذا اذا اخذنا الكلمات السابقة وغيرها بالمعنى المجرد وعزلها عن كلمات الاغنية الاخرى، عزلها عن المعاني السخيفة والافكار السطحية التي طرحوها والتي سنناقشها فيما بعد .

وهل عكسوا جزءا من العلاقات الرأسمالية ؟:

نعم، فهم وان حاولوا لا يستطيعون القفز عنها، ولا يستطيعون الا الاشارة الى الانقسام في مجتمعاتنا العربية، هذا الانقسام الذى يصل في مرحلته النهائية للشخص الفرد، يرى كل شيء ولا يحسن التعامل معه، فهذه الاغاني تحاول ايضا ان توهمنا بان المشاكل الخاصة يمكن حلها بشكل فردى ومجرد دون ربطها بالمشاكل الاخرى، وهذا الانقسام الذى نوهنا له بان في اغانيهم، قسامي كلارك" لا يريد علاقات اجتماعية باهله او اهلها :

سيرة اهلك ما بدى ولا سيرة اهلي ما بدى
بدى اياك تنسى الكل وتظلي انت حدى

هؤلاء ان طرحوا جزءا من العلاقات الرأسمالية فانهم لا يحلون للحل، بل يريدون الهرب من هذه الحياة باللهو والسكر، فها هي " عائلة بندلي" تعبر عن رد فعل عكسي وروح انهزامية لدى المواطن ولدى الانسان العربي الذى يمارس ضده كل انواع الاحباطات يجد نفسه غير قادر على ان يدافع عن ذاته، هذا النمط جاء كردة فعل "للذات الانسانية"، هذه الذات المهددة فكريا، اجتماعيا، اقتصاديا وسياسيا، وتقوم الانظمة العربية بجعله ـ الانسان ـ يعيش في حالة من عدم القدرة على التصدى او المواجهة الحقيقية وبالتالي يكون الهروب التجنبي هو رد الفعل، فاغنية "عائلة بندلي" تواجه الحياة " بالسلطنة"، يا له من حل !!!:

دورها دوّر دوّر واعطيني شحطة
قبل ما تيجي نيجي تيجينا الشرطة
ما بدى اصحى اصحى
قاسي والزمن قاسي طابت الفرحة

وردا على " المعيشة" الملعونة، يقرقون اللغة العربية، باحثين عن اخرى :

طيّر في طيّر طيّر تانحكي صيني
مش شان شو وميشان شي
يلعن هالعيشة

وهم هنا لا يقصدون الصين لما تمثله من علاقات اجتماعية واقتصادية، بل الهروب، "فجوزيف

Digitized by Birzeit University Library

صقر" يدعونا لتكلم الانجليزية والهرب لبريطانيا :

اسمع اسمع يا رضى ... كل شي عم يغلى ويزيد
امبارح كنا على الحديد ... وهلا صرنا على الحديد
تعلم لغة اجنبية ... هيدا العربي ما بيفيد
دور لندن من عشية ... ميرى بتهجي وبتعيد
وير از ميرى يا رضى

والعلاقات الرأسمالية لا يمكن ان تتضح فقط من خلال اظهار الجوع مما يبرز ذلك " جوزيف صقر " :

امبارح أكلنا لما شبعنا ... حطينا كل اللي كانوا معنا
رجعنا على بكرة رجعنا جعنا ... لازم ناكل عن جديد

بل بكل ما يرتبط بذلك من تفسخ في المجتمع وشك وريبة وانقسام وغيرة وصراع داخلي عنيف ينفجر في لحظة ليقول كل ما يحس به ، وبالشكل المجرد طبعا ، وهو صراع ايضا ما بين العلاقات ما قبل الرأسمالية المحافظة والعلاقات الرأسمالية نفسها :

ما بقدر خبي عليك ... بغارمن رموش عينيك
كل ما مشيتي على درب ... كل مار قصتي مع شاب
غضب عني مش بايدى ... قلبي بيدعي عليك
جربت كثيرا اتعود ... طنش عنك شوى
ابرم وامشي كل ما رقصتي ... لكن عبث ما فيي
كل مرة بقلك خليكي ... ابقي حدى بالسهرة
حتى ما حدى يطلع ... ويسرق منك نظرة
بنظراتك يا حنونة

كل مرة بقول هالمرة ... وراح تخلص المشاكل
لكن عينيك تتفاخر ... بتغازل طالع نازل
مش عارف الحقيقة ... يمكن انت بريئة

اما عن حالة الضياع ، حالة عدم الاستقرار والاغراءات المتاحة امام الفتيات لتقرر بمن ترتبط وتتركه باحثة عن واحد آخر ، فبالفلوس يشترى كل شيء ويباع كل شيء ولا مكان للشرف هنا يقول "سامي كلارك" معاتبا :

هيك عملتي هيك يا لطيفة ... تركتيني ورحتي معه خطيفة
كيف نسيت الليلات ... كيف نسيتي السهرات
ما انت بتحبيني يا لطيفة ؟
رحتي وتركتني ... وعلي كذبتي
ما عدتي اسالتي ... على الايام
ورحتي اتجوزتي ... ما ادرى وين صرتي

Digitized by Birzeit University Library

وبعدتي بعدتي وسط الاحلام

أما "عازر حبيب" فيتباكى على محبوبته التي بيعت (بالطبع كسلعة) لغيره :

خطبوها خطبوها وبالجواهر شتشلوها
علموها تحب غيرى وقلب غيرى سلموها
علموها تجافيني تنسى اشواقي وحنيني
وصلوها للمدينة وبالهدايا حملوها

ما المشاكل التي طرحت ؟:

ان معظم المشاكل التي طرحت تتعلق بالجنس الاخر ، عيون الصبية " جرحته" ، ايهما يختار الشقراء ام السمراء ، الاقارب يقفون عقبة في طريقهم وكذلك المجتمع ،الحبيبة تترك حبيبها دون سبب مقنع ، الحبيب لا يستطيع الاقدام على الاعلان الرسمي والعلني للعلاقة لعدم وجود المال ، الحبيبة تسافر دون ان تودعه ، السهر الدائم لان حب" مروان" ظلمها ، لم يأت احدهم للموعد ،اى لون تختار فستانا يناسبها وغيرها كثير ، هو " ادونيس عقل" يوصي الخياط ان يفصل لبنات الحي ملابس حلوة :

يا خياط الفساتين الصبايا لعندك جايين
فرجيهن على الموديلات فصل على ذوق الحلوين
صبايا الحي حبابي كلهن بعدهن غرابي
خيط دخلك لريما تنورة على حسابي
اصحك تنسى التنورة خليها تطلع حلوة
بدى ما في منها لا في الهند ولا في الصين

وفي اغنية اخرى :

قالتلي شو بيلبقلي الازرق او زهر الرمان
حتى عيونك تشاقلي بلبسلك ايا فستان
قلتلها القالب غالب بيلبقلك ايا فستان

ما احلى الفستان الازرق على خصرك زاهي ومواج
ان شافوا البحر الازرق صار يحلم بامواج امواج
لونه فرحان احلى الالوان
نجمة نيسان بيلبقلك ايا فستان

الحبيب يسافر دون وداع :

ما ودعوني ما شافوا عيوني
راحوا راحوا وحدى خلوني

Digitized by Birzeit University Library

وحالـــة الضيـاع والتيه :

لا تسألينـــي شـــوصـــار ... تايـــة فيـــك ليـل نهـــار
لأنـــي شايـــف ولا ختيـــار ... يـــا حلـــوة شوفـــي حالـــي

ومعاتبة الحبيبة لانها تركته ونستـــه :

هيـــك هيـــك بتروحـــي يـــا نـــوره ... هيـــك هيـــك بتنسينـــا يـــا نـــورة
نسيتـــي الليـــل وسهـــر الليـــل ... نحكـــي ونرقـــص كـــل الليـــل
كيـــف نسيتـــي قلبينـــا شـــو دق ... وانـــت تقوليلـــي دخلـــك راح طـــق
حتى تبقى حدى وحبـــك مثل مـــا بـــدى ... وفجـــأة ـ حتـــى ومـــا سألتـــي يـــا نورة

هذا ورغم ان معظم الاغاني قد طرحت امورا سطحية ، وكانت هي الظاهرة، وهي التي طفت على السطح، الا ان هناك اغان اخرى طرحت الواقع المعاش بمشكلاته، كالغلاء الفاحش، وحالة الضياع التي يعيشها الانسان مما يدفع به للهروب الى واقع آخر، وقد لمست اغاني اخرى جوهر هذا الواقع ، وكانت هي الشمعة بين هذا الظلام ، وهذا ما سنناقشه لاحقا .

كيـــف طرحـــوا العلاقـــة بيـــن الجنسيـــن ؟:

لقد كان جل اهتمامهم حول هذه العلاقة ، حول الجنس بشكله الاولي" الحب"، لذلك خاطبوا جيل الحب ، جيل الشباب ، "فعصام رجى، يقول :

البنـــت بتكبـــر قبـــل الشـــاب ... حتـــى تتحلـــى وتتحـــب
والشـــاب بيصغـــر عمـــره ... حتـــى يكبـــر وهـــو شـــاب
وادلـــل يـــا حبيبـــي وانـــت شـــاب

ان الحب في مجتمعنا ما زال مشكلة بالفعل، لكننا ننظر لها كمسألة مرتبطة بعوامل كثيرة مهمة كالاقتصاد والتحرر الاجتماعي الحقيقي، ولكن هؤلاء تناولوها بشكلها السطحي، فهم تناولوا الهيام والسهر والشوق دون ربطها بالواقع المعاش، تناولوا مسألة جانبية، عملوا على تكبيرها، "وهموا" المستمع وكأن لا مشاكل غيرها، حاولوا جرهم للمساهمة في حلها، البكاء حين يريدون والفرح حين يريدون ايضا، ولقد جعل هؤلاء الفنانون من السطحية منهجا لهم ، بل واعتبروا ذلك عمقا، تعمقوا في هذه السطحية حتى غرقوا في داخلها ، فجابوا الفساتين بألوانها والخدود الحمراء والعيون السود والقوام الممشوق والشعر الناعم الذى يتمايل مع الخصر، كلّ شيء ناعم ومريح ، انهم يوهمونك كما لوكنت في جنة عدن والنساء حولك هن مجموعة من الجواري تتغزل في شعر هذه، تتنقل لخدود وشفاه تلك ، وتلاعب الخصر النحيل الذى يتمايل كما الاغصان. اين نحن من هذه الحياة؟ وهل نعيشها يوميا ام تمر علينا للحظات في يومنا، تهزنا للحظات وتذهب بعيدا مصطدمة بمجريات الحياة السريعة والصعبة، تضيع بين ثنيات الغلاء الفاحش حتى في المهور، تضيع بين سندان العادات الاجتماعية المتخلفة ومطرقة القمع والاضطهاد الحكومي في بلادنا ، فها هو "وليد توفيق" يحدثنا عن حسن الطلعة والرموش :

ايـــه العظمـــة دى كلهـــا ... آه يـــا جميـــل يـــا ابهـــة

Digitized by Birzeit University Library

تخطر جنبي وتبتسم ... ويدوب قلبي ويترسم
ولما اندهلك بترسم
خفة ورقة ومنجهة ... ايه العظمة دى كلها
خدك نور بضحكتك ... والليل نور بطلعتك
وبتتمختر وخطوتك
رمشك علم في قلبنا ... وانت معلم في غلبنا
لو تتكلم أدوب انا

وآخر يتكلم عن الخدود :

لون خدودك لون ورود ... شو بيلبقلك دق العود
قلبي بحبك موعود ... قوليلي بحبك قولي

أما عن الحلاوة والشعر الناعم الطاير :

طلت الحلوة وشعرها طاير على خدها ... قلبي من يومها يا قلبي ما عاد يتخبى
سألتهن عن اسمها قالولي اسمها زينه ... يا ريت حلمي يتحقق قربك يا زينه

أما للعيون والخدود :

جرحوني عيونه يابا ... المولى يصونه يابا
ويا ويل خدوده يابا

ومن ضمن غنائهم للمظهر ، الخدود والعيون والخصر، فانهم غنوا للملبس ما غنوا للفساتين الحمراء والزرقاء وللشال ايضا :

يا ام الشال العنابي ... دوبتيني بثيابي
خللي الليل ونجم سهيل .
يحكوا لك عن عذابي

وها هم ينتقلون من الشكل الخارجي ، الى درجة اكثر عمقا ، الكلام والطبع ولكنهم تناولوها بالشكل السطحي الوصفي " الهيماني " :

كلام حبيبي يا ناس ... احلى من العسل
طبعه حبيبي حسن ... ضربوا فيه المثل
حبيبي طبعه حلو ... روحوا عنه وأسألوا
برجه برج الدلو

والمرأة عند الرجل ملاك لديه الاستعداد لعمل كل شيء من اجلها كما يقول " فؤاد غازى " :

لازرعلك بستان ورود ... شجرة صغيرة تفيبكي
لاغزلك من نور الشمس ... سواره احطها بايديكي
راح جيبلك من ابعد بحر ... احلى دره بلاقيها
واسرقلك من حول البدر ... أجمل نجمة مخبيها
وأعمرلك بالعالي قصر ... وعلى جناحاتي وديكي

Digitized by Birzeit University Library

لـــو بـــدك لـــولـــو ومرجـــــان راح جيبلـــك خزنـــة بحالهـــــا
لـــو بـــدك طقيـــة الجـــــان مانـــي راح قلـــــــك لا لا
لـــو بـــدك يـــا غصـــن البـــان جـــوه عيونـــي بخيبكـــي

ان هذه النظرة للمرأة من قبل الرجل هي نظرة الملاك كما رأينا وهي المعالية والمتكبرة، يكفيه منها نظرة او كلمة، يرعب بأن تنزل من على برجها العالي لتكلمه وتحبه، ليعيشا حياة النعيم كما يقولون، فوليد " توفيق يقول ":

تنـــزل يـــا جميـــل بالساحـــــة تتمختـــر كـــده بالراحـــــة
انـــا قلبـــي عليـــك مـــع انـــه نظـــرة عينيـــك دباحـــــة
مالـــك طالـــــع بالعالـــي يـــا مالـــك قلبـــي ليالـــي

أمـــرك يـــا جميـــــل

فهؤلاء مستعدون لعمل اى شيء من اجلها، يتعاملون معها بشكل ذليل، لديهم الاستعداد لان ينفذوا اوامرها بمجرد الاشارة كما يفصح عن ذلك " سامي كلارم ":

أمـــرك حبيبـــي أمـــــرك واللـــي تريـــده امـــــرك

لكن هذه النظرة تتغير بعد الزواج، بعد تفريغ الكبت الجنسي، فالزواج يقتل الحب كما يقولون

مـــن غيـــر زواج الحـــب يطـــول وبالـــزواج حيضيـــع علـــى طـــول
ومعقولـــة تبقـــى الســـت مراتـــي بـــدل حبيبتـــي وحياتـــــي
معقولـــه تقولـــي جـــوزى ونصيبـــي بـــدل عزيـــزى وحيـــدى حبيبـــي

ان هذه النظرة لم تأت فقط نتيجة الكبت الجنسي وحده، بل لان المجتمع ذكورى ايضا :

الدنيـــا حلـــوة برجالهـــــا لا بقصورهـــا ولا بمالهـــــا
واللـــي فـــي عندهـــا رجـــال اوعـــى تتـــرك رجالهـــــا

والمرأة ليست فقط مسألة ثانوية فهي ليست اكثر من مجرد سلعة تباع وتشترى دون ان تشارك بالقرار كما يبين ذلك " عازار حبيب ":

خطبوهـــــا خطبوهـــــا وبالجواهـــــر شنشلوهـــــا
علموهـــا تحـــب غيـــرى وقلـــب غيـــرى سلموهـــــا

والمرأة هي مجرد تابع للرجل حتى لو وصلت الصين كما يقول " مروان حسام الدين ":

رفـــي بجناحـــك رفـــــي ودورى بهـــا الدنيـــا ولفـــي
ولا تطيـــرى تروحـــي لبعيـــد خيطـــك مربـــوط بكفـــي
عيونـــي عليـــك سهرانيـــن نظـــرة شـــوق ونظـــرة حنيـــن
لـــو طرتـــي ووصلتـــي الصيـــن خيطـــك مربـــوط بكفـــي

وفي ظل هذا المجتمع الذكورى فان صفة الخداع والنكوث بالوعد متلازمتان بوجود المرأة:

كيـــف نسيتـــي قلبنـــا شـــو دق وانـــت تقوليلـــي دخلـــك راح طق
حتى تبقي حدى وحبـــك مثـــل مـــا بدى وفجـــأة مثـــل ومـــا اســـالتي يـــا نـــورة

كيـــف نسيتـــي شـــو حكيتـــي وشـــو حلفتـــي

Digitized by Birzeit University Library

وآحر يقول :

حبيتك اكثر ما فيي واعطيتك قلبي وعينيي
تركتيني وعني ما اسالتي

يا له من مظلوم !!! لماذا حدث " الخداع "؟ لماذا تحول اللقاء الى مجافاة ، لماذا تفسخت علاقتهم؟ نستطيع ان نعرف ذلك من الاسس التي بنيت عليها هذه العلاقة ، ويا لها من اسس سطحية كسطحيتهم ، "فسامي كلارك" يقول :

يوم التقينا حكيوا عنينا
رحنا اتمشينا احلى مشوار
ايديك في ايدي منك تنهيدة
ومني تنهيده وبلشنا نغار

اما النظرة للمرأة الاجنبية فهي اكثر قسوة، اكثر خداعا ، ولا يعرف لها حبيب واحد :

الله هالله يا لويزا هالحرقة بتغفينا
راحت بينا بلا فيزا ساعة بتحكي باريزى
وساعة بالانجليزى وبتنادى الكل يا عزيزى
وما بتعرف مين عزيزها
بتسمى اللي ما يتسمى حط الجره على ثمها
بتطلع البنت لامها يلعن امها
مجنونة الست بريزا

وماذا تقول المرأة ؟:

رغم ان البعض يظن بأن المرأة ستقول شيئا مغايرا الا انه يجب الاعتراف بان عاداتنا هي عادات وتقاليد هذا المجتمع باسره ، والمرأة من ضمن هذا المجتمع تنظر لنفسها بمنظاره ، وتنظر للرجل كما يراه المجتمع ايضا ، واذا كان الرجل نفسه قد ظلم فان المرأة ظلمت اكثر ، فـ" مايا يزبك" تتغزل بالرجل كما يفعل الرجل بها وبالشكل السطحي ايضا :

حبيبي يا عيني يا عيني يا ليلي
يا مسهر عيني بنهاري وليلي
والله اشتقنا اشتقنا لعينونك
يا مدوبنا يا مدوبنا
بوجودك يا ابو سمره يحلى السهر بالليل
والحلوة بيطول عمرها بتغني يا عيني يا ليل

واذا كان " وليد توفيق " يقول :

تعالالي وانا اجيلك وأنور قناديلك

Digitized by Birzeit University Library

فان احدى المغنيات تقول لتصب في نفس المعنى :

خذني معك على درب بعيده — مطرح ما كنا ولاد صغار
ودفي ربيعي بشمس جديده — نسيني يوم صرنا كبار

فهي تريد ان تهرب من كل هذا الواقع الصعب الذى اكتشفته كبيرة ، لكن طريقها للهرب هو الرجل :

خذني معك يا حبيبي — على ارض الرمل اللي فيها عشاب
عند الهوى خبيني واتركني — قول للهوى يا هوى نيسني

نسيني يوم صرنا كبار

و "مايا يزبك" تعترف بهذا الواقع الرجولي ، فهي ما زالت تلح على حبيبها أن يحضرفلوسا بأية طريقة ليخطبها وهي لا تصبر عليه :

قلتله يا الله تلحلح — اخطبني وخلينا نفرح
قالي روقي علينا شوى — هاليوميين بنتبحبح

بح بح ما تلحلح

على هالحالة يا حبوب — قلبي راح يخلص ويدوب
لو اديت القصة لايوب — كان تمرمر وتحكحح

ولكنها كما قلت ترفض هذا الظلم الاجتماعي الذى يضعها في اسفل الهرم كما تقول " داليدا رحمه ".

حاسبني على غلطة — عاتبني على كلمة
غالطاتك مش محسوبة — وانا بأمرك مغلوبة

وتقول "داليدا رحمة ".

طفوشنا من الجنة — وعملتوا طنة ورنة
انتوا ما بتفرق معكن — معكن ولا ما معكن

وكيف ما برمت بتغني

من الجنة نزلتونا — وعلى ها الارض لحقتونا
وبكلمة بتحقونا — صرنا للعالم فرجة

وهل خلت هذه الاغاني من المعاني الانسانية ؟:

بالطبع لا، رغم ان الانسانية ليس من السهولة الاتفاق على معنى لها بين الطبقات والايديولوجيات المختلفة ، واذا كانت هذه الاغاني تعبر في اطارها العام وتخدم مصالح الطبقات المسيطرة حاليا ، فان المعاني الانسانية جاءت ضمن نفس الاطار والذى يمكن ان يفسر من مجموع الطبقات لصالح طبقته دون ربطه بمنتجها ، منها هو احدهم يغني لطفلة تحتفل بحصولها على

Digitized by Birzeit University Library

الشهـــادة :

عـــم تكبـــر الفرحـــة وان شـــاء اللـــه سنـــة الجايـــة
نشوفـــك بالطرحـــة

وها هو "جوزيف عازار" يغني لاحداهن في عيد ميلادها :

مبـــروك مبـــروك
يـــا فرحـــة الاعيـــاد نـــورك علـــي يـــزداد
عليـــك عيـــدك ينعـــاد عقبـــال الميـــت سنـــه
مبـــروك
راح أطيـــر حمـــام بعيـــدك واغنـــي أحلـــى الكـــلام بعيـــدك
واضحكـــي يـــا ايـــام اضحكـــي لحبيبـــي وافرحـــي يـــا ايـــام افرحـــي لحبيبـــي
مبـــروك

و" محمد ثروت" يغني للطفولـــة :

حبيبـــة بـــابـــا رشـــا
أمـــورة بـــابـــا رشـــا
كتكوتـــة بـــابـــا رشـــا
امـــورة بـــابـــا رشـــا
نبيهـــة وطالعـــة شاطـــرة تعـــرف تكتـــب وتقـــرا
ترســـم عصفـــور وشجـــرة وتعـــد لحـــد عشـــرة

هناك الكثير من الاغاني التي تتغنى بالرجولة والشدة والشهامة العربية ومواجهة المواقف الصعبـــة.

كما ان هناك البعض الاخر الذى يحمل رمزا قابلا للتفسير بطرق مختلفة كمجموعة النصائح التي تسديهـــا " سلوى قطريـــب ":

لا تسافـــر علـــى البحـــر الهـــادى البحـــر الهـــادى خلفـــة ريـــاح
لا تتعـــب مـــن عمـــق الـــوادى بآخـــر طلعتهـــا بترتـــاح
لا تقـــول اصحابـــي نسيونـــي وبابهـــن مـــا عنـــدى مفتـــاح
بـــاب الصاحـــب مـــا لـــه صاحـــب هيـــك الدنيـــا بتقلـــك
وز الحلـــوة اضحـــك وغنـــي بـــاب القلـــب بتفتحلـــك
غنـــى وخلـــى القلـــب الصافـــي ينـــور علـــى ايـــام الســـود
وعرفتـــك بعيـــون الغافـــي وقـــت الرايـــح مـــا بيعـــود
لا تمشـــي علـــى الـــدروب الصغيـــرة دروب الدنيـــا مـــا لهـــا حـــدود
ظلـــك عايـــش دنيـــاك عايـــش درب المجـــد بتندهلـــك
لا تنســـى تضحـــك للدنيـــا كـــل الدنيـــا بتضحكلـــك
اما غيرها فقد غنى للبلح والحبيبـــة معـــا :

Digitized by Birzeit University Library

يـــا بلـــــح زغلولـــي ... أكـــــل الحبايـــــب
حبـــــك وصفونـــــي ... وانـــا قلبـــي دايـب علـى البلـح
والبلـــح عالـــي يـــا ولـــد ... والطلـــب غالـــي يـــا ولـــد
طالـــع علـــى بالـــي ادوق البلـــح

الكـــــرم بعيـــــد ... سبقونـــــي اصحابـــــي
قطفـــوا العناقيـــد ... مـــا حسبـــوا حسابـــي
شـــو بنعمـــل يـــا حبايبنـــا ... اكـــل البلـــح دوبنـــا
صـــبوت المواويـــل ... جـــرح موالـــي
حـــب الزغاليـــل ... شغلـــي بالـــي
وبعـــدك يـــا قلـــب مسكـــر ... والبلـــح دايـــب سكـــر

ألـــم يبـــرز بيـــن كـــل هـــذه الاغانـــي شـــيء تقدمـــي؟١

كما قلت سابقا فاننا لا يمكن ان ندرس الكلمات وحدها بصورة مجردةبمعزل عن من صدرت، كتبها ، غناها ولحنهاكعامل اقل ، وبالتالي قلنا في ما كتب سابقا بأن المعاني الانسانية التي قيلت في نفس سياق التطور الرأسمالي والتي لا يختلف عليها احد في ظل " المغمغة" التي ترافقه، وبالتالي وقفت عند حدود الثقافة السائدة، ونستطيع ان نسترجع قول فيروز قبل سنوات طويلة " "من يركب البحر لا يخشى من الغرق" ، فرغم ان هذه العبارة جميلة، مؤثرة وهادفة ، الا ان لنا الحق ان نتسائل : تقصد من ؟ اتقصد البرجوازية التي شقت طريقها الى الامام ووصلت للسلطة، ام تقصد الثائر على وضعه الاجتماعي ؟ اية فئة اجتماعية واية طبقة خدمت ؟ وهناك مثال آخر لفيروز ايضا، فحين غنت " بحبك يا لبنان، كانت تذاع الاغنية من اذاعة " الكتائب" في نفس الوقت الذى تذاع فيه من اذاعة " المرابطون" ، ونذكر الاشاعات المتضاربة التي قيلت في وقتها، حسمتهاعملية الطلاق مع آل "رحباني" ومرافقة " زياد" ابنها، هذا عدا عن ان الاغنية مرتبطة باعلانها في وسائل الاعلام الرسمية والتي تسمح للاغنية التي لا تهاجم بشكل مباشر اذا لم تكن مدافعة عنها وكمثال على ذلك اغاني " الياس خضر " وبكلمات مظفر النواب " التي اذيعت عبر صوت بغداد .

في نفس الاطار المذكور اعلاه برزت مجموعة من الاغاني التقدمية التي تصف الوضع الصعب الذى نعيشه اقتصاديا وغير ذلك، وكمثال على ذلك " جوزيف صقر" الذى وصف معاناة الفقراء الذين يزرعون خسا ولن يصبح ملكهم :-

الخســة اللـي موصلهـا بايـدى ... وسعرهـا مقيـد فـي الجريـدة
حطولهـا اسعـار جديـدة ... كـل لحظـة بسعـر جديـد
أ مبـارح أكلنـا لمـا شبعنـا ... حطينـا كـل اللـي كانـوا معنـا
رجعنـا علـى بكـرة رجعنـا جعنـا ... لازم ناكـل عـن جديـد

Digitized by Birzeit University Library

وها هو يعتذر لليلى (طبقة برجوازية) عن الخطبة وذلك للفارق الطبقي بينهما :

حالـــة تعباتـــة يـــا ليلى خطبة مافيـــش — انـــت غنيـــة يـــا ليلـــى ونحن دراويش

وهو كماتلاحظ يلمس الامور الجوهرية هذه لمسا ، يرى ظواهرها دون ان يصل للعمق ، يقول بأننا كنا بالامس " على الحديدة" وسنصبح في الغد كذلك ، لكنه لم يقل لنا ماذا نفعل ، ويقول ايضا بأننا نعيش في هذه الحياة في انقسام (هدير البوسطة : ركاب الباص) :

واحـــد عـــم ياكـــل خـــس
وواحـــد عـــم ياكـــل تيـــن
فـــي واحـــد هو ومرتـــــه
عبـــى وداخـــت مرتـــــه

ولم يقل لنا ما نحن فاعلين بكل هؤلاء ، اين نحن في هذا الباص؟ ومع من نتضامن؟ واذا تضامنا ، كيـــف ؟.

هذا عن " جوزيف صقر، اما " محمد منير" فلقد كانت لمسته اكثر عمقا وبرمز اقوى ، فهذا الشاب لم يتمرد بالكلمات وحدها بل بالشكل والحركات السريعة ، لقد مزق الشكل الكلاسيكي القديم ، امسك بالميكروفون صال وجال على مسرحه ، حرك يديه بعنف واصرار ليقول ها انا موجود واضيف للفن العربي الكثير وقد قال مرة بأن " العملاق " "محمد عبدالوهاب" لم يكن سوى مرحلة وها أنا اقفز من مرحلة بعده، اخلق شيئا جديدا لا بد سيساعدني ويساعد غيرى في المستقبل على اكمال الطريـــق .

بالطبع لم نقل بأن " محمد منير" هو النموذج الثورى لكنه لمس الجوهر وقال ما لم يقله غيره وسط هذا الظلام ،فهو غنى للوطن والارض والمعاني النبيلة الانسانية بشكلها العام :

كـــم عـــام ومواســـم عـــــدوا — وشجـــر الليمـــون دبـــلان علـــى ارضـــه فينـــــــــــك
بينـــي وبينـــك احـــزان بيعـــــدوا — بينـــي وبينـــك ايـــام بينفضـــوا فينـــــــــــك

انا مـــن غيـــرك انـــا مـــش عاقـــل ولا مجنـــون

أنـــا مبســـوط والدنيـــاهده — رحايـــة قلبي جـــد الجد وحبابه عيـــون
كـــل شـــيء يتســـرق منـــي — مـــن العمـــر من الايـــام والضي من منـــي
كـــل شـــيء حواليـــي يندهلـــي — جـــواى بندهلـــك وقرابـــة تسمعلـــي فينـــــــــــك

اما نظرته للحياة والكون ، فيراه مشرقا مستقبله ما دام لم يجرح "العشاق" ، رغم ان هذه الحياة قاسية في اللحظة الحالية ، لكن كل شيء سيتغير :

الكـــون كلـــه بيـــدور — واحنـــا وبـــاه بنـــدور
واليـــوم بحـــر تعديـــه — اللـــي احنـــا بنحلـــم بيـــه
يـــا حبيبـــي مـــد ايديـــك — ده العالـــم ملـــك ايدينـــا

Digitized by Birzeit University Library

الكذب غطاه احزان والصدق اللي مدفينا
احلى بكره لينا تحلى الذكرى لينا
طول ما احنا يا ناس عايشين ما بنجرحش العاشقين

ورغم قساوة هذه الحياة كما قلت ، فانه يرى الامل والحلم وان الخير ما زال موجودا ، فالطبقة هذه والتي نحن منها لا تنسانا فهي الان " تدوّر سواقينا " :

دنيا تدور مهما تدور ما هي بتدور سواقينا
بعطشنا ، بألمنا لينا الحي بامانينا

يجب ان تكون سعداء والطريق للوصول للاماني هي بالعمل ، البدء بخطوة :

ضحكتنا شغتنا بينورا لياليا
خطوتنا رحلتنا بتقرب امانينا

أما عندما يغني للحب ، فها هي كلمات الارتباط بالطبقة لتجعل هذا الحب له معنى بعيدا عن الرقص والغناء والفساتين الملونة والخدود والعيون الملونة ايضا :

قد البحر والسموات والارض
قد الحب بالفراشات والورد قد ما خدت من الازهار والخد
قد ما مد بالاحباب اليد قدى وقد الدقات والنبض
قدى وقد الاصوات والرد قد الشمس والانهار والمد
قد القمح قد شموس الغد قد الخير اللي ما بينا سوى
والعصافير تحب هواه
حبيتك قد ده كله سوى حبيتك وانت عشاني هواى

أليس ذلك جميلا ؟ نعم وفي نفس هذا السياق فانني اراه يغني لمصر وليس لغيرها حين يقول

الليلة يا سمرة يا سمارة
لا انا كنت بره ولا مهاجر انا اللي جايلك من بآمر
قلبي ولا البحر الهادر عيني ولا الجمرة الليلة
الليل يصبح ويمسي وتذكريني وتمسي
شميت هواك لقيت نفسي يا طيبة وصابرة الليلة

وفي نفس السياق التقدمي هذا غنت " فردوس عبدالحميد " لمصر وللناس الفقراء الذين يجب ان تغني لهم وليس لغيرهم :

بتغني لمين ولمين ولمين يتغني لمين يا حمام
بغني للي سنين البين معلمتهوش النسيان
المر مر وعلى القلبين جاى الزمان صافي وحليان
يا ورد على فل وياسمين يا عود ريحان بين البستان
بغني للناس الحلوين متجمعين اهل وخلان
يا سنين تمرتجر سنين يا مشتتة شمل الاخوان

Digitized by Birzeit University Library

يـــا ميـــن يلملـــم شملنـــا مين ويـــا ميـــن يشيـــل عنـــا الاحـــزان
يـــا ســـــــلام
يـــا ســـــــلام
يـــا ســـــــلام

خلاصـــــــــــــة :

اذا كانت هذه المرحلة كما اسلفنا في البند الثالث من هذه الدراسة ، فانه من المنطق ان تظهر اغان كالتي نراها ضمن الازمة الثقافية التي تعاني منها شعوبنا العربية والفلسطيني منه بشكل خاص على تراب ارضنا ، وفي ظل هذا التراجع ليس منطقيا ظهور نماذج ثورية تقتحم وسائل اعلام الانظمة العربية الحالية ، ان الاغاني الحالية تظهر النموذج الحكوماتي العربي وتصب في مجراه ، ان بعضها يظهر العلاقات الرأسمالية ، وبعضها الاخر يظهر عدم الانسجام الكامل معها في ظل تأخر العلاقات الاجتماعية على هذا التطور ـ الرأسمالي ـ . ان الكثير منها جاء سطحيا ومحاولا معالجة المشاكل الجانبية بشكلها المجرد وبالتالي جر هذه المجتمعات معه ، مبعدا اياه عن المشاكل الجوهريـــــــة .

قلنا لقد كان طبيعيا ان يحدث ذلك ، لكن هذه الاغاني ليست كلها سيئة ، فكما رأينا طرح بعضها جوانب انسانية ، وحب الارتباط بالطبيعة والجنس الاخر كجزء منها وهذه الاغاني افضل بكثير من الاسفاف والسفور في اغان اخرى كثيرة ، وضمن هذه المرحلة نفسها فان باستطاعتنا ان نجد اغان ومغنيين تقدميين يمثلون شمعة تضيء وسط هذا الظلام ، لكنهم كما قلنا لم يمثلوا البديل او النموذج الثوري ، وهذا النموذج ان وجد في مرحلة لاحقة ـ ولابد سنجده ـ سيكون من خارج وسائل الاعلام الرسمية الحالية ، بل ومرتبطا بالتغيرات والتطورات الجديدة في هذه المنطقة ان ظهور هذا البديل لمرتبط بزوال العوامل المحيطة التي ذكرناها والتي لا بد ستزول ، لا يعني ما قلته بأن ننتظر تغير كل تلك العوامل اذ ان الاغاني احد جوانبها تتأثر وتؤثر بغيرها ، وبالتالي يمكن لاحدها ان يشق طريقه عاملا على تغييرها وجرها معه ويبدو التمسك بالاغاني ذات البعد الانساني التقدمي في هذه الفترة امرا مهما . بل ولدينا الكثير نردده ونغنيه في حفلاتنا ومناسباتنا ، وبالتالي نجد الدعوة للتمسك بالتراث الشعبي كبديل قوى وممكن تطبيقه في المرحلة الحالية ، لكن لا يمكن لجعل هذه الخطوة ظاهرة خاصة في مدننا الا اذا ارتبطت بالعمل باتجاهها ، فدعم الفرق الشعبية التراثية ودفعها لنشر هذا التراث في الجامعات واماكن التواجد الكبير ، نشر وتوزيع الاغاني الشعبية ، الكتابة عنها اعلاميا بشكل واسع مدروس ومستمر في الصحف والمجلات ، الكتابة عن الجوانب الانسانية التي تحملها من تمسك بالارض ، احترام الانسان والطبيعة ، الامل والعمل ، وأمور كثيرة غيرها هي مهمة لاخراجنا من هذا الظلام والانقسام ليضعنا على طريق النـور .

Digitized by Birzeit University Library

" لو " .. يا .. يالو ..

بقلم : خالد الجواريـــش

اضطرب الجميع للخبر .. فلم يكد يمضي على قدومه لزيارة الاهل سوى يوم واحد .. ما هذه النهاية المفجعة لابي صابر .. اوشكت الشمس على الغرق في عالم مجهول .. عندما كان اهله ينظرون اليه في وجل .. عيناه ما تزالان مفتوحتين تنظران الى المياه الجارية في عين يالو * ... تحدّقان في بيوت متراصّة على شكل قرية جميلة فوق تلّة .. تحيطها اشجار مثمرة .. ينهض اهلها صباحا ،كلٌّ الى ارضه يفلحها ويزرعها .. مستبشرين بأن الارض باقية .. وبأن الايام الهنية لا محالة آتيـــة ...

في زمن الاعصاب الموقوتة كان ابو صابر يغادر القرية محمولا على الاكتاف .. بكى الحضور جميعا .. بكى الزعتر والزيتون .. كانت تنبعث منه رائحة المالحة .. تتذوق في قمازه طعم التمـــرد ...

يومها خرج مبكرا .. طوال الطريق ،كان يحمل صورة حيّة لقريته شخوصاوأحداث تتحرك في ذاكرته تحفزه على المسير بسرعة اكثر مما يطيق .. عشرات الافكار تتوارد على ذاكرته مشكلة صراع ما بين ماضيه وحاضره ..

رفع يده في حركة على شكل قوس لتستقر على شعيرات بلون القطن منتصبة من شاربه .. ما اصعب ان يفقد الطير وكره .. فكيف اذا فقد في نفس الوقت وكره وفراخـــه .

أسند ظهره الى تلك الزيتونة .. نعم .. انها ترجعه سبعة وثلاثين عاما للوراء .. شيخ القرية وحاشيته يمرون في هيبة خاصة .. الكل ينهض من مكانه ويتسابق لمصافحته ولمس يده في وقار .. يأخذون مكانهم الطبيعي في الساحة كما نشاهد اليوم جماعة ابي جهل من على شاشة التلفاز .. ينهض " ابو الفقر" بقامته النحيفة الطويلة ذو التجاعيد في

* عين يالو : عين مياه تقع في قرية المالحة الى الجنوب الغربي من القدس .

Digitized by Birzeit University Library

وجهه . ترى من خلالها عفن السنين وقذارة الايام .. ليقوم بمهمة صب القهوة .. يهز الشيخ الفنجان للدلالة على انه لا يريد المزيد .. ابو جهل ما زال يظهر حتى يومنا هذا بعمامة اخرى في امكنة اخرى ..

هنا احببت لاول مرة .. يومها كانت نساء البلدة في مناورة جديدة لجلب المياه من العين .. عين ياللو ..عندما وقع نظري عليها .. كانت من دونهن ذات ابتسامة عريضة .. وقامة تتمايل بها بين العوسج .. وتتناطح بها المريمية والزعتر .. وعيناں تجوبان ازقة صدرى وملامح وجودى .. يزيح بيده عن شاربه بعد ان تجمعت الشعيرات في كتلة متعثرة عشوائيا .. ترتسم على شفتيه ضحكة ليس لها معنى ـ يعتدل في جلسته .. ويتناول علبة السجائر ليشعل سيجارة .. هذه العلبة كانت لجدّي ومن يسعده الحظ فقط يسكن في واحدة مثلها .. هنا قبر ابي محمد . لقد قتله ابن عمي لانه مر من ارضه وبرفقته اغنامه .. سبب تافه حقا .. ولكن هل كان يستحق ذلك لمجرد انه مر من الارض .. شيء محير فعلا ويدعو للتساؤل .. ؟ هذا الجامع ذو المئذنة المفقودة والتي هدم جزء منها بسبب صاعقة يشكل تراثا مهما من معالم قريتي.. هنا كانت مدرسة القرية .. بناء مرتفع شامخ .. على كل حال افضل من الجامع من حيث المساحة ونظام التعليم .. قال لي جدّي ذات يوم بعدما سألته عن سبب تسمية المالحة بهذا الاسم .. فقال بانه يروى عن جده بأن الجد السابع لجده .. عن الجد .. فقاطعته مختصراً الحديث .. اعرف ارتباطك بالمالحة .. اعرف .. امتعض قليلا لمقاطعته .. ولكنه اردف قائلا .. بانه عند قدوم الاجداد الى هنا .. كانت مياه عين ياللو والتي استقروا هنا بسببها، مياه مالحة .. ولهذا اطلق على هذه القرية اسم المالحة .. ولكن هذا السبب غير مؤكـــد ...

جامع بدون مئذنة .. مدرسة حديثة .. تلال وسهول .. زيتون وزعتر ومريمية وعوسج .. مالحة حلوة .. يشعل سيجارة اخرى .. وينهض من تحت الزيتونة لان اشعة الشمس ضايقته وظل الزيتونة في الطرف الاخر سيحطه ينتاب بسنـــه ...

رائحة المالحة في نظره لها طعم ومذاق اخرين .. لن يشعر بهما الا من قضى من حياته جزءا فيها وانجبلت مع عرقه احجار ارضهـــا ...

خبز الطابون له نكهة لذيذة حيث كانت امي تنهض مبكرة لترجع ومعها الارغفة الساخنة ... وبعدها يقوم كل منا بغمس رغيف الخبز في جرّة الزيت ليتناول فطورا شهيا ..

يتابع خطواته مهرولا لان احدهم اوقف سيارته ومعه عشيقته ليتمتع بطريقته الخاصة تحت شجرة الزيتون التي كان جالسا تحتها هنا اقيم عرس اخي .. استمر العرس اسبوع كامل .. هنا كانت حلقة الدبكة والارغول .. هنا كان صوت الناي يهوي بأفئدة الشباب .. ويزيدهم تشبثاً بتراث الامة العريق .. هنا كانت حلقة الكبار في السن حيث كان جارنا ابو سلامة .. يروى لهم بطولات عنترة العبسي ومغامرات ابي زيد الهلالي ....

قال لي احد اعمامي بأنه كان ينقض على جارنا لانه انهى قبل منتصف الليل قصة ابي زيد الهلالي عندما كان يتعارك مع احد خصومه .. وبعد شجار عنيف وتوسل من

Digitized by Birzeit University Library

الحضور .. انهى ابو سلامة القصة مع اذان الصبح ...

هنا كانت حلقة النساء يزغردن ويغنين .. السامر مع ضوء القمر الخافت في ليالي الصيف .. وصوت الناي والزغاريد متعة اخـــرى ...

هنا كانت امي تضع العنب والبندورة في الصناديق تحضيرا لبيعها في باب العامود .. هنا كانت تدّخر القمح وتخزنه في اكياس للايام السوداء .. كان مصدر رزقنا الحلال ومشتقاته .

وقت الحصيدة كان يقضي الرجال والنساء وقتهم يغنون ويمرحون وهم يمسكون المناجل بأيديهم .. مستبشرين بأن الارض باقية .. وبأن الايام الهنية لا محالة آتية ..

هنا في المالحة كانت محطتي الاولى من قطار العمر .. هنا كنت العب .. وهناك كنت .. وهناك عملت .. شريط من الذكريات كان ذلك قبل سبعةوثلاثين عاما .. محطتي الثانية من زمني الاسود كانت في بلاد الذهب الاسود ...

يوم هجرني لا ادرى ما حدث بالضبط .. الذكريات غير متسلسلة كل ما اذكره .. هروب دير .. مذبحة .. امي تلهث في ثوب بالي .. ياسين .. ثم الاستقرار في اقرب مغارة بعيدة عن القرية .

في بلاد الغربة كل شيء غريب موحش .. حتى انت تحس بالغربة عن نفسك .. يصبح لك وجهان .. وجه تتركه في القرية .. ووجه آخر تناطح به انياب الشمس والحجر الاسود ..

يصبح لك قلبان .. قلب يخفق لشم لقمة العيش .. وقلب خلف القضبان يئن جريحا .. يئن قتيلا .. سرعان ما يخرج من قيده .. يؤرقك . يؤلمك .. يتحوصل على شكل وطن ... جامع .. خربة ... مغارة .. علّيّة .. عين يالو .. خصلة عنب .. ساحة .. قلب يتخذ في اسوأ الاحوال شكلا شهيا للمالحة ..

كان مستبشرا بان الارض باقية .. وبان الايام الهنية لا محالة آتية .. الايام التي بكيت فيها من حياتي معدودة على اصابع اليد الواحدة . كانت الدمعة الاولى عندما توفي جدّي .. والثانية عند رحيلنا والثالثة هناك في بلاد الغربة .. لا اعرف لماذا اشعر الان وفي هذه اللحظة بالذات رغبتي ان اسكب دمعتي الرابعة ، فعين يالو اصبحت مياه مجارى .. وهذا الجامع .. حرام .. لا يستطيع حمل جسمه .. يخر ساجدا لاثما التراب .. يقبله بجنون .. تمتزج دموعه بالتراب .. لا ... لا .. اين الساحة والناي .. اين علّيّة جدّي .. اين خربتنا .. قل بل ايـن القريـة .. ايـــن ... ؟؟

يسمع صراخه بعض الاولاد يقتربون منه .. ايش تعمل يا حاج .. ما .. ماذا .. من انتم .. نحن اصحاب العين .. عين جي لو .. ماذا ... لا يا صغار .. لاهذه عين يالو .. لو .. لو .. يلا روح من هون ..

يتوقف ضميره فجأة عن العمل .. تتلعثم محتوياته .. كرياته البيضاء والحمراء تدخل في صراع دموى .. يتشابك ماضيه وحاضره .. اصبح له ثلاثة قلوب .. قلب اصابته نوبة وقلب غرق بمياه العين .. وقلب يرفض به زمن ابي جهل ... ماذا قال الاولارد .. حب ن .. لا ... لا ... عين .. لو ... لو .. لو .. يالو . ...

كان طوال عمره يقول ابني صابر سيرجع .. ولو في آخر العمر .. سيسقي المياه .. ابني سيعود في ازمنة اخرى متخذا اشكالا

Digitized by Birzeit University Library

اخرى ... قد يكون شكل الاعصار او شكل الزلزال او شكل المارد .. ولكنه حتما سيعود .. لتعود معه الايام الهنية التي كانوا يستبشرون بهـــا ..

بعد عصر اليوم بحث عنه اقرباؤه في كل مكان .. لم يعثروا عليه،بعضهم قال ذهب للصلاة في المسجد الاقصى .. البعض الاخر قال ذهب لزيارة اصدقائه القدامى والذين لم يرحلوا ... ولكن لماذا لم يقل لنا اين ذهب .. قبل الغروب بساعة كانت هناك مكالمة هاتفية لهم .. هل ابو صابر هو الذى تبحثون عنه .. نعم ... نعم .. هل وجدتموه نعم .. وجدنا جثته بجانب عين يالو .. تعالوا لاستلامه ..

بكى الحضور جميعا .. بكى الزعتر والزيتون كانت تنبعث منه رائحة المالحة .. تتذوق في قمبازه طعم التمرد ...

Digitized by Birzeit University Library

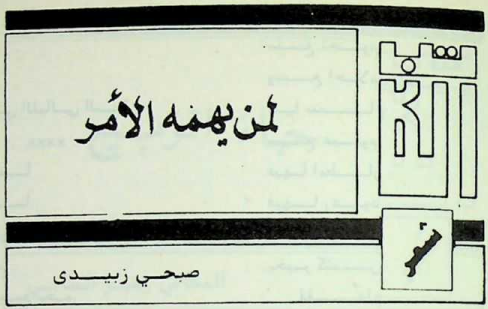

بيني وبينك سبع بحور
صحراونهر وشمس تحرق
ان تخطي شوى
تطلع من بيوتها النمور
يطفي الضو
ترعد السما وتبرق
لو صايك حنين صوب الفقر شقتي
اوعك تلين
وابوك ما تجبو دقتي
ثوبي مطرز من كفر ودموع
واربع ملايك طرزن ثوبي
في اربع ليالي سهر موجوع
خضّن عيني
وخافت علي
امي من التعب والجوع
قالت ضعت لما انبعت
لغير عيون تصحى لك
يا مهاجر صبح مع اول ندى
يا ساكن بعد سابع بحر
اشفق على مالك
عندي برد

ما في حدا حسّ بْدفّي
الا غريب حط الحلم في الموقدة
وحدي غص
فوق الرصيف
تحت القمر
قمرنا رغيف
وامنا شجر
وامنا بخان الزيت حاملة سلال سلال
تفرّ القدس بيت بيت
عرجا وقاطعة تلّك جبال

تتبيع العنب
وأبونا تعب
قبل سنين وارتاح
مهما تقل
قلّ الحمل ... ابونا
واشتغل عتّال
مآت اصغير
لما اتعبنّه كثير الاحمال (تقرألِحمال)
حمل اتغنى ع اكتاف ابوى
وحمل احلام يكبر اخوى

Digitized by Birzeit University Library

وحمل اجيال سبع احزان
تحت القمر شاردة جوه انسان
من تعبها سبع نجوم
من شقاها وسبع احلام
ومن عرقها في الليالي الباردة ما بتنام
xxxx سبع غيوم
إن تسأل ما لنا فيها امطار
هذا حالنا فيها رعود
همومنا كثار والفقر سور وسبع وعود
بيني وبينك بخير كثير
بيني وبينك سبع بحور لقدّام

Digitized by Birzeit University Library

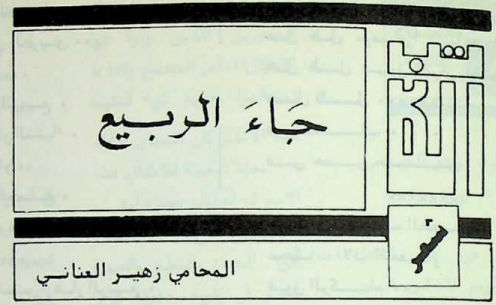

جاء الربيع بثوبه
القفقاض .....
برقص ضاحكا .
والزهر فوق الربوة الخضراء ..
يبسم للنسيم .....
ذهب الشتاء .....
يا مهجتي .....
يا سحر هاتيك الجفون
اليوم ضيعت اللقاء
وحط بي الم العناء
يا زهرتي الحولية الحمراء
هل كر السنين
بعيد ايام اللقاء ...
ام طيب بسمات الاحبة
عائد .....
هل تخبريني .....
قصة الانسان .
يمضي في الطريق .
فوق الروابي الخلد طل بقده
ريان من قطر الندى
والزهر هب اريجه وعبيره

من يخبر السجان علة لون ازهار الربيع
صنم .....
من الطين اللعين
بنى له صرحا ....
وظن بأنه الحصن الحصين .
واغتاله بسمة طفلة ....
في غفلة .....
في نومها .....
في حلمها .....
وطغى
وهدم فوقها كوخا
ومزق فوقه جسد الرضيع ...
شرب الطغاة ...
كؤوسهم ..
قتلوا الحياة بزهرة
يا ويحهم .....
هل يعقلون .....
هل يعلمون .....
تاريخ شعب حافل بنضاله .
عبر السنين ....

Digitized by Birzeit University Library

متمـــــــرد ....
ولدتـه امـواج الصعـاب
وظـل يمشـي في الطريـق ...
ذهـب الشتـاء ...
وسـوف يأتينـا الربيـع .
من قلـب اعصـار الشتـاء .
ولن يطول لقـاؤه ..
سيعـود للارض الجميلـة .
نورهـــا .....
وبهاؤهـا .....
ولسوف تشـرق شمـس ازهـار الربيـع .
ولـن يصـدوا نورهـا .
مهمـا اشاعـوا مـن ظـلام
رغـم اطنـان الركـام
رغـم كـل الموبقـات
ورغـم اشـواك الطريـق
ولسوف تختصـر الحقيقـة .
والحيـــــاة
رغـم اعـداء الحياة
هـل يذكـــرون ...
عبـرا وتاريخـا مضـى
هـل يرحـم التاريـــخ ...

هـل يصفـح الانسـان عـن جـلاده
هـل ظـل شاهنشـاه فـي عليائـه
هـل ظـل سومـوزا بـأرض الفاتحيـن
هـل ظـل فـوق الارض سفـاح لعيـن
هـل ظـل .....
دون عقـــاب .....
فـي حصـن حصيـــن
xxxxxxxx
ستظـل بسمـات الصغـار
ضحكـات الاف الصغـار
فـوق الركـام ..
فـوق الروابـي والتـلال
بيـن الازقـة والـدروب
وبالـورود ستكتسـي ارض الجـدود
ارض المحبـــة
والســـــلام
ذهـب الشتاء بريحـه ورعـوده
وأتـى الربيـــع
ولسـوف نبسم للحيـاة
وللربيـــــع
رغـم الدمـاء
ورغـم اشواك الطريـق

Digitized by Birzeit University Library

تكريم د . اسحق الحسيني

● اقيم في دار الطفل العربي تكريم للدكتور اسحق الحسيني حضره المهتمون بالكتابة والادب واصدقاء وذوى الاديب ، وقدمت الكلمات والقصائد والدراسات حول حياة وانتاج هذا الاديب .

وبهذه المناسبة فاننا نرى ان تكريم هذا الاديب لا يقف عند حد تلك الكلمات والقصائد والدراسات بل يعني ان يكون تلامذة هذا الاديب واصدقاؤه اوفياء للغة العربية والادب العربي والحق العربي وذلك لايكون الا بتفعيل الذات وتطويرها وحماية اللغة والادب من فاسدها ومفسديها والنهوض بها بشكل يخدم مصلحة وتقدم هذا المجتمع وقضيته .

الحياة للاطفال

● اول مجلة متخصصة للاطفال

صدر العدد الاول من مجلة الحياة للاطفال وقد جاء هذا العدد كاول تجربة لهؤلاء المحررين الذين رأوا في الاطفال اساس المجتمع واذا ما استطاعوا تقديم شيء لتقوية هذا الاساس كان البنيان كذلك

مجلة الحياة للاطفال هذا الاسم له مدلوله ومعناه انه نداء صارخ لمنح هؤلاء الاطفال حق الحياة والتعلم والعيش بسلام في ظروف دقيقة حرم فيها الاطفال من ابسط حياتهم وحقوقهم المعاشية .

ونتمنى لهذه المجلة وللزملاء العاملين فيها كل تقدم ونجاح في سبيل خدمة اطفال هذا الوطن .

فيلم

الصورة الاخيرة في الالبوم

● من المقرر ان يبدأ قريبا تصوير فيلم " الصورة الاخيرة في الالبوم" عن قصة الشاعر سميح القاسم ، وذلك بانتاج مشترك بين مؤسسة صامد الفلسطينية وجمهورية بولونيا الاشتراكية ، وقد وضع الكاتب الفلسطيني فاروق وادى سيناريو وحوار الفيلم .

الجدير بالذكر ان "الصورة الاخيرة في الالبوم" كانت قد صدرت عن دار الكاتب في مدينة القدس .

سياسة اسرائيل في المناطق الفلسطينية المحتلة

● عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت ، صدرت مجموعة من الدراسات في كتاب تحت عنوان ، "سياسة اسرائيل في المناطق الفلسطينية المحتلة" تبحث في اساليب الضم والتهويد ، ومصادرة الاراضي ، واقامة المستوطنات ، الجدير بالذكر ، ان الكتاب الذى جاء في ١٣٠ صفحة من القطع المتوسط ، شارك في اعداده ستة باحثين من مناطق مختلفة من العالم .

ايا قدس انت الخيار

● صدر مؤخرا للشاعر الدكتور جمال سلسع ديوان شعرى بعنوان " ايا قدس انت الخيار ".

الجدير بالذكر ان الدكتور سلسع كان اصدر كتاباً حول الشعر في المناطق المحتلة تناول فيه بعض القصائد بالبحث اللغوى .

Digitized by Birzeit University Library

لقاء دولي لاصدقاء الاطفـــال

● وارسو – ادن "– افتتح هنا يوم ١٩٨٦/٢/١٨ لقاء دولي لاصدقاء الاطفال تحت شعار "السلام للاطفال" ويشترك فيهممثلون عن ثماني عشرة منظمة دولية ووطنية من واحد وعشرين بلدا وشخصيات بارزة .

ويخدم اللقاء الذى يقام باشراف الامم المتحدة بحث مواضيع الطفل والحرب والطفل وتطور العالم والسلام كاساس لتحقيق حقوق الطفل .

معرض كتب في موسكو على شرف المؤتمر الـ ٢٧

● موسكو – "تاس"– افتتح يوم ١٩ / شباط الماضي في مكتبة الادب الاجنبي وهيمن اكبر دور الكتب في الاتحاد السوفييتي معرض الحزب الشيوعي السوفييتي من اجل السلم والتقدم الاجتماعي". والمعرض مكرس للمؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي. ويضم المعرض اكثر من ٨٠٠ كتاب وكراسة ومجلة وجريدة مختلفة باللغات الروسية والانجليزية والفرنسية والعربية والالمانية والبلغارية وغيرها . وتتحدث المعروضات عن تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي والدولة السوفييتية ودور الحزب القيادى في تطوير المجتمع الاشتراكي ونضال الحزب من اجل السلم .

" اميل حبيبي والقصة القصية" كتاب جديد للدكتور حسني محمـــود

● صدر عن دار " الوكالة العربية للتوزيع والنشر" كتاب "اميل حبيبي والقصة القصيرة للدكتور حسني محمود، المدرّس في جامعة اليرموك الاردنية ويتضمن الكتاب سيرة حياة اميل حبيبي ونظرة تمهيدية تاريخية حول كتابات اميل القصصية ولمحات تاريخية عن القصة القصيرة الفلسطينية قبل النكبة ثم دراسة حول قصص "بوابة مندلباوم" و" النورية" و"مرثية السلطعون" وتمثيلية "قدر الدنيـا ".

اسبانيا تحتفل بذكرى استشهاد لوركـــا

● احتفلت اسبانيا في الشهر الماضي بالذكرى الخمسين لاستشهاد الشاعر التقدمي غارسيا لوركا . الذى اغتالته الفاشست عام ١٩٣٦.

وقد عمت الاحتفالات بالذكرى معظم انحاء اسبانيا، ولا سيما غرناطةمسقط رأس الشاعر ومكان استشهاده .

وغني عن التعريف ان لوركا من اهم الشعراء العالميين ،يتميز شعره بالبساطة والشفافية، والغنائية بالاضافة الى عمق واصالة يجعلان شعره خالدا على مر الدهـــور .

" الاتحاد السوفييتي – النظرة من الداخل" لعبد الوهاب الزنتاتـــي

● صدر عن احدى دور النشر في القاهرة كتاب " الاتحاد السوفييتي النظرة من الداخل "من تاليفالكاتب عبد الوهاب الزنتاني ، نائب رئيس منظمة التضامن الافرو اسيوي والشخصية الاجتماعية الليبية، وهذا الكتاب عبارةعن نبذة من تاريخ الاتحاد السوفييتي وحياته المعاصرة .

وافرد المؤلف صفحات عديدة للحديث عن ثورة

Digitized by Birzeit University Library

اكتوبر ونضال شعوب روسيا السوفييتية ضد التدخل الاجنبي وعن مراحل بناء الدولة الاشتراكية. ويصف الكاتب مآثر الشعب السوفييتي في الجبهة ومواقع العمل في اثناء الحرب العالمية الثانية ويشير الى اسهام المواطنين السوفييت الحاسم في دحر الفاشية. وكتب عبد الوهاب الزنتاني "أن من الصعب تصور مصير العالم لو لم ينتصر الاتحاد السوفييتي في تلك الحرب ولم يستطع فيما بعد التصدى لمطامع الولايات المتحدة في السيطرة على العالم".

واعتمد المؤلف عند كتابة هذه القصة الوثائقية ليس فقط على الوثائق العديدة بل وعلى انطباعاته الشخصية. فقد عمل عبد الوهاب الزنتاني عدة سنوات سفيرا للجماهيرية الليبية في الاتحاد السوفييتي ثم زار مختلف ربوع الاتحاد السوفييتي اكثر من مرة ويرسم المؤلف صورة مثيرة لحياة المواطنين السوفييت اليومية ويتحدث باسلوب جذاب عن لقاءاته بممثلي مختلف القوميات السوفييتية.

ابحاث بيرزيت

● بيرزيت – اصدر مركز الابحاث في جامعة بيرزيت دراسة عن قرية "عين حوض" في لواء حيفا عالج فيها التاريخ الشعبي للقرية واصل الحمائل والعائلات ووضع القرية في الاربعينات والظروف التي مرت بها اثناء حرب ١٩٤٨، وتضمنت الدراسة صورا عن القرية في وضعها الحالي، وشجرات العائلة، وخارطة تبين مواقع القرى المدمرة وكذلك ملخصا باللغة الانجليزية، وقد جاءت الدراسة في ٦٠ صفحة من الحجم المتوسط.

اعتمدت الدراسة على العديد من المقابلات الشفوية المقننة مع عدد من اهالي القرية الذين عاشوا فيها قبل عام ١٩٤٨، وقد تطرقوا فيها الى احداث القرية وقصصها وحكاياتها ونشاطاتها.

ومن الجدير بالذكر ان هذه اول دراسة في سلسلة توثيق القرى الفلسطينية المدمرة بين عامي ١٩٤٨ – ١٩٥٠ قد ظهرت في حين انه ما زالت خمس قرى اخرى هي سلمة، عنابة، دير ياسين، الدوايمة المجدل تحت الطباعة.

"سماء تحت راية فلسطين" كتاب جديد لسعدى يوسف

● عن منظمة التضامن الافرو اسيوى صدر للشاعر العراقي سعدى يوسف كتاب بعنوان "سماء تحت راية فلسطين" والكتاب عبارة عن مشاهدات وانطباعات وتأملات في ايام الاجتياح الصهيوني للبنان عام ١٩٨٢.

الجزائر

لصوص من جبال الاطلس

● اصدرت دار النشر الفرنسية "جاليمار" رواية الكاتب الجزائرى الشاب عز الدين بونميره والتي تحمل اسم "لصوص من جبال الاطلس". تلك الرواية التي حصلت على المرتبة الاولى في الاحتفالات بالذكرى العشرين لاستقلال الجزائر.

وتدور احداث الرواية في الخمسينات، وفي فترة الاستعمار الفرنسي الكولونيالي،

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب
في مجلدات سنوية

يرجى من القراء الراغبين في شراء بعض المجلدات او الاعداد المفرده الاتصال بادارة المجلة لهذا الغرض .

الاسعار

مجلد السنة الاولى ١٥ دولارا
مجلد السنة الثانية ١٥ دولارا
مجلد السنة الثالثة ٢٠ دولارا
مجلد السنة الرابعة ٢٠ دولارا
مجلد السنة الخامسة ٢٠ دولارا
مجلد السنة السادسة ٢٠ دولارا

الاعداد المنفردة دولار ولاحد

الاداره

Digitized by Birzeit University Library

خليل الموراني

Digitized by Birzeit University Library

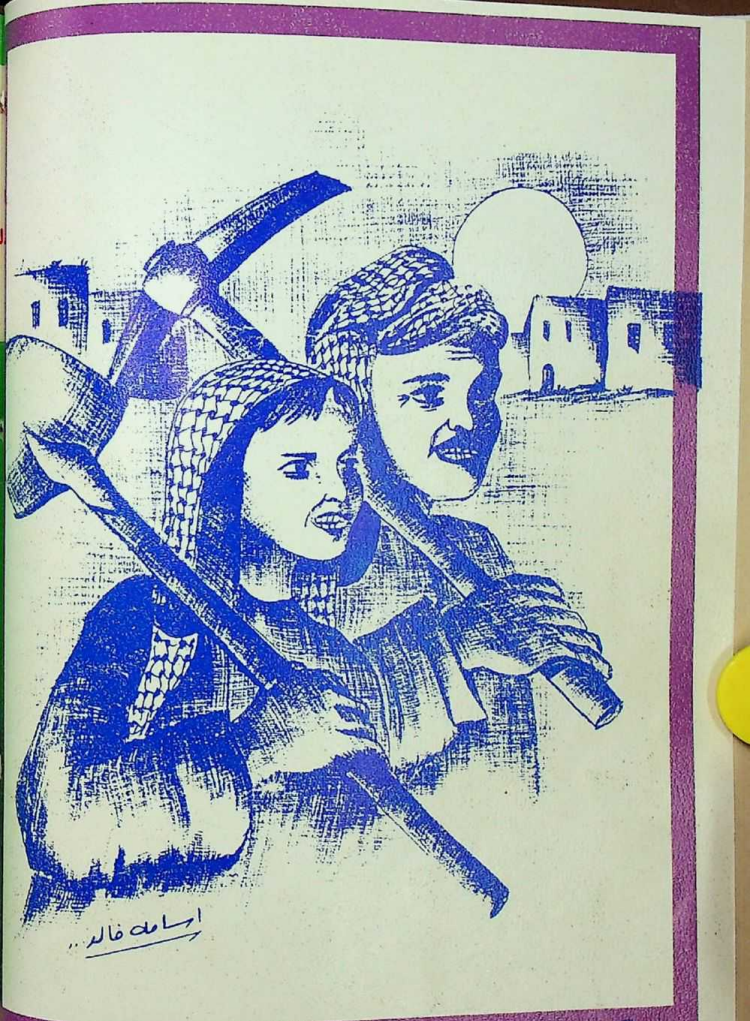

AL-KATEB
For human culture and progress
Editor- Asa'd Al-Asa'd
P.O.Box 20489
Jerusalem
Tel:856931
71
الكاتب

Digitized by Birzeit University Library